الطبعة الأولى



رواية من عالم اليقين

رحلة البقاء

رواية تحكي سيرة إنسان في عالم ما بعد الموت



تأليف
عبد الرزاق الحجابي

عبد الرزاق الحجابي
رحلة البقاء



رواية من عالم لا يفنى :

رحلة البقاء

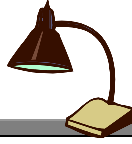
رواية تحكي مسيرة إنسان في عالم ما بعد الموت

- تحت اجنحة البرزخ
- في امواج القيامة

تأليف :

عبد الرزاق الحجامي

هوية الكتاب :



- **اسم الكتاب**: رحلة البقاء
- **المؤلف** : عبد الرزاق الحچامي
- **الطبعة** : الأولى
- **تاريخ النشر** : ٢٠١٣ ميلادي

مؤسسة الرافد للمطبوعات
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣ م
ISBN:٩٧٦-٦٠٠-٩١٠٦٠-١-١
Arrafed_pub@yahoo.com

الكتاب عربي:

١- ما بعد الموت / تحت أجنحة البرزخ
٢- ما بعد الموت / في امواج القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

(الأنبياء :٣٥)

مقدمة المؤلف :

أصبحت متطلبات الحياة في عصرنا كثيرة, ومشـــاكله كبيـــرة, وإغراءاته عظيمة, فراح معظم الناس يغوصون فـــي بحـــر الغفلـــة, ويغرقون في أعماق عالم المادة, فهم يشغلون أوقاتهم الثمينـــة فيهـــا ولأجلها، وكأنها أصبحت هي المقصد الأخيـــر، والغايـــة القصـــوى! غفلوا عن حقيقة هذه الدنيا وأنها ليست إلا معبراً قصيراً لعالم الأبـــد, بل غفلوا عن حقيقة أرواحهم التي لا تقبل الفناء، وأنها خُلقت لعـــالم أوسع وأوسع، ألا وهو عالم البقاء...

وإني لا أدعو أبداً إلى ترك الدنيا والتنفّر منها وهي كما وصفها علي عليه السلام في جوابه لرجل ذم الدنيا: (**... مَسجدُ أحباءِ الله، ومُصلى ملائكةِ الله، ومهبِطُ وحي الله، ومَتجَرُ أولياءِ الله، اكتسَبوا فيها الرحمة، وربِحوا فيها الجنة**)[1]، ولكني أقول إن الدنيا المذمومة تكون كذلك، بل تصبح جيفة طالبها الكلاب إذا تعلّق الإنسان بها، وجعلها هي الغاية والهدف، لا ممر يعبر به إلى حياة الأبد، فيكون مَثَلها مثَل البنزين الذي إن شربته هلكتَ، وإن اتخذته وسيلة لبلوغ ما تروم إليه نفعك.

---

[1] * نهج البلاغة / الحكمة ١٣١



كنتُ انظر لما حولي من الناس، وأتمعن أحـــوالهم مـــن حيـــث الأيمان بالله واليوم الآخر من جهة، ومدى تعلّقهم بالدنيا مـــن جهـــة أخرى، فوجدت الكثير منهم لا يخرج عن إطار الأصـــناف الثلاثـــة التالية:

الصنف الأول: هم أصحاب النفوس اللوّامة, والقلوب المضطربة, ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. يريـــدون التقـــرب إلـــى الله، ويحبون الخير للناس, ولا يعرفون الغش والخـــداع, ولكـــن... لـــو صارحك أحدهم، واظهر ما في قلبه إليك, لوجدته يعاني صـــراعات في أعماق نفسه, ولشكا إليك الحُجب المانعة التي تقف أمامه كالســـد العظيم، تمنعه من الوصول إلى الله والعيش بقلبه مع الله, فهو يريـــد مناجاة ربه بخشوع وخضوع, ولكن ما أن يقف بين يديه حتى تهاوت عليه أفكار الدنيا من كل حدب وصوب, لا ينجو من واحدة إلا ويقـــع في أخرى, حينها يقوم من مقامه مضطربا, ما وجد في مناجاة ربـــه حلاوة, ولا في استجابة دعائه أملا.

والصنف الثاني: ممن غرق في الدنيا وانشغل بها، حتى لم يعـــد يجد لنفسه وقتا يناجي فيه ربه، ويتأمل حاله, وتعدى ذلك حتى إلـــى واجباته, فتراه يؤديها وهو يفكر في تمامها قبـــل شـــروعها, ووجـــد الشيطان في ذلك فرصة سانحة، وأرضاً لمكائده خصبة, فراح يطوّق بذلك المسكين حباله, ويجره إليه, حتى صار أسيرا في يده يلقي عليه ما يشاء.

وأما ***الصنف الثالث***: فحدث ولا حرج، فقد أصبحت الدنيا قبلته التي يوليها وجهه، ويرى كل شيء منها وإليها, نكر خالقه، وأطاع شيطانه الذي احكم مخالبه فيه, وصيّره عبدا له, فترك حتى واجباته, بل تعدى ذلك إلى ظلم أبناء جنسه من اجل أن يعيش مترفا على جسر الدنيا, وليتعذب ويفنى غيره!

كان من الأمور المهمة لدي هو كيف يمكن التذكير بعالم الآخرة والحياة ما بعد الموت, وغرسه في قلوب هذه الأصناف الثلاثة, كي يعطي ثمراته على سلوكهم, ويقطع حبائل شياطينهم, فيعودوا لما خُلقوا لأجله, ولكن...

ولكن واجهتني عقبات في كيفية ذلك, فقد أعطي أحدهم كتابا عقائديا أو فلسفيا ليقرأه, ولكن سرعان ما يضعه جانبا بعد أن يطالع صفحة أو اثنتين منه, وبعض منهم يشكو عدم رغبته فيه، وأنه لا يغير من سلوكه، ولا يزيده إقبالا على ربه. وبعض آخر من إذا تحدثتَ معه بحديث الدين والمعاد, ونصحته بالاتعاظ وترك المحرمات, تراه يتعذر إليك، ويتهرب منك إن لم يتخذك سخريا!

وبعض منهم من يحتاج إلى حبل غليظ يجره بقوة شديدة، ليُخرجه من بحر الغفلة والتعلق بعالم المادة إلى بر التفكر وصحوة الضمير...

وخلاصة لتجربتي مع هؤلاء الأصناف (وكثير منهم إخوتي وأحبتي)، وجدتُ أن الأسلوب الأمثل لإخراجهم من غفلتهم, وزرع

بذرة التفكر بعالم الآخرة في قلوبهم, هو أسلوب الكتــاب القصصـــي الذي يستطيع أن يجذبهم نحوه، ويجرهم إليه, فلا يمل القـــارئ مـــن مطالعته, ولا يتركه حـــتى تنتهي أحداث قصته المترابطة فيما بينها. كما يمكن خلاله زرع مطالب مفيدة تذكر القارئ بعالم آخرته, وتقول له: أنك خُلقتَ لعالم ابدي لا فناء فيه, وأن الموت ليس إلا سفر مـــن عالم صغير إلى عالم واسع كبير, وأن كل عمل يزرعه اليـــوم يـــراه غدا أمامه وقد تجسم بهيأة تتناسب مع خير ذلك العمل أو شره.

كما إن من المطالب المهمة التي يعرضها هذا الكتاب بجزأيه الأول والثاني هو التعريف بحياة ذلك العالَم الآخر، ووصف نعيمه وشقائه، ولذته وآلامه. ولو سأل سائل عن الغاية من ذلك الوصف، وهل له أثر على سلوك الإنسان في حياته الدنيا، فأقول:

إذا قلتَ لشخص إن وراء هذا الجبل مدينة فاسع للوصول إليها، وكان ذلك الشخص لا يعرف عن تلك المدينة شيئاً، تراه لا يندفع لها بشوق، بل قد يترك المسير نحوها، ويستـــثقل العمل لأجلها. أما إذا وصفتَ له بساتينها المتشابكة، وأنهارها الجارية، وقصورها الخلابة، ثم أخبرته بوجود كل ما يشتهيه من الثمار والطعام والشراب، وأن فيها من الخدم الكثير، وقلتَ له إن ذلك كله مُلك له، وتحت إمرته، فهل سيكون شوقه للمدينة والسعي لها بنفس الدرجة الأولى قبل معرفتها؟ كلا، بل سوف تراه يبذل غاية جهده، ولا ينام ليله من أجل بلوغها والعيش فيها.

وكذلك يكون حال الهارب من مدينة وصفتَ له وحوشها والأفاعي التي فيها، والنار التي تحرق كل من يدخلها، والعذاب الذي سوف يلاقيه لو مرّ بها، فانّه لا يهدأ له بال، ولا تغمض له عين، خوفاً من أن يشتبه الطريق ويقع فيها. وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى أثر معرفة الحياة الآخرة واليقين بما فيها من نعيم وشقاء حين قال: **(ألا وإني لمْ أرَ كالجنةِ نام طالبها، ولا كالنارِ نام هاربُها)**[1].

والقرآن الكريم وصف المعاد كثيراً حتى أنها شغلت ما يقارب ثلث آياته، وفي العديد منها كان يصف النار ويحذّر مَن تعرّض لها، وفي أخرى يصف الجنة ويشوّق إليها.

وإن فهمنا لألفاظ وصف القرآن للحشر والحساب والجنة والنار، إنما هو على قدر عقولنا القاصرة التي لا تعرف غير مصاديق عالم الدنيا، وكما معلوم لدينا إن مفاهيم الألفاظ تتغير بمرور الزمان، فضلاً عن تغير العوالم والنشآت، فكلمة السراج مثلا كانت تُطلق في الحقب الماضية على القارورة المملوءة بالزيت، وفي فوهتها فتيلة يخرج جزء منها للإشتعال، أما اليوم فتُطلق هذه اللفظة ويُراد بها المصباح الكهربائي الذي يُعلَّق في السقف، ويُضيء دون فتيلة ولا زيت! فهنا

---

*[1] نهج البلاغة / خطبة ٢٨

بقي المفهوم وتغير المصداق، ويا ترى أي مصداق سيكون لها بعد ألف عام أو ملايين من عصرنا هذا!

وعلى أساس ذلك فنحن عندما نتصور وصف القرآن والأحاديث لعالم الآخرة، إنما نتصوره في أدنى درجاته، وأوطأ مراتبه، وتلك هي حدود أذهاننا وتخيلات عقولنا.

إذن ليعلم القارئ العزيز أن كل ما نصفه في كتابنا هذا من لذة أو عذاب، فإن حقيقة درجته في عالم الآخرة هي أرقى وأعلى بكثير مما تصفه ألسنتنا وتخطه أيدينا.

وعلى أساس هذا المبدأ، ومن منطلق التعريف بعالم الآخرة، وبناءً على الأسس العقائدية لعالم ما بعد الموت، والمستوحاة من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وآراء العلماء، ونظريات الباحثين، كتبتُ روايتي هذه على قسـمين: كان الأول منها كتابنا **(تحت أجنحة البرزخ)**، والذي شمل أحداثا في الدنيا وعالم البرزخ بشكل قصصي جذاب، كما وان كثيرا من الأخوة والأخوات قد صارحوني بعد مطالعته على أنه غيّر مسيرة حياتهم، وأنقذهم من الغرق في بحر المادة، إلى سواحل التفكر بعالم الآخرة والعمل لها.

أما القسم الثاني من الرواية فكان كتابنا **(في أمواج القيامة)** والذي تناولتُ فيه أحداثا لعالم ما بعد البرزخ، ليشمل القيامة الكبرى، ومقدماتها، وما بعدها من الخلود الأبدي والوجود السرمدي. وقد رأينا من الأصلح جمع الكتابين في مجلد واحد باسم **(رحلة البقاء)**.

وطلبي ممن يطالع كتابي هذا من الإخوة والأخوات أن لا يبخلوا بإرسال أي رأي أو نقد يرونه مناسبا على بريدنا الالكتروني، كي يتسنى لنا الاستفادة منه، والاستنارة به في طبعات الكتاب اللاحقة.

وعسى أن يكون عملي وإياكم هذا حسنة جارية تعيننا، وتكـــون زاداً لنا في سفرنا الأبدي إن شاء الله...

المؤلف

عبد الرزاق الحچامي

١٠\٧\٢٠١٢

البريد الإلكتروني:

azq٩٦٧@gmail.com

رواية من عالم لا يفنى :

(الجزء الأول)

تحت أجنحة

البرزخ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

المؤمنون/٩٩-١٠٠

فهرست الجزء الأول : 

الفصل الأول :

اختلاف في المبدأ

لا اعلم كيف اصف نفسي وقلبي يوم جلستُ انظر إلى العالِم الجليل الذي أرشدني إليه صديقي مؤمن وقد مدّ يده لاستلام ورقتي الصغيرة التي كتبتُ فيها أسئلتي.

تمعّن فيها ثم رفع رأسه وكأنه ينتظر مبادرة مني بالكلام, فتداركتُ ذلك وقلتُ إليه:

ـ سيدي أرجو أن تسمح لي أن اشغل وقتك قليلاً فقد ضاق صدري, ولا أجد من يفتح قلبه لي ويستمع بتمعّن لما أقول, أغلبهم مشغولون, حتى الذي أفنى عمره في طلب العلم والتفقه في الدين نسينا أو تناسانا، فبقينا حيارى في الميدان.

كان ينظر لي بتأمل عميق, ويحاول أن يشعرني بعطفه وحنانه, وقد بدت على وجهه ملامح التأثر والاهتمام بي فقال:

ـ بني العزيز ماهي مشكلتك؟

قلتُ:

ـ سيدي إن الدنيا صغُرت في عيني حتى تشاءمتُ منها, وحقرتْ في نفسي حتى أصبحتُ أتنكر لما فيها, فأراها كالصفحة السوداء تمنعني من الوصول إلى الله...

كانت كلماتي الأخيرة ممزوجة بهمسات البكاء الذي منعني من الاستمرار في الكلام, أحسستُ انه يجب أن أتمالك نفسي فانتخبتُ الصمت, ونظرت إلى الأسفل واضعاً يدي على وجهي الذي ابتل بالدموع. لم يستمر صمتي طويلاً حتى رفعتُ وجهي لأرى

الحاضرين وقد بدت عليهم علامات التعجب والدهشة لما يشـــاهدونه, حينها تدارك العالم الجليل ذلك الصمت وقال:

ـ بني العزيز إنني أدعوك غداً للمجيء إلى بيتنا بعـد صـلاة المغرب والعشاء, وسأطالع أسئلتك لأرى إن كان بإمكـاني الإجابـة عنها.

قلتُ:

ـ سيدي وكيف يتسنى لي ذلك وليس لي علم بمكان بيتكم؟

ـ إن صديقك مؤمن سبق وان زارنا مرات عديدة.

ـ وهل تسمح بصحبته معي هذه المرة.

ـ بالطبع يا ولدي, وسأكون بانتظاركما على سفرة العشـاء إن شاء الله.

غادرتُ المجلس بعد أن شكرتُ العالم الجليل, وحاولتُ المشـي بخطوات متّزنة وخفيفة ألقيتُ خلالها نظرات إلى غرفته وإلى المكتبة الكبيرة التي وُضعت الكتب فيها بصورة مرتبة ومقسمة على رفـوف معنونة, كما لفت نظري تواضع غرفته وبساطتها بالرغم مـن أنهـا تعتبر مكتبا لكل اجتماعاته التي يقيمها بوصفه إمام جمعـة للمدينـة, وتذكرتُ حينها مكتب الشركة التي اعمل فيها وزخارفه وأثاثـه فـلا مقارنة بين الاثنين!

اخترتُ هذه المرة أن اسلك طريق البيت مشـياً علـى الأقـدام لأتمكن من التفكير خلاله بالمسائل والمطالب التي سـوف اعرضـها

على إمام الجمعة غدا, ولكن ما أن أردتُ العبور إلى الناحية الثانية من الشارع حتى سمعتُ نداءً من مكان قريب, التفتُ وإذا به جمال يقول:

ــ سعيد إلى أين تذهب تحت وهج هذه الشمس المحرقة؟

ــ إلى البيت.

ــ عجباً لأمرك ألا تحس بحرارة الشمس على بدنك؟!

ــ حقيقة أنني لم أحس بحرارتها إلا بعد أن أخبرتني بها لأني كنتُ مشغولا عنها بأمر آخر.

هز جمال رأسه وفتح باب سيارته, لكني رفضتُ الصعود معه بشدة, فأصرّ أكثر وأخذ بيدي يجرها إليه, حينها رأيتُ انه ليس من اللائق أمام أعين الناس ذلك, فقررتُ الصعود معه بعد أن شرطتُ على نفسي استثمار الطريق بدعوته إلى الصواب ونهيه عما يفعله, وما أن أغلقتُ باب السيارة حتى بدأ كلامه من جديد:

ــ إنني كثيراً ما أفكر في أمرك وأكاد ابكي على حالك, فكيف بمهندس مثلك يعيش حياة البسطاء, ويكاد يفقد ابسط وسائل الراحة كالسيارة مثلاً؟!

أجبته قائلا:

ــ بل إنني أعجب من أمرك كيف تقود سيارة ذات طراز حديث, وتعيش في بيت ذي ثلاث طوابق مجهز بالتبريد وغيره وقد أُسس على مال حرام؟!

ـ ألا ترى أنني احسن حالاً ومالاً منك, فأنت لا شيء عندك وأنا عندي كل شيء, فهل هناك عاقل يحكم بخطأ طريقتي في الكسب والعيش؟

لم أكن متهيئاً للدخول معه في نقاش كهذا, لذلك حاولت التأخير في الإجابة لغرض التفكير في كيفية الاستمرار معه, حتى ظن أنني استسلمتُ إليه ولم يبق عندي ما أقوله, فبادر قائلاً:

ـ عزيزي إنني لا أريد إلا الخير لك و..

قاطعته بقولي:

ـ مهلاً مهلاً يا جمال, أرجو أن لا تعتبر صمتي استسلاما لرأيك, فإن من عادتي التفكير قبل كل كلام أنطقه, كما إنني أسألك بأي دليل تحب أن اثبت لك بأنك الآن تسير بطريق آخره الهلاك والخسران؟

ـ أنا لا أؤمن إلا بالعلم الحديث والكمبيوتر, وأرجو أن تدعنا من الأحاديث والروايات التقليدية التي مُلئت بطون الكتب القديمة بها.

ـ حسناً, وأنا أعدك أن لا اذكر لك شيئاً من ذلك, ولكن أسألك كيف توصل الإنسان إلى هذه المرحلة من التطور وصناعة الأجهزة الحديثة وغيرها؟

ـ بالعقل والتجربة.

ـ إذاً يمكن لنا أن نستخدم العقل في حديثنا.

ـ لا بأس بذلك.

ــ لو أخذتك إلى عمارة بسبعة طوابق, يحوي كل طابق على سبع شقق سكنية مؤثثة ومجهزة بنظام التبريد والتدفئة المركزي للهواء والماء, ولديها ارتباط كمبيوتري فيما بينها, وذات شكل معماري خلاب يجلب إليه الأنظار, ثم أقول لك أن العامل عبد الله هو الذي كان المصمم والمنفذ والمشرف على هذا المشروع, فهل تصدق ذلك وأنت تعرف جيداً أن عبد الله لا يعرف حتى القراءة والكتابة؟

ــ إن مبنى كالذي تقول يحتاج إلى فريق من المهندسين لتصميمه وتنفيذه ولا يمكن لعبد الله أن يتورط بمثل هذا المشروع.

ــ وهل يمكن أن تقول أنها صُمِّمت ونُفِّذت دون تدخل أي شخص, أي إن موادها من الطابوق والإسمنت والرمل وغيره قد تجمعت من تلقاء ذاتها وكونت لنا هذا المبنى؟

ــ هذا لا يمكن.

ــ إذاً بنظرك من صنع الإنسان والشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات بهذه الدقة العجيبة التي أثبتها العلم الحديث بوسائله المتطورة؟

بقي جمال متحيراً, وبقيتُ أنا انظر إليه منتظراً جوابه, حينها أحسستُ الحيرة على وجهه, فهو لا يستطيع الإجابة بأنها قد انشطرت من تلقاء نفسها وتكونت بهذا الشكل, لأنه قد نفى إمكانية حصول ذلك قبل قليل.

لم يطل صمته كثيرا وإذا به يجيب:

ــ لا بد أن هناك فريقا من المهندسين نجهلهم تعاونوا على صنع هذا الكون وأدارته.

ــ بالطبع, وهؤلاء المهندسون ليسوا مثلنا، لان كوناً بهذه العظمة يحتاج إلى مهندسين فوق عظمته بالتصميم والتنفيذ كي لا يكونوا كالعامل عبد الله بالنسبة إلى العمارة ذات الطوابق السبعة.

ــ نعم.

ــ هل تذكر يوم عقدنا اجتماعاً في مبنى الإدارة المحلية وذلك لتشكيل لجنة تصميم وتنفيذ مشروع المجمع السكني (الأنصار), وكنتَ أنت أول مخالف لفكرة اللجنة المشتركة, وكنتَ تقول إن المشروع يجب أن يكون تحت إمرة وإدارة شخص واحد وإلا فمن اليوم الأول سنُبتلى بمشكلات الاختلاف في الآراء؟

ــ صحيح, كان ذلك في العام الماضي, ولو عملوا بالرأي الذي قلته لهم لما تأخر المشروع ثلاثة أشهر حتى تم تعيين مديرٍ له.

ــ إذاً كيف تقول الآن إن فريقاً من المهندسين صنعوا هذا الكون وتعاونوا على تدبيره وأدارته, وأنت ترى أن الكون منذ آلاف بل ملايين السنين باقٍ على نظامه ودقته في الحركة والتناسق, إذن من المؤكد أن صانعه ومدبره هو مهندس واحد قدرته في التفكير والتنفيذ فوق قدرتنا وقدرة الكون, وهذا المهندس نحن نسميه الله.

كأنه أراد أن يقول شيئاً لكنه لم ينطق به, حينها أراد أن يشعرني بأنه مشغول بسياقة سيارته فقال:

ــ إن الأطفال يحتاجون إلى انتباه خاص إليهم, خصوصاً عنــد اجتماع عدد منهم, فإنهم يتجرءون على العبور أمام الســيارات وإن كانت تسير بسرعة كبيرة.

كنتُ انظر إليــه بدقة وإذا به فجأة يلتفت لي وكأنه تذكر شــيئاً وقال:

ــ انك لحد الآن لم تثبت لي الموضوع الذي بدأ حديثنا من أجله.

بدأنا شيئاً فشيئاً نقترب من الشارع الرئيسي الذي يــؤدي أحــد فروعه إلى بيتنا, لذلك أحسستُ أن عليّ إثبات الموضوع بأقصر وقت وإلا سيكون حديثنا ناقصاً لم يحقق الهدف الكامل الذي قصدته, فأجبته بقولي:

ــ صحيح ما تقول، لكن لدي سؤال اجبني عنه.

ــ لم امتنع عن إجابة أي سؤال لك حتى الآن.

ــ ما هو هدف خلق الإنسان على هذه الأرض؟

تململ قليلاً ثم قال:

ــ ممكن أن يكون لتعمير الأرض وبنائها وإيصالها إلى مرحلــة من العمران قد تكون فوق ما وصلت إليه الآن.

ــ لكن العلم الحديث اثبت أن الأرض تسير نحو الفناء, إذ سيأتي يوم تتعادل فيه درجة الحرارة, ولا تكون هناك طاقة للتحرك, وتنعدم الحياة, ولا تبقى حينئذ جدوى من إعمارها كما تقول, كما أن الإنسان في كل جيل لا يشهد عمران الأرض الذي سيشهده الجيل التالي, فلا

يتحقق الهدف إذن لا للجيل الأخير ولا للأجيال الحالية فضلاً عـــن الماضية.

ـ إذن بنظرك ما هي غاية خلق الإنسان؟

ـ الغاية يجب أن تكون أبدية, ولكي تكون كذلك يجب أن يكون الإنسان ابدياً, أي لا يفنى عند موته, بل ينتقل إلى عالم آخر وآخــر, فهل رأيتَ مهندساً يصمم مبنى لينهدم بعد عشرة أو عشرين عاماً؟! أم هل رأيت شخصا يصنع لوحة نفيسة وجميلة ثم يكســرها ويحطمها؟!

ـ حتى وإن سلّمنا أن الإنسان ينتقل بعد موته إلى عالم آخر, فكيف تثبت أنني أسير نحو الهلاك والخسران كما تقول, وما علاقة هذا بذاك؟

بدأ جمال يخفف سرعة سيارته شيئاً فشيئاً لقرب وصـــولنا إلـــى محلنا السكني, حينها أحسستُ بوجـــوب تـــدارك الوقـــت واســـتثمار الفرصة بأسرع ما يكون فأجبته قائلاً:

ـ لا يمكن للعقل أن يقبل تساوي مصير الطلاب وقبـــولهم فـــي الجامعات مع اختلاف درجاتهم, ولا يمكـــن قبـــول تســـاوي الظـــالم والمظلوم أو السارق والمسروق, بل العقل يحكم بوجـــوب أن يأخـــذ الظالم والسارق جزاءه بالسجن أو الغرامة وما شابه ذلك, فإذا ســلّمنا بهذا كله, فهل يمكن للخالق أن يساوي بين خلقه بعد مـــوتهم دون أن يعذب السارق والظالم وأمثالهم, وأنت ترى أن كثيراً ممن أكل حـــق الناس ومضى في ظلمهم لم يأخذ جزاءه في هذه الدنيا.

فتحتُ باب السيارة بعد توقفها وشكرته على إيصاله إيـــاي, ولا اعلم إن كان قد فهم كلامي الأخير ومقصده أم لا, لكـــن يبـــدو مـــن نظراته العميقة لي انه أدرك ما أقول.

طرقتُ باب البيت وإذا بصوت أقدام مرتضى يطـــرق ســـمعي وهو يركض بسرعة حتى وصل الباب وفتحه, نظـــرتُ إليـــه لأرى وجهه مرتبكاً ولونه مصفراً ودموعه جارية فقال:

ــ بابا, بابا, ماما خرجت وقالت الآن اذهب وأعود لكنها لم تعد لحد الآن.

ــ متى ذهبت والى أين؟

ــ بعد الصلاة قالت لي سأذهب لاشتري شيئاً من الدكان الـــذي في رأس الشارع فلا تخرج من البيت وسأعود فوراً, لكنها لم تعد.

أمسكتُ بيد مرتضى الذي لم يتجاوز سنينه الأربع, وذهبنا معـــاً إلى الدكان الذي عادةً ما نشتري منه احتياجاتنا, وما أن وصلتُ إليـــه وسلمتُ على صاحبه حتى رأيتُ الارتباك على وجهه, وبدأ يتململـــل في كلامه, فعلمتُ من ذلك أن أمراً ما قد حدث, فسألته مستغربا:

ــ هل أتتكم أم مرتضى قبل ساعتين؟

ــ نعم .. نعم .. و..

ــ وماذا؟

كان مضطرباً فـــي كلامه وكأنه قد أذنب ذنباً يحاول الاعتـــذار منه فقال:

ـ بعد أن اشترت ما تريد أرادت عبور الشارع إلى الجهة الأخرى, فلم تكد تخطو خطوةً حتى أتت سيارة بسرعة عالية و..

ـ وأين هي الآن؟

ـ نقلوها إلى المستشفى المركزي.

انتابني أسف وحزن عميق, واسترجعتُ في نفسي وقلتُ: لا حول ولا قوة إلا بالله, والحمد لله رضاً بقضائه وصبرا على بلائه.

طلبتُ من صاحب الدكان استخدام هاتفه فقال:

ـ نعم نعم, هل اتصل لك بشخص ما؟

ـ أكون شاكراً لك.

أعطيته رقم الهاتف المطلوب وهو هاتف نقّال لسائق إجرة تعرفتُ عليه مسبقا, وكثيرا ما كنتُ استأجره بهذه الطريقة لغرض تنقلاتي الخاصة بالشركة, فتحدثتُ معه وأخبرته بالمكان المطلوب حضوره إليه, ثم تقدمتُ خطوات نحو مكان الحادث فرأيتُ اثر دماء متفرقة لا تزال باقية هنا وهناك, وسيارة وسط الشارع بصورة غير اعتيادية قد لُطّخت مقدمتها بدم مبعثر, حينها أحسستُ أن الحادث كان شديداً قد لا يُبقي على حياتها.

ـ بابا أين ماما لنذهب لرؤيتها.

ـ حسناً يا ولدي سنذهب إليها عن قريب.

ـ بابا, بابا هذا عمو جمال.

لم ينتظر مرتضى جوابي له, وذهب مسرعاً نحو جمال بعـــد أن رآه قد نزل من سيارته, وقبل أن يصل إليه عاد ليمسك بيدي ويجرها نحوه وهو يقول:

ــ بابا هذه سيارة عمو جمال لنذهب معه.

تقدم جمال نحونا وهو يحاول إظهار تأسف وحزن مصطنع على ما حدث بعد اطلاعه على الموضوع من الأطراف فقال:

ــ يؤسفني ما حدث لزوجتك, أرجو أن تكون بحال حســن الآن ولا يكون الضرر كبيراً, لنذهب بسرعة إلـــى المستشـــفى فســـيارتي بخدمتك.

ــ أشكرك فإني قد اتصلت بسيارة لتأتي بعد قليل.

ــ اتركها, سيأتي ويعود وهل في ذلك شيء؟

ــ نعم , فحين استأجرته يجب إعطاؤه حقه وإرضاؤه ولا يجوز الفرار من إجرته. لم تتأخر سيارة التاكسي كثيراً فقد جــاء مســرعاً وكأنه يعلم بالحادث, فركبتُ معه وتحرك بينما أعين جمـــال كانــت تلاحقني بنظرات ثاقبة وأعين ساخطة...

الفصل الثاني :

نزاهة لا تُطاق

كان ما يشغلني أثناء إقامة الفاتحة هو لقائي مع العالم الجليل في هذه الليلة, وهل سأتمكن منه على الرغم من أن صديقي مؤمن لم اتصل به لحد هذا الوقت, وهل سأجد الوقت لذلك, أم كيف سأترك المعزّين الذين امتلأ المسجد بهم.

هكذا كانت الأفكار تشغل فكري وتجرني بحبالها يميناً ويساراً, وإذا بالحاضرين يقومون وبالصلاة على محمد وآل محمد يهتفون, يا ترى ما الذي حدث؟! نظرات الجميع متجهة نحو باب المسجد, التفتُ أنا أيضاً نحوه, وإذا بالذي كان يشغل فكري يقدم بنفسه ويطل بوجهه النوراني, نعم, انه هو مع صديقي مؤمن وكأنه يتفقد أحدا ويسأل عنه, أجل انه يسأل عني بالتأكيد, لكن من أنا وما خطري حتى يطلبني إمام الجمعة, وهل استحق ذلك, أم انه يبحث عن شخص آخر غيري؟

استقر في مجلسه, وهدأ الحاضرون, واستأنف القارئ كلامه, فتقدمتُ بخطوات مرتبكة نحوه حتى وقفتُ أمامه. فوجئ برؤيتي فقام معزياً لي بكلامه المذكر بالله ورحمته مشفوعا بجُمل من الدعاء لي وللطفل الذي بقي وحيداً معي, شكرته على تفضله ذلك وطلبتُ منه الجلوس مع صديقي مؤمن, فجلس وجلستُ عن يمينه, وأردت أن أؤكد له أنني على وعدي في الحضور إليه على الرغم مما حدث, لكنه سبقني بالحديث مبادرا بلهجته الحوزوية المحبوبة عندي, والتي كثيراً ما لاحظتها على ألسنة طلبة العلوم الدينية فقال:

ــ أنا اعتذر من عدم تمكني لاستقبالكم هذه الليلة لحدوث أمــر طارئ يحتّم علي السفر, ولا أظنني سأتمكن من ذلك عن قريــب أو بعيد لأنكم على أبواب سفر طويل.

لا اعلم إن كان قد أتم كلامه معي أم لا, فقد جاءه وفــد للســلام عليه وتجمعوا حوله, فانقطع كلامنا ولم استطع التحدث معــه مــرة أخرى حتى نهض وأراد الخروج من المسجد, وكان آخر كلامه معي أن قال:

ــ اعلم يا بني أن خير الزاد في السفر التقوى, فاسع لتحصــيلها هذه الأيام. ثم غادرنا وذهب... لا ادري ما الذي عقد لســاني عــن سؤاله عن معنى أنني على أبواب سفر طويل, مع انه حاليــاً لــيس عندي قصد السفر إلى أي مكان! لا ادري!

انقضت الأيام الثلاثة لمراسيم الفاتحة, وقد اختلفتُ فيها مع عــدة أشخاص من الأقارب بشأن الإسراف والمصــروفات الزائــدة عــن الحاجة, والتي افنوا وقتهم واجهدوا أنفسهم من اجلها رياءً في ريــاء. أنا اعلم أن أعمالهم كانت رياءً, وهي عند الميت لا تنفعه بشــيء ولا تخفف عنه قسوة اللحظات التي يعيشها الآن[1] ... نعم انه بحاجة إلــى

---

[1] * مما يؤسف له أن مراسيم الفاتحة التي تُقام في مجتمعاتنا ليس فيها منفعة للميت, ولا إلى أهله الذين تُصب فوق رؤوسهم مصيبة تكاليفها وأتعابها فوق مصيبتهم في رحلة فقيدهم, ومــاذا لــو يُستثمر وقت مراسيم الفاتحة (إضافة إلى تلاوة آيات من القرآن الكريم) بمــواعظ أخلاقيــة أو

ركعتين خفيفتين, أو آية من القرآن بحضور قلب, أو صدقة قليلة, أو دعوة مستجابة, لكن لا أحد لديه الأيمان الحقيقي بذلك.

على أية حال انقضت, ولكن لم ينقضِ تفكيري بكلام العالم الجليل وجمله الأخيرة, فهل يا ترى كان يقصد سفر الآخرة؟! نعم, لعله كذلك وإلا فما معنى وصيته بأن خير الزاد التقوى, وهـل التقـوى تكـون متاعاً لغير الآخرة, نعم انه كان يقصد ذلـك, ويؤكده قـوله (فاسع لتحصيلها هذه الأيام).

آه الويل لي, إذن أيامي في الدنيا قليلة, آه .. كيف بالصـكوك التي لم يصل وقتها, وكيف بحساب العمّال الذي كلـه فـي دفتـري الخاص ولا يكتبه ويقدمه للشركة أحد غيري, أم كيف بالأسرار التي في صدري والتي طالما ترددتُ في كشفها متأملاً أن يعـود جمـال لرشده ويتوب من أعماله, إنها أسرار سرقاته من الشركة وقد لا يعلم بها أحد غيري, أم كيف بـ ..

أحسستُ بصداع في رأسي, فقمتُ من مجلسي وقررتُ الـذهاب إلى بيت جد مرتضى لجلب مرتضى منهم, فلعل برؤيتـه وملاعبتـه تسكن نفسي وتهدأ أعصابي, فأستطيع التفكير بما يجب عمله.

تذكير بالموت وتبعاته, يتخللها ذكر مصائب أهل البيت ووصاياهم, بدلا من أن يكـون المسـجد محلا للمحادثات الدنيوية البحتة, أو سجلا لتسجيل حضور المعزّين ليس إلا.

ما أن وصلتُ حتى حملتُ مرتضى وذهبتُ به إلى إحدى الحدائق العامة ذات الخضرة الجميلة وتحت السماء الزرقاء الصافية, حينئذ أعطيته كرته لينشغل باللعب بها, أما أنا فقد أخرجت ورقةً وقلماً لأكتب ما يجب فعله من اجل الخلاص من المتعلقات المتشابكة التي طوقتُ بها عنقي, فكان من ضمن ما قررتُ عليه مصارحة مسؤول الشركة بما اطلعتُ عليه بشأن جمال, كذلك بيع ما زاد عن الحاجة في البيت لتسديد الصكوك, وغيرها من الأعمال التي قرّرتُ إتمامها غداً إن شاء الله, عندها قلتُ في نفسي ما احسن أن يكون الإنسان خفيف ثقله مستعد لسفره من هذه الدنيا, ليكون ثقيل الميزان في الآخرة, فلو جاءني الموت هذه اللحظة بماذا أجيب ربيّ, ومن يقضي عني ديوني و... ووسط هذه الأفكار وإذا بصوت مرتضى ينادي بعد أن أحس بالتعب من اللعب مع الأطفال الذين كانوا في الحديقة:

ــ بابا, بابا لقد تعبتُ من اللعب.

ــ تعال هنا يا عزيزي.

أسرع راكضاً نحوي وضممته إلى صدري فقال:

ــ أريد ماما, لماذا لم تأت معنا, أريد ماما.

ــ عزيزي إن أمك ذهبت و لن تعود.

ــ أين ذهبت؟

لا ادري بماذا أجيبه ليتناسب مع سنّه وسؤاله, فقلتُ:

ـ عزيزي إن أمك ذهبت إلى عالم آخر لتعيش هناك بجوار الله الذي كانت تصلي له يومياً, وكنتَ أنت تأتي لتلعب بمسبحتها على السجادة, هل تذكر ذلك؟

لقد كان موقفاً عجيباً صدر منه ترك أثرا عميقاً في نفسي لا أظن أن صورته يوماً ما ستتمحي من ذاكرتي, إنها صورة مرتضى عندما أثنى رقبته ونظر إلى الأرض, وبدأت قطرات دموعه تسيل على خديه دون أن يصرخ أو يصدر منه أي صوت آخر.

ذهبنا للصلاة في مسجد قريب من الحديقة العامة, وبعد أدائها أحسستُ أن صلاتي هذه المرة تختلف عماّ قبلها, فتساءلتُ في نفسي لماذا انقضى عمري وأنا لم أحس بطعمها إلا هذه المرة, أتُرى أنها كانت غير مقبولة عند ربي؟ أم أنها لم تكن كاملة؟ فيا ويلاه ماذا عن صلاتي السابقة, وهل هي في محل قبولٍ عند الحق تعالى, أم أنها مردودة على رأسي؟

من هنا بدأت دوامة الفكر تحوم فوقي وتجرني يميناً وشمالاً, فأحاطت بي وملأت خاطري, وتساءلتُ مرة أخرى: إذا كانت صلاتي هذه المرة صلاة مودع للدنيا, فلماذا لم تكن كذلك قبل هذا الوقت؟

ألم أكن اعلم أنني مودع لها يوما ما, فان لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد ...

هكذا كان حالي في هذه الأيام, وكلما قيدتني أفكارٌ كهذه بحبائلها أبعدتها عني بإقناع نفسي أن الله غفور رحيم, وهو القائل في كتابه:

﴿ **قُلْ يا عِبادِي الذينَ أسْرَفوا عَلى أَنفسِهِمْ لا تَقنَطُوا مِنْ رَحمَةِ اللّه, إنَّ اللّه يَغفِرُ الذُنُوبَ جَميعاً, إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ** ﴾[1].

وتلوح في الأفق أمامي كلمات الأمام زين العابدين التي كنتُ كثيراً ما اقرأها في دعاء أبي حمزة الثمالي كلما تضيق الدنيا بي وأحس بخوف واضطراب لما سيؤول إليه مصيري, فاقتبس نور الأمل منها خصوصاً عندما يقول:(**فاعطني من عفوك بمقدار أملي ولا تؤاخذني بأسوأ عملي, فإن كرمك يجلّ عن مجازاة المذنبين, وحلمك يكبر عن مكافاة المقصّرين**)[2], أو عندما يقول: (**الهي إن أدخلتني النار ففي ذلك سرور عدوك, وان أدخلتني الجنة ففي ذلك سرور نبيك, وأنا والله اعلم أن سرور نبيك احب إليك من سرور عدوك**)[3].

ذات مرة استحضرتُ هذه الكلمات في قلبي وأسكنتها فيه, أحسستُ بشيء من الراحة والطمأنينة, وكأن جيوش الرحمن قد حلّت, ورايات الأمل أضاءت, حينها حملتُ مرتضى وذهبتُ إلى البيت إذ ساد الظلام وظهرت النجوم مضيئة في وسط السماء, فتركتُ مرتضى داخل البيت وخرجتُ إلى الحديقة الأمامية لأستنشق الهواء وإذا

---

[1] * الزّمر / ٥٣

[2] * مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي.

[3] * نفس المصدر أعلاه.

بجرس التلفون يدق, أسرعتُ إليه, ورفعتُ سماعته لأسمع صوت مدير الشركة وهو يقول بعد أن حيّاني بتحية الإسلام:

ــ مهندس سعيد, أردتُ أن أسألك عن السقف الخامس للمبنى رقم ٦٠ هل هو حاضر للصب غداً؟

ــ هناك نواقص قليلة فيه, لكن يمكن إصلاحها غداً إن شاء الله, وسأكون قبل الظهر هناك لأشرف بنفسي على إتمامها.

ــ يعني هل يمكن التوصية على الصب بعد غد؟

ــ يمكن لك ذلك.

ــ حسناً أشكرك كثيراً وفي رعاية الله.

ــ أ أ .. مهندس ارجوا أن لا تقطع الاتصال.

ــ تفضل هل هناك شيء؟

ــ نعم إن لدي حديثا معك بشأن مهندس جمال, وقد يطول الكلام فيه ولا يمكن طرحه عبر الهاتف, فهل تسمح لي باليسير من وقتك للتحدث بشأنه؟

ــ هل تريد أن تأتي غداً الساعة الرابعة عصراً إلى المكتب؟

ــ أنا أودّ أن يكون الحديث سرياً, إذ إن موضوعه يتطلب ذلك, وأفضّل أن يكون ليلاً تجنباً لتعثره بسبب كثرة المراجعين لكم.

ــ لا بأس بذلك, يمكنك أن تأتي الساعة التاسعة ليلاً إلى بيتنا وسأكون بانتظارك غداً هناك.

ــ وماذا لو كان اللقاء هذه الليلة, يعني الآن؟

ــ الآن؟! ولماذا كل هذه العجلة فهل الأمر يستوجب ذلك؟

ــ نعم يستوجب كثيراً .

ــ حسناً سأكون بانتظارك من الساعة التاسعة إلى العاشرة.

ــ أشكرك وفي أمان الله.

يبدو أن الوقت سيدركني, فعليّ تحضير العشاء لمرتضى فقد بدت عليه علامات الجوع, وليس من الصحيح أن يبقى هكذا.

على كل حال وصلتُ في الوقت المناسب إلى بيت مدير الشركة, وتم اللقاء في بيته, وبدت عليه علامات التعجب والتأسف كثيراً لما كان يسمعه بشأن جمال, وبدأ يضرب أخماسا بأسداس عندما تكشّفت له أمور كان غافلاً عنها وبأدلة لا يمكن حملها على أمر آخر, فأحسستُ بثقلها عليه كلما صارحته ببعضها, وفي المقابل كنتُ أحسُّ بخفة الثقل عنيّ شيئاً فشيئاً وكأني أرفع صخرة بعد أخرى من على ظهري, لأضعها على عاتقه وأُلقي بمسئوليتها نحوه, توقفتُ عن الكلام وذهب في تفكير عميق رفع رأسه بعدها وقال:

ــ لكن لماذا لم تصارحني بذلك قبل هذا الوقت؟

ــ كنتُ أتأمل منه أن يعود إلى رشده ويعيد الأموال إلى محلها كما كان يعد بذلك بين مدة وأخرى, ويلمّح على أنها قرض لا أكثر, وله صلاحية التصرف بها.

ــ انه سيأتي غداً قبل الظهر إلى المبنى رقم ٦٠, أرجو أن لا تكلمه بشيء عن حديثنا هذا, فأني أعلم كيف سأتصرف معه.

في صباح اليوم التالي وكالعادة حملتُ مرتضى إلى بيت جده, ثم توجهتُ إلى البنك لأضع في الحساب مقداراً من المال الذي حصلتُ عليه من بيع عدة حاجات من البيت, بعدها توجهتُ إلى موقع العمل الذي فيه أبنية عائدة للشركة كانت قيد الإنشاء, وأعطيتُ كل عامل بطاقةً تحوي على جدول أيام عمله يوماً بيوم مع إمضاء عليه حتى يمكن لهم مراجعة الشركة لاستلام مبلغها في حالة غيابي آخر الشهر.

لأول مرة في حياتي أحسستُ أني أصبحت حراً غير مقيّد, خفيف العبء, قد فُكَّت جميع القيود عني, وقُطِّعت كل الحبال مني إلا حبل الله, ولا شيء الآن يمنعني من الوصول إليه, إلى الهدف والغاية, إلى المقصد من خلقي...

وبينما أنا في دوامة الفكر هذه وإذا بأمر يخطر على ذهني...أنا شكوتُ لإمام الجمعة الحُجُب التي تمنعني من الوصول الى الله, وقد علمتُ الآن أنه لم يتركني دون جواب عن عدم مبالات منه, بل اراد لي معرفة الطريق بنفسي, وقد لمستُ الآن أن الوصول الى الله والدنو منه لا يكون الا بالتحرر من تبعات الدنيا ومادياتها والتزود بزاد التقوى للرحيل اليه...

آه لماذا كل هذه الحجب قد وضعتُها أمامي, فهي كالسد الشامخ الذي يمنع الحقيقة أن تظهر بوجهها النوراني, لا ادري لماذا يصنع الإنسان شقاوته بيده ليعيش الدنيا في ظلمات الحيرة والضلال والحرص والغضب, ولا يذوق السعادة حتى لقطرة منها, بل الأكبر

من ذلك لماذا يفشل الإنسان في معبر قصير, ونعيم الأبــد ينتظـــره, ولماذا يقدم الإنسان بنفسه إلى جهنم كان يعلم أنها أمامه ... آه لمــاذا كنتُ هكذا ولم أذق السعادة إلا هذه اللحظـــة, وقــد خالطهــا النــدم والحسرة على ما سبق.

كنتُ أنجز الأعمال المطلوبة على الرغم من دوامة الأفكار هذه حتى أصبحت الساعة العاشرة والنصف صباحا. توجهتُ إلى المبنـــى رقم ٦٠ لأرى إن كان السقف قد رُفعت نواقصه التي أبلغتهم بها يوم أمس أم لا, وعلى الرغم من بُعد المسافة بين الأبنية, فقــد اختــرتُ المشي للوصول إلى هناك, فالمســافة لا تستحق إعطاء أجرة لقطعها.

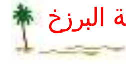
وصلتُ المبنى وتوجهتُ إلى السلم للصعود إلى السقف الخامس, وفي أثناء الصعود كان لي توقف في كل طابق لأرى وأسجّل مراحل تقدم العمل فيها وما هي احتياجاتها, وكذلك للإشــراف علــى كيفيــة إجرائها طبق الخرائط المطلوبة, حتى وصلتُ الطــابق الرابــع وإذا بجمال واقف كأنه ينتظر شخصاً ما, ولما رآني تبسم ابتسامته الكاذبة التي تعودتُ عليها ثم قال بلهجة ساخرة:

ــ ماذا ستفعل يا مهندس سعيد, الصب غداً والســـقف غيــر مُهيأ.

ــ لدي الوقت الكافي لتحضيره فلم يبق نقص إلا الشيء القليل.

ــ إذن لنصعد فوق السقف ونرَ هل ما تقوله صحيح أم لا.

اخذ بيدي يجرها بقوة بعد أن امسكها وهو يقول:



ــ هيا نصعد فليس لدينا وقت كاف.

ــ يجب عليّ أولا أن أتفقد هذا الطابق ثم نتوجه لما فوقه.

لاحظ جمال إصراراً كبيراً مني على ذلك, ورأى أن ليس في اليد حيلة فقال:

ــ حسناً لنتفقد معك هذا الطابق ونرى ماذا سيجري.

لم يطل بقاؤنا فيه كثيراً, بعدها توجهنا إلى السقف الخامس, صعدتُ بخطوات بطيئة وهادئة تدل على التعب من الجولة التي قمتُ بها لحد الآن, أما جمال فلاحظتُ خطواته مرتبكة, ووجهه مضطرب, ولونه يتغير بين الحين والآخر, كما لاحظته في كلامه متردداً تخالطه ابتسامات مُفتعلة تظهر بها أسنانه في كل مرة بصورة قبيحة, فتعجبتُ كثيرا من تصرفاته, انه لا يعلم بحديث البارحة مع مسؤول الشركة بشأنه, إذن فما هذه التصرفات الغريبة منه؟! على أية حال وصلنا واستقرت أقدامنا فوق السقف الخامس, لقد كانت مساحته كبيرة تقارب الألف متر مربع, ألقيتُ نظرة عامة عليه فلم أرَ غير شخصين كانا فوقه, اتجه جمال نحوهما, ولم يطل كلامه معهما حتى تفرقا واتجها نحو السلم للنزول, فناديتهما واتجهتُ نحوهما وقلتُ لأحدهما وقد وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم:

ــ إلى أين تذهبان؟ وماذا قال لكما مهندس جمال؟

ــ لقد امرنا مهندس جمال بإحضار ١٠ قطع حديد بقطر ٢٠ وبطول ٤ أمتار.

ـ لكنّا لا نحتاج إلى حديد بهذا القطر والطول للسقف, لقد وُضعت ورُبطت كلها بالأمس.

ـ ماذا نفعل يا مهندس فانه قد أمرنا بذلك, وان لم نفعل فسوف يرتفع صراخه علينا.

ـ حسناً يمكنكما الذهاب, لكن هل أكملتما النواقص التي عينتها لكما بالأمس.

ـ نعم يمكنك التأكد منها.

ذهبا وتوجهتُ نحو جمال فرأيته وقد اصبح الارتباك على وجهه اكثر فأكثر, وازداد احمرار لونه فسألته قائلاً:

ـ جمال, ما الذي حدث؟

ـ لا شيء, تعال هناك لأُريك النقص الذي لم يُصلَح لحد الآن.

قال هذا وقد امسك يدي ليجرها نحوه, وهو يشير إلى حافة السقف قائلاً:

ـ هناك لنذهب هناك .

اتجهتُ نحو حافة السقف ونظرتُ إلى الحديد الذي رُبط فيه فرأيته مطابقا للخرائط, وليس فيه نقص يُذكر, فوقفت منتصباً لأقول له إن الربط صحيح, لكن قبل أن أتفوه بكلمة, أحسستُ بوضْعِ يديه على ظهري, ودَفَع بي بقوة من على السقف إلى الأسفل, ولم يكن هناك شيء تمسك به يدي, فنظرتُ لما تحتي في اللحظة الأولى من

السقوط, وإذا بقطع الحديد الحادة المبعثرة هنا وهناك, حينها تيقنتُ أنها لحظات الخلاص, وما هي إلا أنفاس قليلة وتتكشف الأسرار، ويظهر الغيب الذي أُخفي عني طوال عمري, هي لحظات معدودة لا أكثر وسأصل إلى ما تخوفتُ منه تارةً واشتقتُ إليه تارة أخرى.

هي لحظات السقوط بين السقف الخامس والأرض, وقد لا أعطي حقها في الوصف إن وصفتها, لكن أقول بشأنها انه لم يبقَ لي فيها غير الله أحد في الوجود أتوجه إليه, ولا شيء انظر فيه، ولا أمل أتطلع إليه, فقد قطعتُ خيوط الأمل من كل شيء غير الله, بل كل شيء غاب عني ولم يبق لي أحد سواه, وحقاً في تلك اللحظات أحسستُ بمعنى التوحيد, وتذوقتُ طعمه, حينها نطق لساني صارخاً يا الله يا الله يا..

ولم أكمل الثالثة حتى سمعتُ صوت السقوط قويا على الأرض, وبدأ الألم شديداً يسري في بدني, وسُلبت مني القدرة على الصراخ, وانشلّت أعضائي عن الحركة, وحُجبت عني الرؤية, فلم اعد أرَ شيئاً ولا أبصرُ أحدا، وغرقتُ في إغماء شديد وعميق...

الفصل الثالث :

على أبواب السفر

أفقتُ من حالة الإغماء العميق الذي غرقتُ فيه, وظهرت لـــي ملامح شخص لم أتعرف عليه مسبقاً, ولم أرَ له من قبل نظيراً, وكلما انظر إليه تبهت عيني لرؤيته, وينبهر فكري لعظمة خلقه, فهو بهيئته يعجز الخيال عن وصفه ومقارنته بخلق من مخلوقات الـــدنيا. ظهـــر فجأة بين الجمع المزدحم حولي, يصاحبه عدة مخلوقات أخـــرى ذات أجنحة لطيفة وأبدان تبدو خفيفة, لكـــن العجيـــب أن النـــاس كـــانوا مشغولين بي عنه, ولم يلتفتوا إليه على الرغم مـــن غرابـــة منظـــره واختلاف هيأته وعظمة خلقه, وكأنهم لم يروه, أما أنا فقد شغلني هو عن غيره, ولم اعد انظر إلى ما حولي بقدر ما انظر إليه, نعم يبـــدو انه كان بجنبي ثم ابتعد عنـــي, والآن بـــدأ يقتـــرب اكثـــر فـــأكثر, فاضطربتُ حتى أحسستُ برجفة في بدني , وكلّ لساني عن النطـــق والسؤال عمن يكون.

التفتَ إلى من كان معه وتكلم معهم بكلام لم افهمـــه, إذ اخـــتلط كلامهم مع دوي من اجتمع حولي, وصراخ عدة نساء يبدو أنهن قـــد أتين من البيوت المجاورة للمبنى, لكني التقطتُ منه بعض الكلمـــات منها قوله لهم:

ــ انه من المؤمنين, لكنه لم يصل إلى مرتبة الأولياء فارفقوا به قليلاً وأعينوه على نطق الشهادتين.

كان بدني بصورة لا يسمح لي بالتحرك يميناً ويساراً, وبصعوبة بالغة كنتُ التفتُ إلى ما حولي, فوجئتُ بصديقي مؤمن وهو يصل بصورته المشرقة, ويجلس بجنبي ليقول:

ــ سعيد, سعيد هل تسمع كلامي؟

أجبته بصوت ضعيف جداً:

ــ نعم.

ــ سعيد, قل لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله, فقد يكون آخر كلام يجري على لسانك, هل تسمعني يا سعيد؟

سمعتُ كلامه, وأردتُ نطق ما قاله لي ولكن ظهر فجأة عدة مخلوقات بوجوه قبيحة سوداء فهي كالقير الأسود, أصابني خوف شديد منهم وقد اجتمعوا حولي فأمسكوا بلساني عن النطق, وكلما أردتُ نطق لا اله إلا الله منعوني من ذلك, عندها سمعتُ مؤمنا مرة أخرى ينادي:

ــ سعيد هل تسمعني؟

مرة أخرى أجبته بصوت ضعيف:

ــ نعم.

ــ سعيد ألم تستطع قول لا اله إلا الله؟

ــ بلى.

ـ سعيد, يبدو أن الشياطين قد اجتمعت حولـك لتمنعـك مـن النطق[١], والملائكة حولك يرشدونك إليه فأستعن بهم, انك فـي حالـة احتضار, سـعيد, لقد بدأ سفرك الطويل الذي تنبأ به إمام الجمعة, هل تفهمني؟ سـعيد, هل تفهمني؟

لم يكن مؤمن يرى ما أرى, لكن على اثر كلامه بدأتُ أدرك ما أعيش, نعم إنها سكرات الموت, وهذا الذي لم اعرفه ملك الموت مع أعوانه قد جاء ليقبض روحي, نعم وهذه ملائكة الرحمة عن يمينـي, وهؤلاء الشياطين عن يساري, الهي ماذا افعل, الهي يا مـن انطـق عيسى في مهده انطق لساني بذكرك ...

التفتَ لي أحد ملائكة الرحمة وقال:

ـ انك كنت كثيراً ما تذكر الله في دنياك, وسنحاول أن نجد لـك شيئاً يبعد الشياطين عنك.

التفت إلى أصحابه ليقول لهم:

ـ هل تجدون من أعماله شيئاً ينفعه في أزمتـه هـذه؟ ادعـوا أعماله وأوقاته لتتجسم أمامه.

هول لا يمكن وصفه, ولو صُب على أهل الدنيا لغُشِي عليهم ولم يفيقوا, لقد تجسمت أمامي كل الأفعال القبيحة التي فعلتها منذ أن بلغتُ

---

[١]* الكافي / ج ٣ / ص ١٢٣: (عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: ما مـن أحـد يحضـره الموت إلا وكل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه, فـمن كان مؤمنا لم يقدر علـيه ...).

سن التكليف وحتى يومي هذا, آه كم كانت موحشة وكم كانت قبيحة وبشعة, وكذلك الأوقات والساعات التي ضيعتها خالية أو مملوءة بالذنوب, يا حسرتي على ما فرطتُ في جنب الله, يا حسرتي على كل لحظة ضاعت من عمري ولم املأها بالزاد ليومي هذا, يا حسرتي على كل عمل خالطه الرياء, ويا ويلتي على كل مال أخرجته لغير الله, وعلى كل كلمة تفوهتُ بها أو كتبتها لغير الله, وعلى كل تبسم أو فرح لم يخالطه ذكر الله, ويا ويلتي على المال الذي تركته والأثاث ذي القيمة العالية التي بقيت ساكنة البيت, فبماذا تنفعني الآن, آه وما هذه الوحوش المخيفة المظلمة في سوادها, وهل سترافقني؟ والى متى؟ وما ذلك الأسود المكشّر أنيابه, وما هذا السوط الذي بيده؟ آه آه ...

لشدة الهول والحسرة أُغمي عليّ, ولم أفق إلا بسياط الشيطان الذي كان قد أمسك بلساني, وابرز أنيابه ضاحكاً ومقهقهاً بصوت عالٍ وشكل قبيح وهو يقول:

ـ يا عزيزي لا تتحير وقل ربي الدنيا, ألم ترَ أن الدنيا كانت زهية بهية, ألم ترَ أن الشريف من شرفته أمواله, ولو كنتَ مطيعاً لها بما أمرتك ما وصلتَ إلى هذه الحال, فذلك جمال لا يزال يترفه ويتنزه ويأكل ويشرب ما يشتهي ويتلذذ بما يريد, فهل تعلم كيف وصل إلى ذلك؟ أنا أقول لك, انه أطاع الدنيا فأوصلته إلى هذا المقام, إذن فهي الرب لا غيرها, وأنا أنصحك بأن تعترف بذلك, فلعل حالك

يتحسن, ولعلي مع أعواني الذين تراهم نستطيع أن نخرجك مما أنت فيه.

ازدادت حيرتي, واسودت ظلمتي, وانشل فكري عن التفكير, فأصبحتُ انظر لما حولي يميناً ويساراً, وإذا بأحد ملائكة الرحمة يقول:

ـ انظر إلى هناك, إنها أعمالك الحسنة الخالصة لله وأفكارك الطيبة وأوقاتك التي ملأتها بطاعة الله, وتلك مساعداتك لإخوانك, وتلك نفقاتك في سبيل الله...

كنتُ انظر إلى خلاصة أعمالي الحسنة واحداً واحداً وحسبما يعرّفني به الملك, فاستبشرتُ وفرحتُ بذلك كثيراً على الرغم من الحسرة التي لم تزل ترافقني على عدم الإكثار في كل واحد منها, حينها توجه أحد الملائكة نحو ملك الموت وقال له:

ـ لقد وجدنا في أعماله ما ينفعه في عدم العدول عن دينه وفي نطق الشهادتين.

قال ملك الموت:

ـ وما هي تلك الأعمال التي يمكنه الاستغاثة بها؟

ــ لقد كان يؤدي الصلاة في أول وقتها, ويصل رحمه, ويحسن بوالديه[1], وكان كثيراً ما يقرأ دعاء العديلة وسورة يـــس والصـــافات ودعاء (رضيت بالله ربا...) بعد كل صلاة, وأيضا كان يقرأ زيارة آل يس, ويكثر من ذكر لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[2].

قال ملك الموت:

ــ نعم إنني كنتُ انظر إليه حين وقت الصلاة فأراه يقيمها في أول وقتها, وقد سجلتُ له ذلك كله.

كنتُ لا ارغب في النظر إلى الشيطان حـــولي, لكنـــي أردتُ أن أرى اثر كلام الملائكة مع ملك الموت عليه, فرأيته قد اشتعل غضبه بعد أن ترك لساني وقال لأعوانه:

ــ لا فائدة من الجلوس هنا والحديث معه, إن لديه من الأعمـــال ما لا نستطيع بوجودها تغيير عقيدته ومنعه مـــن نطـــق الشـــهادتين, اذهبوا جميعاً وسوف انتقم منه في مكان آخر, سأنتقم منه...

---

[1]* بحار الأنوار / ج ٧١ / ص ٦٦: (عن الإمام الصادق (ع) انه قال: من أحب أن يخفف الله عز وجل عنه سكرات الموت, فليكن لقرابته وصولا وبوالديه بارا, فإذا كان كذلك هـــون الله عنه سكرات الموت ...).

[2]* هذه جملة من الأذكار النافعة لثبات المؤمن على عقائده الحقة, وعدم عدوله إلى الباطل عنـــد الاحتضار (وقد أوردها المحدث الجليل الشيخ عباس القمي في كتابه منازل الآخرة).

ذهبوا عني وهم يجرون بأذيال الخيبة, ونيران الغضب تتطــاير منهم, لا أعادهم الله عليّ ولا أراني صورهم مــرة أخــرى, حينهــا سمعتُ وللمرة الثالثة نداء مؤمن وهو يقول:

ــ سعيد, هل تسمعني؟

هذه المرة دون أن أقول له نعم, نطق لساني بقول لا الـــه إلا الله محمد رسول الله, هنالك رأيتُ الابتسامة على وجه صـــديقي مـــؤمن والدهشة على كل من كان حولي من الحاضرين, فقد بدأوا يســألونه عما يجري, ولماذا تبسم بعدما كان قلقاً خائفاً, وقد ابتل وجهه بالعرق الذي اختلط بالدموع, نعم حقاً انه صديق مخلص, ولم يتخلَ عني حتى في اللحظات الأخيرة من حياتي. أما أنا فبعد أن نطقتُ كلمة التوحيــد أصبحتْ لي الجرأة على التكلم مع الملائكة, فقلتُ لأحدهم:

ــ هل أستطيع أن اخبر من حولي بما يجري لي كـــي يعتبـــروا ويؤمنوا بعالم ما بعد الموت؟

ــ كلا انك لن تستطيع النطق والكلام مرة أخرى مع أهل الدنيا, وهذه سنة الله في خلقه, وله الحكمة في ذلك.

اقترب مني ملك الموت وسلم بقوله:

ــ السلام عليك أيها العبد المؤمن[١].

---

[١]* من لا يحضره الفقيه / ج١ / ص١٣٥ : (وسُئل رسول الله (ص) كيف يتوفى ملك الموت المؤمن, فقال: إن ملك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولى فيقوم هو وأصحابه لا يدنون منه حتى يبدأه بالتسليم ويبشره بالجنة).

فوجئتُ بسلامه علي, ولكني تمكنتُ من جوابه فقلتُ:

ــ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

ــ إننا مأمورون من الجليل الأعلى بأخذ روحك ونزعهــا مــن بدنك الدنيوي.

ــ آه, الويل لي, هل تسمح لي بأيام قليلة أعيشها في الدنيا مــرة أخرى لأستكثر من أعمالي, وأثقل ميزاني, وأودِّع أحبائي؟

ــ هيهات من ذلك, فالله لا يؤخر نفسا إذا جــاء اجلهــا, وقــد أعطاك من الوقت في الدنيا ما يكفي للرقي إلى كمالات الأولياء, ونيل درجاتهم, فأين كنت من ذلك؟

سمعتُ ذلك منه فجزعت جزعاً عظيماً, وأصابتني حسرة كبرى, ودعوتُ بالويل على نفسي, فبأي أعمال سأقابل بها ربي, وما هي إلا أعمال خمس سنين, أما ما قبلها فقد كانت محاطة بالجهــل والغفلــة, محفوفة بالشك والرياء, استحضرتُ ذلك في نفســي فبكيــتُ بكــاءً شــديداً, فتدارك ملك الموت حالي وقال:

ــ على كل حال, إن كفة ميزان أعمالك الحسنة قد غلبت علــى كفّة سيئاتك بعد أن أبدل الله بعضها حسنات, وقد تقبل توبتك النصوح قبل خمس سنين, فلا تخف ولا تحزن, فوالذي بعث محمداً (ص) لأنا

أبر بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك[1], افتح عينيك جيداً وانظر إلى هؤلاء الأنوار هل تعرفهم؟

إنني كنت قد قرأتُ في دار الدنيا أن المؤمن عند الاحتضار يتمثل له الرسول والبتول والأئمة الإثنا عشر عليهم سلام الله جميعاً, وهؤلاء الأنوار هم بلا شك, نعم, إن عدتهم أربعة عشر, وذلك رسول الله, وتلك الزهراء الطاهرة, وذاك أمير المؤمنين علي وبجنبه الحسن والحسين[2] و...

التفتُ إلى ملك الموت وأجبته:

ــ نعم اعرفهم, إنهم رسول الله (ص) وبنته الزهراء وابن عمه علي والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين صلوات الله عليهم أجمعين.

قال ملك الموت:

ــ صدقتَ يا عبد الله, فهل تحب أن يكونوا رفقاءك في الجنة؟ أم تريد العودة إلى الدنيا؟

أجبته فوراً:

---

*[1] بحار الأنوار / ج٦ / ص١٦٩ : (عن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله (ع): جعلت فداك يابن رسول الله هل يُكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال: لا والله, انه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت: يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمدا (ص) لانا ابر بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ...).

*[2] بحار الأنوار / ج٧٩ / ص١٧٤ : (ما من مؤمن يحضره الموت إلا ورأى محمداً وعلياً حيث تقر عينه, ولا مشرك يموت إلا ورآهما حيث يسوئه).

ــ لا والله, لا أريد الدنيا, فخذ روحي وعجل بها, فأنا لم أفارقهم بقلبي في الدنيا, فكيف الآن وقد تمثلوا أمامي, ورأيتُ أنوارهم وحقيقة صورهم.

التفتَ ملك الموت إلى الملائكة وأمرهم بجلب شيءٍ من ماء الكوثر, فأتوني به واجتمعوا حولي, وبيد كل واحد منهم كأس منه, تناولتُ أحدها وشربتُ قليلاً منه, لكن أي شراب وأي طعم كان, هو ماء ليس كماء الدنيا، فشتان بينهما, شربته على عطش شديد, فأحسستُ بارتواء عظيم وطعم لذيذ ما تذوقتُ في الدنيا ماءً بلذته, وقد وهبني قوة ونشاطاً, وأزال عني النحول والكسل والاضطراب, فسألتُ أحد الملائكة قائلاً:

ــ من أين أتيتم بهذا الماء؟

ــ انه من ماء الكوثر[1].

ــ وهل حوض الكوثر قريب من هنا؟

ــ بالنسبة لنا قريب جداً, ونحن نعطيه لبعض عباد الله المؤمنين لنخفف عنهم ألم الاحتضار, وفراق الدنيا وأهلها, ونبشرهم بنعيم الآخرة وشرابها.

ــ وماذا تفعلون بالكفار والعاصين حين تتوفونهم؟

---

*[1] مستدرك الوسائل / ج٧ / ص٥٠١ : (عن أمير المؤمنين (ع) عن النبي (ص) انه قال: ...وإذا كان العبد في حالة الموت يقوم على رأسه ملائكة, بيد كل ملك كأس من ماء الكوثر وكأس من الخمر يسقون روحه حتى تذهب سكرته ومرارته ...).

ــ ذلك ليس واجبنا, فنحن ملائكة الرحمة نختص بتــوفي أهــل الأيمان, أما الكفار والعاصون فيتوفونهم ملائكة الغضب, يضـــربون وجوههم وأدبارهم.

أتمّ الملك كلامه, حينها بادرني ملك الموت بقوله:

ــ والآن هل تريد العودة للدنيا؟

ــ كلا لا أريد الدنيا, احملوني إلى حيث يشاء ربي.

لم أكمل كلامي حتى أحسستُ برجفة في بدني, فهمتُ منهــا أن روحي بدأت تخرج اكثر واكثر حتى وصلت الحلقوم, فــإذا بحديقــة واسعة واشجار ما شاء ربي تمثلت أمامي, فوجهــتُ إليهــا نظــري وفكري, فإذا بها من الجمال ما لا يوصف, ومن السعة ما ليس لهــا حد. التفتُ إلى أحد الملائكة وقلتُ له:

ــ ما هذا الذي أرى؟

قال:

ــ انه مقامك في الجنة, طبتَ وطاب مثواك, وانك تقــدم علــى رب رحيم كريم.

قلتُ لهم:

ــ إنني لا أريد العيش في الدنيا مرة أخرى, ولكني أريد العودة ساعة واحدة فقط لأخبر أهلي بما أرى, هل يمكن لي ذلك[١]؟

ــ هيهات لك ذلك, ولو رجعتَ وأخبرتهم بما رأيتَ لاتهموك بالكذب والخداع, كما إن عذابهم سيكون بعد ذلك أشد, ورجعتك إليهم إنما تكون نقمة عليهم لا رحمة لهم.

لم اعد اسمع كلام من اجتمع حولي من أهل الدنيا, لكني ما زلتُ أرى صورهم وألاحظ شفاههم تتحرك دون أن افهم ما يقولون, أما مؤمن فيبدو انه فهم أن روحي قد وصلت الحلقوم, ولم اعد اسمع شيئاً, لذلك لاحظته وقد اكتفى بالنظر لي دون الكلام. نعم لم يطل هذا الوضع كثيراً حتى اختفت صورهم عني, ولم اعد أرى أحداً منهم, ويبدو أن عيني الدنيوية قد عُطِّلت واصبح بدني جثة هامدة ملقاة بينهم...

حقاً انه أمر عجيب, ولا اصدق ما أرى, حلّقت روحي فوق بدني, وانفتحت عيني البرزخية لأرى وجوه من اجتمع حولي من أهل الدنيا قد تغيرت إلى حيوانات أو أشباه حيوانات بأشكال عجيبة غريبة, مختلفة فيما بينها, إلا مؤمنا إذ لا يزال بينهم بوجهه النوراني على هيئة إنسان, فتعجبتُ منه كيف لا يخالطه الخوف والرعب منهم, بل

---

[١]* من لا يحضره الفقيه / ج١ / ص١٣٦ : (وقال الصادق (ع) انه إذا بلغت النفس الحلقوم أُري مكانه من الجنة فيقول: ردوني إلى الدنيا حتى اخبر أهلي بما أرى, فيقال: ليس إلى ذلك سبيل).

رأيته يُهدّأ بهم بعد أن ارتفع عويلهم. أما النساء فبدأن يضربن بأيديهنَّ على وجوههن ويصرخن, فقلتُ مع نفسي لا حول ولا قوة إلا بالله, ليتهم يعلمون أني ما زلتُ حياً أراهم واسمع كلامهم, لكني أصبحتُ متأكدا من أنهم لم يعودوا يسمعوا كلامي مهما ناديتهم وأخبرتهم بحالي, فإنهم ما زالوا من أهل الدنيا, ولا يتعدى سمعهم وبصرهم إلى ما بعد عالمهم من عوالم الملكوت.

اشتد الصراخ اكثر فأكثر فنادى ملك الموت: ما هذا الصراخ, والله ما ظلمناه ولا يسبقن اجله, ولا يستعجلن قدره, وما لنا في قبضه من ذنب, وان ترضوا بما صنع الله تؤجروا, وان تحزنوا وتسخطوا تؤثموا[1].

ازداد عدد الناس حول بدني الملقى على الأرض شيئاً فشيئاً, وارتفع الصراخ من كل حدب وصوب, فبقيتُ كالحيران لا ادري ماذا افعل وقد رأيتُ ملك الموت وأعوانه قد تهيئوا لمفارقتي, فناديتهم بأعلى صوتي:

---

[1] * الكافي / ج٣ / ص١٣٦ : (عن أبي عبد الله (ع) قال: دخل رسول الله (ص) على رجل من أصحابه وهو يجود بنفسه فقال: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فانه مؤمن, فقال: ابشر يا محمد فاني بكل مؤمن رفيق, واعلم يا محمد أني اقبض روح ابن آدم فيجزع أهله, فأقوم في ناحية من دارهم فأقول: ما هذا الجزع؟ فوالله ما تعجلناه قبل اجله, وما كان لنا في قبض روحه من ذنب, فان تحتسبوا وتصبروا تؤجروا, وان تجزعوا تُأثموا وتُوزروا ...).

ـ يا عزرائيل, يا ملائكة الرحمة, إلى أين تذهبون وتتركـــوني وحيداً في هذا العالم الغريب, فأنا لا أعلم إلى أين المقصـــد, وكيـــف سيكون المسير.

التفت ملك الموت نحوي وقال:

ـ يا عبد الله اتبع جنازتك حيث حملوها, وســـتلاقي من يرشدك الطريق.

قلتُ له:

ـ يا ملك الموت, ما هي العقبات التي أمـــامي, فـــاني أخـــاف الوقوع في الهاوية, وأرى الشياطين تحوم حولي.

ـ أمامك ضغطة القبر, إذ ستكون عليك شديدة وصعبة ومؤلمة لتنقى بها روحك مما علق بها حين وجودها في قالبك المادي, ولا بد من تطهيرها لتتمكن من عبور مراحل عالم البرزخ, وتنسجم معه.

قلت له وقد أصابني خوف من كلامه:

ـ وهل يمكن النجاة من ضغطة القبر؟

ـ كان هذا ممكناً لك في الدنيا, أما الآن فلا, إذ إن روحك مـــن أول خلقك هي جوهر وجودك وهي من عالم المجردات, أمـــا بـــدنك الذي تراه الآن ملقى على الأرض كان من عالم الماديـــات, وكلمـــا تعلقت روحك به اكثر كان تقيدها بعالم الماديات اكبر, يقابلها ابتعـــاد عن عالم المجردات والملكوت, وذلك يمنعها من الانسجام معه عنـــد الانتقال إليه, ولهذا ترى كثيراً من أولياء الله المخلصين قـــد جـــردوا

أرواحهم من أبدانهم وحرروها, فاتصلوا بالملكوت قبل حلول أجلهم, وتنعموا به قبل أن اقبض أرواحهم.

طأطأتُ رأسي وأوكلت أمري إلى الله ثم قلتُ إلى ملك الموت:

ــ وماذا بعد ضغطة القبر؟

ــ سيأتيك ملكان ويسألانك عن ربك ودينك ونبيك وإمامك وكتابك وقبلتك, فإن أجبتهما تنجو ويُفتح لك باب من أبواب الجنة.

قلت له متعجباً:

ــ إن هذه الأسئلة في غايةٍ من البساطة, وكل شخص يستطيع الإجابة عنها لسهولة حفظها.

ــ كلا, ليس كما تتصور, فهنا في عالم الملكوت تظهر الحقائق كما هي, فإن كنتَ قد حفظتها في الدنيا ولم تكن قد صدَّقت بها عن علم وفهم وبحث وتدقيق, لم ينفعك ذلك, إذ إن أصول العقائد لا يكفي حفظها فقط, ولا يمكن التقليد بها, ومن كان مقلداً فيها لم ينطق لسانه حين سؤال الملكين منه أبداً.

قال هذا وأراد الذهاب فترجيته بسؤال أخير فقال:

ــ لا بأس بذلك قل ما عندك.

قلتُ:

ــ كنا في الدنيا نخاف حتى من اسمك, ونتصور انك تأتي لتقبض الأرواح بقسوة شديدة وصورة موحشة, أما ما رأيته الآن خلاف ذلك.

ـ إن ما تقوله صحيح, بل اشدّ قسوة ووحشة مما كنتَ تتصوره, ولكن هذا حين وصول اجل الكافر والعاصي, إذ آتيه بهيأة موحشة ومرعبة, فيكون ذلك أول عذابه حين موته, وانزع روحه بسيخ من نار, فيصرخ ويستغيث ولا مغيث له[١].

أحسستُ بشيء من الخجل لكثرة السؤال منه وهو ملك موت كل الدنيا, وما أنا وما قدري حتى يستهلك كل هذا الوقت معي, لذا شكرته ثم فارقني, فأحسستُ بغربة ووحشة شديدة, وغرقت في تفكير عميق لم أفق منه إلا بعد أن رأيتُ الجنازة قد حملوها بعيداً عني فأسرعتُ للحاق بها...

كانت السيارة تسير بسرعة بالغة بعد أن وُضعت الجنازة فوقها, واستقلت عددا من الناس داخلها كان مؤمن أحدهم, وقد سُررتُ كثيراً عند رؤيته وهو مشغولاً بقراءة القرآن والدعاء حتى وصلنا المقصد, وهو مكتب للفحوصات الجنائية فحملوا الجنازة إلى إحدى الغرف الخاصة حيث تم أجراء الفحوصات اللازمة عليها من قبل أحد الأطباء, وقد اجتمع حوله عدد من معاونيه, أما أنا فكنت أحوم فوقهم واسمع كلامهم, وقد أصابتهم الحيرة فقلتُ في نفسي ليتهم كانوا

---

[١] * الكافي / ج٣ / ص٢٥٣ : (عن أبي عبد الله (ع): أن أمير المؤمنين (ع) اشتكى عينه, فعاده النبي (ص) فإذا هو يصيح, فقال له النبي: اجزعا أم وجعا؟ فقال: يا رسول الله ما وجعت وجعا قط اشد منه, فقال: يا علي إن ملك الموت إذا نزل لقبض روح الكافر نزل معه سفود من نار فينزع روحه به ...).

يسمعون كلامي لأخبرهم بان جمالا هو الذي دفع بي من أعلى السقف الخامس, حينها لا يحتاج كل هذه الفحوصات والحيرة في الأمر, وعلى كل حال طال بقاؤنا حدود الساعتين في تلك الغرفة المغلقة بعدها أعطوا الأذن بحمل الجنازة لدفنها.

حملوها وأعلنوا أن مراسيم التشييع ستكون الساعة الخامسة بعد الظهر بعد أن اخبروا أقاربي بما حدث, واتفقوا معهم على موعد ومكان للتغسيل والتكفين والتشييع.

كنتُ أحس بعلاقة غريبة تشدني إلى جنازتي, وأينما كانوا يحملوها أُسرع معهم للحاق بها, كما انه لن تغيب عن مخيلتي أنوار المعصومين والجنة التي تمثلت لي وقدح ماء الكوثر الذي تذوقته عند الاحتضار حتى نسيتُ ضغطة القبر التي تنتظرني, لذا كنتُ أنادي بمن يحمل جنازتي أن عجلوا بي إلى مثواي وغايتي[1].

انتهت مراحل التغسيل والتكفين على هذا البدن المسكين الذي كانوا يقلبونه يميناً ويساراً, ويلقون عليه الدلو تلو الآخر من الماء, بعدها طُوي بالكفن الأبيض والناس شهود على ذلك بين مدهوش ومبهور, وبين من يستعجل الإنهاء ليلحق بعمله, ويغرق مرة أخرى في دنياه, وكأن الموت كُتب على غيره دونه!

---

[1]* مختصر بصائر الدرجات / ص٩١ : (عن أبي جعفر (ع) قال: قال علي بن الحسين (ع) : موت الفجأة تخفيف على المؤمن وأسف على الكافر, وان المؤمن ليعرف غاسله وحامله, فإذا كان له عند ربه خير ناشد حملته بتعجيله, وان كان غير ذلك ناشدهم أن يقصروا به ...).

وضعوا الجنازة مرة أخرى في التـــابوت وأرادوا حملهـــا, وإذا بشخص يأتي مسرعاً ليخبر الحاضرين بأن الدفن أُجّــل إلـــى غــد لحصول مشكلة في شراء أرض القبر وتحديد مكانه, وهنا بدأ النزاع واشتد الخلاف فيما بينهم, وحاروا بماذا يجيبون الناس وقد اخبــروهم بأن التشييع والدفن سيكون اليوم وليس غداً, حتى قال كبيــرهم أن لا فائدة من الجدال وأمر بحمل الجنازة إلى مسجد المحلة لتبيــت هــذه الليلة فيه. حملوها وتبعتهم وحلّقتُ فوقهم وقد أصابني قلق واضطراب شديدين مما سيؤول إليه مصيري وكيف سأقضي هذه الليلــة ومــن سيكون مؤنسي, حتى وصلوا بي إلى المسجد فدخلوا فيــه ووضــعوا الجنازة في جانب منه, وبدءوا يأتون جمعاً وفرادى ليقرءوا الفاتحــة عليها, وكثيرٌ منهم يُتمتم بلسانه رياءً دون قلبه, فأشــمئز منــه إذ لا تنفعني فاتحته بشيء, وليته يفسح المجال لغيره فلعله يأتي من يعينني بنسمة أُنس بقراءته.

ازداد سواد الليل وبدأ الحاضرون يغادرون المسجد شيئاً فشــيئاً, وكلما قام أحد تبعه جماعته وكأنه قد فُرّج عليهم, فيسرعون للحاق به مما يزيد وحشتي في عالمي الجديد, حتى خلا المسجد تماماً إلا مــن شخص اجبروه على البقاء فيه, لكن أي شــخص انتخبــوا, بــل أي حيوان مخيف وقبيح تركوه معي وهو لا يعرف آية مــن القــرآن أو كلمة دعاء, فلم يكن فقط غير مؤنس بل ازددتُ وحشة وخيفة منه.

اخذ صاحبي نوم عميق وارتفع صوت شخيره, وبدأتُ أحوم في المسجد من مكان إلى آخر حتى جلستُ في زاوية منه أحسستُ باطمئنان وسكون اكثر فيها, وهو عين المكان الذي كنتُ أخلو فيه وحيداً لقراءة القرآن في عالمي الدنيوي. نظرتُ إلى جنازتي وإذا بوحوش مخيفة مرعبة قد اقتربت منها وأحاطت بها وتهيأت لافتراسها.

يا الهي ماذا افعل وليس لدي سلاح فأتجرأ به على الاقتراب منهم وإبعادهم, وكلما دنوتُ منهم توجهوا نحوي وألقوا عليّ نظرات مخيفة أكاد أذوب من هولها, وكلما وضعوا أنيابهم على جنازتي أحس بألم شديد لا يطاق وكأنهم يقطّعون روحي ويمزقونها وليس بدني الملقى في التابوت, فلا ادري ما هذه العلاقة بيني وبين بدني بعد انفصالي منه, ولم يكن هناك معين استعينُ به, ولا ناصر انتصر به وألوذ إليه, فبدأتُ اصرخ واستغيث بصوت عالٍ, وقلتُ في نفسي عجيب هذا الذي انتخبوه لمبيت المسجد ألا ينهض من صراخي!

ساعة مضت من العذاب وكأنها سنين, هنالك أطلّت إشراقة صديقي مؤمن وهو يدخل المسجد وبيده قرآنه الصغير, فتنفستُ الصعداء عند رؤيته, وتوجهت أنظار الوحوش نحوه, فتعجبتُ من عدم خوفه منهم وجلوسه جنب التابوت وقد أحاطوا به, لكن ما أن فتح قرآنه, وبدأ يتلو ما تيسر منه حتى لاذت الوحوش بالفرار من كل جانب, ولم يبقَ أحد منهم, حينها أردتُ شكر مؤمن لكن لم تكن لي

طاقة الكلام معه, فألقيتُ بنفسي في مكاني الذي كنتُ جالساً فيه لعـل الألم والخوف يغادرني.

زال الألم عني بتلاوة القرآن ورنين آياته, فقمتُ وجلستُ بجنب مؤمن وسلمتُ عليه وكلّمته مرة وناديته أخرى, لكن لا جواب, حينها قلتُ لنفسي يبدو انكِ لا تريدين القبول بأنكِ خرجتِ مـن دار الـدنيا, وكل آدمي ما زال فيها لا يسمع كلامكِ, ولا يـرد جوابـكِ! حينهـا تمنيتُ العودة للدنيا لا لشيء إلا لأشكر صديقي مؤمن وأمسح دموعه التي تنزل من عينيه وتجري على خديه, وأقول له أني ما زلتُ بخير على الرغم من غموض المسير وجهل المصير.

أشرقت شمس الصباح, وبدأ الناس يجتمعون في المسجد الواحد تلو الآخر, حتى حان موعد الرحيل, فحملوا النعش مسـرعين بـين بيوت المحلة سائرين ومنادين (لا اله إلا الله محمد رسول الله علـي ولي الله) وقد حلقتُ فوقهم أرى من ينادي ومن يبكي ومن يذكر الله ويستغفر, ورأيتُ ابني الصغير يبكي ويصرخ بين أحضـان خالتـه, فاختلطت دموعه بدموعها وهما يسيران ليلحقا بمن تقدم عليهما حتى وصلوا المقبرة, فدخلوها واستقروا بجوار حفرة قد هيئوهـا بعـد أن وضعوا النعش بجنبها.

كان خوفي عظيما وفكري مشغولا بظلمة القبر ووحشته وغربته ووحدته, وما هي إلا ساعة تمضي وكل هذا الجمع العظيم سـيغادر المكان, ولا يبقى غيري أنا وبدني داخل هذه الحفرة الضيقة, وتحـت

هذا التراب الذي سيُصـــب فوق رأسي, ولا ادري ما يجري بعدها لا ادري...

اكتمل حفر القبر وتعديله فحملوا البدن مطويـــاً بكفنـــه, ترافقـــه أصواتهم بالصلاة على محمد وآله, ووضعوه في محله ومأواه الأخير, حينها بدأ الملّقن بالتلقين, وكلما نطق بكلمة أعدتها خلفه, وكلما نـــادى يا عبد الله, أجبته قائلاً نعم إني اسمع ما تقول[١], حتى انتهى من كلامه ونادى الحاضرين بالصلاة مرة أخرى على محمـــد وآلـــه, ومـــا أن اكملوا صلاتهم حتى بدأ اثنان منهم بإلقاء التراب على البدن المسكين, ولم يتركوه إلا بعد أن امتلأ ما فوقه, وتساوت الأرض معـــه ونثروا الزائد من ترابه هنا وهناك.

بدأ المشيعون بمغادرة المكان الواحد تلو الآخر جمعاً وفـــرادى وأنا أنظر إليهم واسمع كلامهم. ذهب الجميع ولم يبقَ غير صـــديقي مؤمن إذ قال لهم إنني أبقى معه ساعة أخرى, كي لا يستوحش سعيد في أول دخوله قبره, ولأعيد عليه تلقين الشهادتين مرة أخرى حتى لا يكلّ لسانه بنطقها, ولا يتردد في جوابها عند سؤال الملكين إياه.

[١]* معالم الزلفى / ج٢ / ص٦٧ : (عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): لقنوا موتاكم لا اله إلا الله, فإنها آنس للمؤمن حين يموت وفي قبره.).

الفصل الرابع :

كتابٌ لا يَنسى

أحسستُ بشيء ما يجرني نحو بدني, فدخلتُ القبـــر معـــه ولـــم استوحش منه بالرغم من إحساسي بألم الفراق وضيق الآفاق, وذلـــك لعلمي بقرب مؤمن, وأُنسي بقراءته للقرآن.

مضت ساعة على هذه الحالة حتى غادرني مؤمن وغادر النور معه, وبقيتُ وحيداً في منزلي, وازدادت ظلمة قبري, وعظم خـــوفي ووحشتي, وإذا بالنداء يأتي من فوق القبر وتحته وعن يمينه وشماله, فأطرق سمعي وشغل فكري وهو يقول: (أنا بيت الوحشة, أنا بيـــت الوحشة)[1].

أصابني هول شديد, ووضعتُ يدي على رأسي, وصرختُ بأعلى صوتي:

ــ من المنادي؟ ومن أين هذا الصوت الذي أرعبني؟

عاد الصوت مرة أخرى ولكن بشدة اكبر, وصـــدى أكثـــر, ثـــم أضاف:

ــ ألا تعرفني من أنا؟ أنا بيت الوحدة والغربة, أنا بيت الوحشة والدهشة, ألم تكن تحسب يوماً انك سوف تأتي وتنزل عنـــدي, كُنـــتَ

---

*[1] نهج السعادة / ج٤ / ص١١٤ : (ورد في أحد كتب أمير المؤمنين علي (ع): ... يا عباد الله ما بعد الموت لمن لم يُغفر له اشد من الموت: القبر, فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته. إن القبر يقول في كل يوم (أنا بيت الغربة أنا بيت التربة أنا بيت الوحشـــة أنـــا بيـــت الـــدود والهوام...).

مشغولاً بالدنيا فنسيتني, وكنتَ تعمل وتجمع الأموال لبناء منزلٍ فيها ولم تفكر في منزلك بعد موتك.

كنتُ خائفا منبهراً من كلامه, التفتُ يميناً ويساراً لعلي اعــرف مصدراً لذلك الصوت, ولكن دون جدوى, فصرختُ مرة أخرى:

ــ قل لي بالله عليك من أنت؟ وأين أنت حتى أجيبك؟

قال:

ــ أنا القبر الذي دُفن فيه بدنك.

قلتُ:

ــ عجباً وهل القبر الذي كلّه جماد يتكلم؟!

ــ نعم, (**أَنْطَقَنَا اللّهُ الّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيء**)[١], ولا تتعجب فإن كل شيء في هذا العالم حي ينطق كما نطقتُ لك, ويشهد عليك بمــا فعلتَ, ولكن الذين بقوا في الدنيا لا يعلمون ذلــك, فهــم يســتخدمون الجمادات ولا يعلمون أنها سوف تشهد عليهم, وترى بعضهم يصنعون السياط ووسائل التعذيب ليؤذوا بها المؤمنين وهم لا يعلمون أن نفس هذه السياط سوف تشهد عليهم وعلى ظلمهم.

سكتَ قليلاً ثم عاد ليقول:

---

[١]* فصلت / ٢١ : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا, قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

انك سوف ترى العجائب والأهوال عندي أولها ضغطتي عليك.

قلتُ مع نفسي: بسم الله , هذا ما اخبرنا به الرسول والأئمة الأطهار عليهم السلام, فكم قرأتُ في دنياي عن ضغطة القبر وأنها شديدة تُخرج زيت البدن منه, وتهشّم العظام وتكسر الأضلاع و...

آه آه والويل لي, كيف سأتحملها, أم من ينقذني وينجيني منها؟ وبدوامة الأفكار هذه كاد يُغمى عليَّ لولا أملي بالنجاة, وتذكري مقامي في الجنة الذي رأيته عند الاحتضار, لذلك عزمتُ على سؤاله فقلتُ له:

ـ وهل هناك سبيل للنجاة من ضغطتك هذه؟

قال:

ـ الآن كلا, كان السبيل لديك في الدنيا فلماذا أهملته, ولم تعمل بما قرأته يوم ذاك.

سمعتُ ما قاله وتذكرتُ أني عملتُ بما قرأته في دنياي, فسألته متعجباً:

ـ لعلك نسيتها إذ إنني قد عملتُ بها, فهل ترغب بتذكيرك إياها, نعم كانت الأولى كفران النعم[1] وقد سعيتُ واجتهدتُ في شكر نعم الله ما استطعت, والثانية اجتناب النجاسات وقد اجتنبتها, والثالثة الغيبة

---

[1]* هذه جملة من الأفعال التي تنجي من ضغطة القبر. (وقد أوردها المحدث الجليل الشيخ عباس القمّي في كتابه منازل الآخرة).

والنميمة وقد تركتها, والرابعة سوء الخلق مع الأهل وقد كنتُ حسن الخلق مع زوجتي وطفلي فماذا تقول في ذلك؟

أجابني بصوته الخشن:

ـ صحيح ما تقول, ومن جعله الله شاهداً عليك لا يخطأ ولا ينسى, ولكن شُكر النعم الذي قلتَ انك أديته, إنما كان الكثير منه لقلقة لسان فقط, فعندما كنتَ تقول الحمد لله, لم تكن تستحضر في قلبك ذلك, ولم يختلط معه الخشوع والذل بمقابل المحمود عندما تحمده, أما مع إنسان آخر مثلك, فعندما يُقدّم لك خدمة صغيرة تشكره وفي قلبك إحساس بمنته عليك وكأنك تستحي منه, وقد تشعر أن شكرك إياه لا يعادل خدمته لك, فتنوي منحه هدية ما, أو تجازيه بخدمة أخرى. والآن قل لي هل كانت كل هذه الأحاسيس لديك عندما كنت تقول (الحمد لله)؟

تحيرتُ في إجابته, وماذا عساي أن أقول له, لذا التزمتُ الصمت ولم اجبه, فعاد مرة أخرى ليقول:

ـ ولا يكفي ما ذكرته, لان شكر النعم لا يكون كاملاً إلا بأداء حقها العملي, فمن رزقه الله المال عليه التصدق ومساعدة الفقراء وأداء الحقوق الشرعية المترتبة عليها, ومن رزقه العافية فعليه صرف قدرته وعافية جوارحه في الله ومن اجل الله وفي خدمة الدين والناس, ومن رُزق الجاه والمنصب فعليه العدل بين الناس وأداء حقوقهم بما يتناسب مع منصبه ومنزلته...

التزمتُ الصمت مرة أخرى, فليس عندي شيء أُدافع بــه عــن نفسي, وأصابني اليأس من النجاة منه, ولكن في هذه الأثناء تــذكرتُ أنني قرأتُ ذات يوم في كتاب منازل الآخرة أذكــاراً تخفــف علــى الإنسان ضغطة القبر, وقد التزمتُ بها وداومتُ عليها فلعلها تشفع لي الآن, حينها رفعتُ رأسي قائلاً:

ــ ماذا تقول في الأذكار التي كنتُ أداوم عليها وهي مما يؤمنني منك ومن وحشتك وضغطتك, فأنني كنت اقرأ سورة النساء في كــل يوم جمعة[١], وأداوم على قراءة سورة الزخرف[٢]و..

قاطعني فــي كلامي على الرغم من أن لدي ما أقوله أيضا إذ قال:

ــ إن ملائكة ربي قد سجّلوا لك كل ذلك صغيره وكبيره, وأيــاً منها كان بإخلاص ونية صادقة لله, وأياً منها كان رياءً, وأياً منها كان لقلقة لسان, كما سُجّلت لك درجة كل منها, وبناءً على ذلــك جــاءني الأمر من العلي الأعلى, ولولا أعمالك وأذكارك تلــك التــي كانــت

---

[١] * مستدرك الوسائل / ج ٦ / ص ١٠٣: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، قال : (من قرأ سورة النساء في كل جمعة ، أومن من ضغطة القبر) .

[٢] * ثواب الأعمال – الشيخ الصدوق / ص ١١٣: قال أبو جعفر عليه السلام: (من أدمن قراءة حم الزخرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض وضغطة القبر حتى يقف بين يدي الله عز وجل...).

خالصة لله, لكانت ضغطة القبر وعذابه اشد بكثير وكثير مما سوف تلاقيه.

تيقنتُ أن لا جدوى من النقاش معه, فأنه مأمور من الله تعالى لا أكثر, وإنما هي أعمالي وأذكاري سوف أُجازى بها وألاقيها, وما اصدق الإمام علي (ع) عندما يقول في الديوان المنسوب إليه:

يا من بدنياه اشتغل قد غره طول الأمل

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

انقطع الصوت فلم يعد له اثر يُذكر, وبدأتُ اسمع بدلاً منه أصواتاً غريبة مخيفة, يرافقها إحساس بضغوط عظيمة مؤلمة على بدني الذي ما زالت روحي مرتبطة به, وكأن القبر قد كُبس عليّ من جميع جهاته بمكابس زيتية. وفي ذلك الوقت سادت ظلمة شديدة, فصرختُ وما من مجيب حتى انقطع نفَسي, وبدأتُ اسمع أصوات تكسر عظامي, وزادت شدة آلامي بدرجة لا توصف, ولو جمعتُ كل آلامي في الدنيا لما عادلت جزءاً يسيراً مما يصيبني الآن...

انتهت ضغطة القبر وكأنها طالت سنينا وسنينا, فتركتني مكسّر الأضلاع, مهشم العظام, لا أستطيع الحركة والنهوض, اصرخ صراخ الأطفال من الألم, ومما زاد الأمر عُسراً أن وحوشاً سوداء مخيفة دخلت القبر واستعدّت للهجوم على بدني, وراحت تكشّر بأنيابها المرعبة, وتنظر إليّ بنظراتها الحاقدة, وتحت أقدامها ظهرت عقارب سوداء مخيفة, وفي جانب آخر انطوى ثعبان ضخم الهيئة

مخيف المنظر كان يُخرج لسانه الملتهب مرة ويدخله أخرى, وكأنه يعطي تحذيراً باللدغ والافتراس, والذي يزيد المشهد وحشة أن جميعها كانت تصدر أصواتاً مخيفةً للغاية, وتخرج من أفواهها شرارات ملتهبة تنذر بافتراسٍ قريب الوقوع, حينها سالت دموعي أسفاً وحزناً على حالي وضعفي بين هذه الوحوش المفترسة والحيوانات المهولة.

أحسستُ أن الآفاق ضاقت بي وأزمتي بلغت ذروتها. هنالك انقطع أملي من كل شيء غير الله, فانطلق لساني مردداً: يا غياث المستغيثين, يا أنيس المستوحشين, يا أمان الخائفين(**ياممفزعي عند كربتي ويا غوثي عند شدتي إليك فزعتُ وبك إستغثتُ وبك لذتُ لا الوذ بسواك ولا اطلب الفرج إلا منك**)[1], ثم أعقبتُ استغاثتي هذه بالتوسل بأصحاب المنازل العظمى عند الله: (**يا محمد يا علي يا علي يا محمد اكفياني فإنكما كافيان وانصراني فإنكما ناصران...**).

بدأت الوحوش تتقدم نحوي بهيئتها المخيفة, وراحت العقارب تقفز هنا وهناك وكأنها سعيدة بفريستها التي اقترب موعدها.

يا له من أمر عجيب!

كانت بكل خطوة تقترب فيها تنكشف ظلمة القبر اكثر فاكثر حتى انجلت, وإذا بكائنات لطيفة منيرة ذات صور جميلة تدخل القبر,

---

[1]* مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي.

وتقف أمام هذه الوحوش المتقدمة لتعلن الحرب معها, حينها عادت لي أنفاسي وبقيتُ انتظر ماذا سيحدث...

بدأ الصراع العنيف بين المجموعتين, وكم كان شـــديداً لدرجـــة امتلأ القبر من غبرته, واختفى الثعبان على أثره, وبقيـــت الوحـــوش والعقارب بين الفرّ والكر حتى خرجت هاربة, ولحقتها العقـــارب إلا واحداً قفز نحوي, وعلق بقدمي, فلسعها لسعة شديدة مؤلمة, وغـــرز إبرته فيها ولم يخرجها منها, فصرختُ صراخاً عظيماً مـــن ألمهـــا, واستنجدتُ بالكائنات المنيرة ولكن لا أحد يتجرأ على سحبها وإبعادها عني, فبقيتُ هكذا بين اللوعة والألم والصراخ والعويل...

اقترب مني أحدهم وكان أجملهم صورة وأكثرهم نورا وأعـــذبهم كلاماً, فراح يمسح على بدني بيده اللطيفة الشفافة, ويهوّن علـــيّ مـــا لقيته من ألم ووحشة, حينها بدأ الألم يغادرني ويزول شـــيئاً فشـــيئاً, وأحسستُ بقوة تمكنني من النهوض والحركة حتى زالت جميع آلامي إلا ألم العقرب الذي لم يزل عالقاً في قدمي.

شكرته كثيراً مع رفقائه وشكوتُ له ما لقيته فقال:

ـ إن كل ما رأيته وسوف تراه هو صور لمجســـمات أعمالـــك السيئة وعقائدك الباطلة المنحرفة, وهي ســـتكون مؤذيـــة مهلكـــة لا تتهاون عن جلب الشر إليك حتى تُلقيك في قعر جهنم, وما رأيته من وحوش وعقارب وثعبان إنما كان جزءاً بسيطاً منها, لكن بمقابل هذه ستكون هناك جبهة أعمالك الحسنة وعقائدك الحقة, وهاتان الجبهتـــان

في صراع دائم في عوالم ما بعد الموت, وهكذا كانت في عالم الدنيا, إلا إن الفرق بينهما انك كنتَ قادراً على نصر كفّة على أخرى, أما في البرزخ وبعده فلا يمكن لك ذلك, ولا حول لك ولا قوة إلا برصيدك من الحسنات والطاعات وأعمال الخير التي ادّخرتها لنفسك في دار الدنيا.

إنني في عالم الدنيا لم اكن اصدق بدرجة اليقين ما اقرأه في بطون الكتب من تجسد الأعمال في عوالم ما بعد الموت, وكنتُ اعتبر ذلك غير قابل للتصور, إلا أن ما أشاهده الآن وألاقيه أثبت لي صحتها وصدقها, فقلتُ له:

ـ هل لك أن تخبرني عن أعمالي السيئة التي تجسّمت بهذا الشكل المرعب من الوحوش والعقارب والثعبان؟

قال:

ـ إن كل مؤمن لا يقضي حاجة أخيه المؤمن وهو قادر عليها, يسلط الله عليه في قبره ثعباناً يُعرف بالشجاع, ولأنك في مندوحة وبُعد عن مثل هذه الموارد لذلك كان ثعبانك ضعيفاً, وقد يظهر لك فيما بعد في المراحل القادمة من مسيرتك في عالم البرزخ[1]. أما

---

[1]* وسائل الشيعة (آل البيت) / ج١٦ / ص٣٥٨ : (ضمن حديث لأبي عبد الله (ع): يا إسماعيل من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له سلط الله عليه شجاعا ينهش إبهامه في قبره مغفورا له أو معذبا).

العقرب الذي علق بقدمك ولم يزل يؤذيك, فهو دَين عليك لم تؤده إلى صاحبه.

قلتُ متعجباً:

ــ ولكني أديتُ كل الذي كان عليّ من أموال الناس, ولم يبق شيء في عنقي.

قال:

ــ قبل أحد عشر عاماً اقترضتَ من صديق لك في الجامعة اسمه احمد مبلغا قدره ٣٠٠ دينار, ولم تره مرة أخرى بسبب انتهاء الدراسة, كما انك لم تسجله في دفتر ديونك ولم تؤده له حتى الآن.

كنتُ أتلوى من الألم, وبين الحين والآخر يغرز العقرب إبرته في قدمي, فأصرخ صرخات عظيمة تقطع حديثي, لذلك وبعد انقطاع قليل عدتُ إلى الحديث فقلتُ له:

ــ بالله عليك اخبرني كيف السبيل للنجاة من هذا العقرب الخبيث؟

ــ إن العقرب سوف يبقى عالقاً حتى يؤدي عنك شخص ما دَينك في عالم الدنيا, أو يبرئك صديقك منه.

أصابني غم عظيم, وغمرني الحزن على نفسي, وأخذتني الحسرة على تلك التبعة المؤلمة, فليس هناك شخص يعلم بها وينقذني بأدائها عني, ولا أنا كتبتها في وصيتي ولا ...

وبينما أنا في تلك الدوامة من الفكر الذي اختلط به أنين الألـــم, وإذا بصوت مرعب مهول يملأ القبر, فهــو كصــوت الرعــد فــي الســماء. نظرتُ إلى صاحبي الذي كنتُ أتحدث معه, فإذا به مبهوراً من ذلك واتخذ جانباً من القبر مع رفقائه ليراقبوا ما سيحدث, أما أنــا فكنتُ اكثر اضطراباً عندما رأيتُ كائنين دخلا القبر بهيئة ذات ملامح عجيبة غريبة وهيبة عظيمة مخوفة توحي إلى عِظم شخصيتهما, فلــم أرَ مثلهما مخلوقا قط في عالم الــدنيا, كانــت أبصــارهما كــالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف[1].

بادرني أحدهما بالسؤال قائلاً:

ـ اجبنا من ربك؟

تذكرتُ ما قرأته سابقاً في بعض الكتب عن الملكين منكر ونكير, وأنهما يختصان بسؤال الميت عن عقائده, حينها سألتهما:

ـ هل أنتما منكر ونكير؟

قال الآخر:

ـ نعم, ولا بد لك من الإجابة عن أســئلتنا كــي نعلــم صــحة عقائدك, وأنها نابعة من الأيمان القلبي بهــا, لا عــن تقليــد ولقلقــة لســان. والآن أجب عن السؤال الأول دون تأخير, من ربك؟

---

[1] * الكافي / ج٣ / ص٢٣٦ : (عن أبي عبد الله (ع) قال: يجئ الملكان منكر ونكير إلى الميت حين يدفن, أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف, يخطان الأرض بأنيابهمــا, ويطآن في شعورهما, فيسألان الميت من ربك, وما دينك ...).

كان سؤاله للمرة الثانية بغضب اكثر وصـــوت أعلـــى, حينهـــا أسرعتُ بالإجابة فقلتُ:

– ربي .. ربي ..

يا الهي إن لساني غير قادر على نطق ما أردتُ نطقه, بل نسيتُ ما أردت قوله ونويت الإجابة به, فأصبحتُ انظر إليهما تـــارة والـــى الكائنات المنيرة تارة أخرى لعل أحدهم يسعفني, وبدلاً من ذلك رأيتُ شخصا اسود اللون كالقير, قبيح الشكل, موحش المنظر, قـــد بـــرزت أنيابه فزادته قباحة فوق قباحته, وبدت منه رائحـــة كريهـــة زادتنـــي نفوراً منه. بدأ يقترب مني حتى استقر أمامي وقال:

ــ أراك كلَّ لسانك عن النطق وتعثرتَ في الإجابـــة, ولكـــن لا بأسٍ عليك فأنا سوف أنقذك من مأزقك, قل إن ربي هو أنتما الملكين, وكل شيء بيديكما, ألا ترى قوتهما وتسلطهما عليك, فلو شاء أحدهما أن يحرقك الآن لفعل. وعلى فرض أنني اكذب عليك كما تظن, ففـــي جميع الأحوال إن أجبتَ بما قلته لك, فسوف تنجـــو منهمـــا لأن أي شخص تمجده وتمدحه فسوف تغمره نشوة الكبرياء والسلطة, وسوف يعفو عنك, بل قد يكرمك ويكافئك على تمجيدك إياه.

كنتُ متحيراً في أمري بين كلام هذا القبيح الأسود, وبـــين مـــا كنتُ أؤمن به من توحيد الله, فتساءلتُ مع نفسي لماذا لا يبـــرز هـــذا الأيمان بهيئة جواب للملكين, فهل أن توحيدي لله لم يكن خالصاً فـــي الدنيا؟ ام انه كان سطحياً لم يتوغل إلى أعماق قلبي, ولم يُعجن مـــع

روحي التي لم تفنَ حين موتي ولن تفنى حتى الأزل. إذن ضعف الإيمان والتوحيد تجسد بهذه الهيئة من التعثرات في الجواب, وبينما أنا في تلك الدوامة من الفكر وإذا بأحد الملكين يصرخ في وجهي:

ـ لماذا لم تُجب حتى الآن عن سؤالنا؟ ألم تعلم من ربك ومن كنتَ تعبد؟

وقبل أن ابدأ كلامي المتعثر من جديد سمعتُ أحد الكائنات النورانية ينادي:

ـ قل ربي الله, قل ربي الله الذي لا اله إلا هو.

بعدها نادت جميع الكائنات النورانية بصوت واحد منتظم:

ـ قل ربي الله, قل ربي الله الذي لا اله إلا هو.

وبعد أن سمعتُ كلامهم قلَّ اضطرابي واطمئن قلبي وانطلق لساني, فقلتُ:

ـ ربي الله, ربي الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

تنحى القبيح جانباً وكأنه فشل في مهمته السيئة, وبقي ينظر لي بنظرات حقد وشر منتظراً فرصة أخرى يتدخل بها.

قال أحد الملكين:

ـ إن توحيدك لم يكن خالصاً لله بصورة كاملة. لقد كنتَ في بعض الأحيان تعلق الرزق أو النجاة من مصيبة وقعتَ فيها بأشخاص مخلوقين مثلك, كما إن بعض أعمالك كان يخالطها الرياء وحب

الشهرة والسمعة, غافلا عن أن ذلك مخالف للتوحيد الخالص لله الذي بيده أسباب الكون ومسبباته, لذلك لم تتمكن من الإجابة إلا بعد مساعدة الولاية ورفقائها من الصلاة والصوم والزكاة والحج والعمرة والبر والإحسان, ولولاها لفشلتَ ولأحرقنا عليك القبر وجعلناه باباً إلى نار جهنم التي توعدكم الله بها.

نظرتُ إلى الكائنات النورانية وقلتُ بصوت متعجب مندهش:

ــ إذن أنتم..أنتم كما قال..

لم يجبني أحد منهم, وبدأ ينظر كل منهم إلى الآخر ثم قال أحدهم:

ــ إن منكرا يعرفنا ولا بد أن نكون كذلك.

التفتُ إلى الملكين بعد أن عرفتُ أيهما منكر وأيهما نكير فقلتُ:

ــ إذن الذي على يميني منكر والذي على يساري نكير.

قال منكر:

ــ بقيتْ أمامك أسئلة إن نجحتَ في الإجابة عنها نجوتَ, وإلا هلكتَ وبقيتَ في عذاب وبلاء إلى ما شاء الله. والآن اخبرنا من هو الرسول الذي أرسله الله إليكم وبأي دين جاء فأطعتموه[1]؟

---

[1] * يُستخلص من الروايات أن سؤال الملكين يكون حول عموم عقائد الإنسان ومدى توحيده وإيمانه بالله ورسالة رسوله والكتاب الذي أُنزل معه, وأما الجواب فلا يكون إلا بما يطابق واقع ذلك الإيمان دون أن يكون هناك مجال للكذب والخداع.

كان لدي اليقين الكامل بنبوة الرســول محمد (صلى الله عليــه وآله وسلم) وبرسالته, فقد طالعتُ الكثير من الكتب التي كانت تثبت ذلك, وتعطي الأدلة الشافية على صحة رسالته التي جاء بها, لذا لــم تكن هناك صعوبة في الإجابة إذ قلتُ وأنا أُظهر الاتزان والاطمئنان في كلامي:

ــ إن نبينا هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وســلم) آمنتُ به بالدليل دون أن أراه, واتبعتُ رسالته دون أن أكون معاصراً له, واتبعتُ خليفته من بعده علي ابن أبي طالب الذي كان حجــة الله على خلقه, ثم تلاه في الإمامة أحد عشر كوكباً معصومون من الزلل, أُمرنا بطاعتهم, فكانوا هم سفينة للنجاة وسبيلاً للهدايــة, وإذا شــئتَ ذكرتُ لك أسماءهم واحداً تلو الآخر.

كنتُ خلال حديثي مع الملكين انظر لمن حولي فرأيــتُ القبــيح يشتعل غضباً ويمتلئ غيضا لدرجة انه لــم يحتمــل البقــاء, فتــرك موضعه واختفى فلا اثر له!

أما منكر ونكير فبعد انتهاء كلامي سمعتهما يتحدثان معاً بصوت خافت لم أفهمه, بعدها توجه نكير إلي بالكلام وقال:

ــ انك سبقتَ سؤالنا حول الإمامة بحديثك فلا نسألك عنها, ولكن قل لي بأي دين جاء نبيكم وأي كتاب؟ وأي قبلة أوصاكم بالتوجه إليها؟

كنتُ في الدنيا احب قراءة القرآن كثيراً وأءنـــس بــه, إذ كنــتُ اشعر بأن الله تعالى هو الذي يخاطبني, وكلما تدبرتُ في آياته ازددتُ يقيناً, وبدَت لي معجزات عظيمة فيه, وظهرت لي حقيقة الدين الـــذي اعتنقته وهو الإسلام, ولشدة حبي لتلاوة القرآن كنتُ احمله معي إلى موقع عملي, فأتلو ما تيسر منه في وقت فراغي, وبسبب هذه العلاقة بيني وبينه تمكنتُ من النطق بطمأنينة فقلتُ:

ــ نبينا الكريم جاء بدين الإسلام وهو اكمل الأديــان وخاتمهــا, وكتابنا القرآن وهو ﴿ **كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُـهُ ثُـم فُصّلَت مِـنْ لَـدُن حَكيمٍ خَـبير** ﴾[1]. وقبلتنا الكعبة فهي محور توجه المسلمين إلـــى الله الذي أمرنا بها بقوله ﴿ **وحَيْثُ ما كُنْتُمْ فوَلّوا وجوهَكُم شَطَرَه** ﴾[2].

كنتُ سعيداً جداً لتمكني من الإجابة, وكان بــودي الاسترســال بالحديث اكثر لولا أني شعرتُ بتجاوزه حدود السؤال, لذلك توقفــتُ عن الكلام وانتظرتُ أن يبادراني بالسؤال مرة أخرى.

قال منكر وقد بدت عليه ملامح التبسم الممزوج بالوقار والهيبة:

ــ إن أجوبتك كانت مصداقا للآية الكريمة ﴿ **يُثَبِّـتُ اللّهُ الـذين آمَنُوا بالقَوْلِ الثّابِتِ في الحَياةِ الدُّنيا وَفي الآخِـرَةِ** ﴾[3] وهي إنمــا

---

[1]* هود / ١

[2]* البقرة /١٤٤

[3]* إبراهيم / ٢٧

كانت حصيلة جهودك في البحث عن الحقيقة وتحصيل العقائد الحقة خلال سني عمرك الأخيرة, كما إن تلقين صديقك مؤمن حين نزول بدنك في القبر كان له الأثر في ذلك, إضافة إلى مساعدة بعض الأعمال والأذكار التي أديتها في الدنيا, من قبيل صيام أيام شهر شعبان, وإحياء ليلة الثالث والعشرين من رمضان وصلاة مائة ركعة فيها[١].

انتهى كلامه فسألته قائلاً:

ـ يبدو أن لديكما العلم والاطلاع بدرجة الأيمان في قلبي, وصدقه من كذبه, وما هي العقائد القوية والضعيفة لدي, إذن فما وجه تساؤلاتكما هذه؟

أجاب قائلاً:

ـ إن أسئلتنا كانت لغرض إظهار مستوى عقائدك إليك لتطّلع عليها, حينها سوف لا تعترض على أي أثر نرتبه طبقاً لذلك, وهدف آخر منها هو أن هذه الأسئلة والأجوبة تكون سروراً للمؤمن إن أجاب عنها, وعذابا للكافر إن تعثر فيها, كالطالب الذي يفرح عندما

---

*[٤] منازل الآخرة / العقبة الثالثة : (وروى الشيخ الصدوق في ثواب صيام شهر شعبان أن من صام تسعة أيام منه عطف عليه منكر ونكير عندما يسألانه. وروي عن الإمام الباقر (ع) ثواب كثير لمن أحيى ليلة الثالث والعشرين من رمضان وصلى فيها مائة ركعة ... من جملة ذلك الثواب أن الله تعالى يدفع عنه هول منكر ونكير ...).

يجيب عن أسئلة معلمه, وبعكسه الكسول الذي يخجل ويحزن لتعثـــره فيها, وما ذلك إلا ضرب من ضروب الثواب والجزاء.

لم يترك الملك مجالا لسؤال آخر فبادر قائلا:

ــ إن روحك سوف تترك بدنك الدنيوي المادي بصورة كاملـــة, وتستقر في قالب مثالي لطيـــف يشابه من حيث الصـــورة والشـــكل قالبك الأول[١].

قال ذلك واختفى مع صاحبه فجأة, فالتفتُ يميناً ويســـاراً ابحـــث عنهما ولكن لا اثر لهما قط.

وكما قال الملك واخبر, فقد أحسستُ بعد اختفائه بتفكك كل القيود التي كانت تربطني ببدني المادي, وكأن حبالاً كانت تجرني نحوه قـــد تقطعت, وقيوداً قد تمزقت, فأصبحتُ خفيفاً لطيفاً, ولم أشعر بالتحاقي بالقالب المثالي إلا بعد استقراري فيه لخفته ولطافته.

زالت همومي وآلامي بنجاتي من أسئلة منكـــر ونكيـــر إلا هـــمّ العقرب وألمه, فهو لا يرتضي المفارقة ولا يقبل المساومة, لذا عـــاد أنيني وصراخي منه, وبينما أنا كذلك لاحظتُ اتساعا في القبر وانفتاح باب منه نحو حديقة واسعة كبيرة, حينها قـــال لـــي أحـــد الكائنـــات النورانية وهو يجرّني نحوه:

---

[١]* تفسير الصافي / ج١ / ص٢٠٣ : (... عن الصادق (ع) انه قال: ... فإذا قبضه الله عز وجل صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفـــوه بتلك الصــــورة التي كانت في الدنيا).

ـ لنخرج إلى الحديقة التي فتح القبر بابه إليها.

تحركنا جميعاً واتجهنا نحو الباب, فخرجنا منه وجلسنا وسط خضرة واسعة, كانت سعته بمد البصر, وجماله ملفت للنظر, قد وُزّعت فيه الورود بشكل منسق ومنتظم, كما ان ألوانها تتغير بين الحين والآخر لتعطي جمالاً باهراً ورائحة خلابة.

كانت الكائنات النورانية على شكل ست صور, بينهن صورة أحسنهن وجهاً, وأبهاهن هيأة, وأطيبهن ريحاً, قد استقرت فوق رأسي, أما الأخريات فكانت واحدة عن يميني, والثانية عن يساري, والثالثة بين يديّ, والرابعة خلفي, والخامسة عند رجلي, فقالت أحسنهن صورة:

ـ من انتم جزاكم الله خيراً؟

ـ قالت التي على يميني: أنا الصلاة.

وقالت التي على يساري: أنا الزكاة.

وقالت التي بين يديّ: أنا الصيام.

وقالت التي خلفي: أنا الحج والعمرة .

وقالت التي عند رجلي : أنا البر والإحسان.

ثم قالت الصور الخمس جميعاً وبصوت واحد: ومن أنتِ, فأنتِ أحسننا وجهاً, وأطيبنا ريحاً, وأبهانا هيأةً؟

قالت: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين[١].

كنتُ أشاهد واسمع ما يجري من حديث بين هذه الكائنات النورانية فسألتُهن مستغرباً:

ـ ألم تتعارفْنَ قبل هذا الوقت؟

قالت الولاية: كلا لم تترك أحداث القبر مجالاً لذلك.

حقاً كان اجتماع اُنس مع هذه الكائنات, لكنه انقضى سريعاً لحلاوته إذ استأذنوا بمغادرة المكان بعد سويعات من جلوسنا, فأجبتهم مستغرباً:

ـ أحقا ما تقولون؟! وهل سأبقى وحيداً غريباً هنا؟

أجاب أحدهم:

إن لكل منا طاقة محدودة في الدفاع عنك ومرافقتك, وذلك يتبع مدى أدائك لنا في الدنيا وإخلاصك لله حين الأداء، لذلك سوف يغادرك بعضنا ويبقى الآخر, وبعد سويعات أخرى يغادرونك أيضا, وسيكون منوالنا هكذا خلال مسيرتك في عالم البرزخ، لكننا سوف نلتقي بين مدة وأخرى، ولابد لك من قطع أشواط وأشواط ومراحل قد تكون صعبة وموحشة في بعضها, وقد تكون ممزوجة بنعيم أعمالك حتى تستقر لك درجة ومرتبة تكون عليها إلى يوم الحشر والحساب الأكبر.

---

[١]* بحار الأنوار / ج٦ / ص٢٣٤ : (عن الإمام الباقر (ع) قال: إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور, فيهن صورة أحسنهن وجها وأبهاهن هيئة وأطيبهن ريحا و ...).

ــ وهل سيكون بإمكاني الرقي خلال مدة البرزخ؟

ــ إن ذلك مرتبط بأعمالك أيضا.

ــ وكيف؟

ــ قد يكون رقيك بسبب صدقة جارية لم تزل آثارها ومنفعتها مستمرة على أهل الدنيا, فكل يوم يمضي عليك ترقى درجة تتناسب معها, ومنها الولد الصالح الذي ترعرع في أحضانك وقد بلغ رشده[1] فخدم الإسلام وأهله, أو قد يكون رقيك بسبب دعاء خير يأتيك من أهل الدنيا, أو من صلاة أو صيام أو عمل خير يُهدى ثوابه إليك.

ساد صمت قليل ثم عاد ليقول:

ــ والآن لا بد من الفراق وسيبقى معك الصلاة والصيام إلى وقت آخر.

ذهبوا وعيني تلاحقهم, ثم بعد سويعات غادرني الصلاة والصيام فبقيتُ وحيداً فريداً. ساد ظلام الليل لكني مازلتُ أرى, فهناك أنوار ثابتة وأخرى تشع بين الحين والآخر, وما زالت رائحة الورود العطرة تخالط النسيم النقي الذي كان يهبّ برفق وهدوء، لكنني مع كل هذا لم أكن أحس بلذة ذلك ولا بالرغبة فيه بسبب ألم العقرب الذي لم

---

[1]* الكافي / ج٧ / ص٥٥ : (عن أبي عبد الله (ع) قال: ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال, صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته , و سنة هُدى سنَّها فهي يُعمل بها بعد موته, أو ولد صالح يدعو له).

يزل عالقاً في قدمي, وبين ساعة وأخرى تتطـــاير شـــرارات عينيـــه المخيفة نحوي, لذا تنحيتُ جانباً وجلستُ حزيناً مستوحشاً على سرير دلني عليه نوره المشع وبريقه الجذاب.

قلتُ مع نفسي أهذه الجنة التي طالما تأملتها وسعيتُ لها, وكنـــتُ أحلم بنعيمها؟! لكنـي لا أرى فيها الآن غير الغربة والوحشة, وفي هذه الأثناء سمعتُ نداءً من شجرة قريبة فتوجهـــتُ نحوهـــا, وأطرقـــتُ لكلامها, فإذا بها تقول:

ـ إن كل ما تراه هنا هو تجسّم لأعمالك فـــي الـــدنيا[١], وأنـــتَ بحاجة إلى نقاء اكثر كي ترقى إلى وضع افضل مما أنت فيه. أجبتها متسائلاً:

ـ حتى أنتِ وهذا الســـرير الذي جلســـتُ عليـــه هـــو تجسّـــم لأعمالي؟

ـ نعم.

ـ بالله عليكِ اخبريني أي عمل تجسم بصورتك هذه؟

ـ أما أنا فقد خُلقتُ منذ وقت طويل على اثر ذكر تسبيح وتهليل كان بتدبر وخلوص لله، وكذلك هذه الأشجار التي تراها والمتباينة في الشكل والجمال, وإنما هذا التباين بينها يتبـــع التفـــاوت فـــي درجـــة أذكارك.

---

[١]* آل عمران / ٣٠ : ﴿ يومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْـــرٍ مُحضَـــراً وَمَـــا عَمِلَـــتْ مِـــنْ ســـوُءٍ...﴾.

ــ لم تخبريني عن السرير الذي كنتُ جالسا عليه.

قالت:

ــ أما السرير فهو تجسم لإيوائك مسافر ذات يوم أدخلته ســـاعة في بيتك فوقيته حر الظهيرة.

أصابتني الحسرة والندم على أوقات عمري التي انقضت, ولـــم أملأها بذكر الله, لكن الحسرة لا تنفع والندم لايجدي وعلـــيَّ التســـليم والقبول.

تمعّنتُ جيداً في ثمر هذه الشجرة, فرأيته أشـــبه بالتفـــاح, لكنـــه بألوان متعددة, فنويتُ الطلب من بعضها ولكن قبل أن أتفـــوه بكلمـــة واحدة رأيتُ الثمر يتساقط أمامي واحدة تلو الأخرى وبعدد ألوانهـــا, فتحيرتُ بأيّها أبدأ.

تجولتُ في أنحاء الحديقة فرأيتُ الطيور المضيئة بألوانها الزاهية وتغاريدها المطربة تطير بين الأشجار ومن موضع إلى آخر، ورأيتُ الأنهار تشقّ الحديقة بشكل هندسي رائع لتجري وتشـــكل شـــلالات جميلة امتزجت أصواتها فتكونت نغمة موسيقية عذبة. لم تكن الأنهار من نوع واحد, فكان الأول نهر ماء عذب, والآخر لبن ناصع البياض مصفّى, والآخر تسمى مادته خمراً لكنه بأي طعم لذيذ ورائحة عطرة كان، انه لا يشبه خمر الدنيا سوى اسمه وبعض من صفاته الحســـنة

التي قال عنها القران الكريم ﴿ **ومَنافِعُ لِلنّاسِ** ... ﴾[١] وقد أُضيفت لها صفات ملكوتية خلابة.

بينما كنتُ أتجول وانظر يميناً ويساراً مبهوراً مما أراه, وإذا بشخص في غاية الجمال والبياض يتقدم نحوي ويسلّم عليّ فأجبته:

ــ وعليك السلام.

أحسستُ براحة كبيرة عند رؤيته، وبدأتُ الحديث معه وعرضتُ أسئلتي عليه, فقلتُ له:

ــ هل يمكن أن تخبرني من أنتَ وماذا تفعل هنا؟

قال:

ــ أنا خلاصة أعمالك الحسنة, قد كنتُ معك في الدنيا, وسأكون معك على طول مسيرتك في عالم البرزخ.

ــ لكني لم اركَ قبل هذا الوقت!

ــ ان الإنسان لا يرى في الدنيا سوى ظاهر عمله, غافل عن باطنه وحقيقته الملكوتية التي هي مرافقة له لحظة الأداء ولا تظهر له إلا بعد كشف الغطاء عنه.

ــ وماذا بعد البرزخ؟

ــ وبعد البرزخ سيكون لي دور يتناسب مع عظمة الحساب والأهوال يوم ذاك.

---

[١]* البقرة / ٢١٩

ــ إذن قد فزتُ ونجوتُ.

ــ كلا, إن أمامك الكثير من الأهوال والمصائب وأنــواع مــن العذاب سوف يُصَب عليك, وكله آثار أعمالك السيئة، وكــل عــذاب يُصيبك في البرزخ سوف يطهّرك اكثر واكثر حتى تنقى.

ــ وماذا سيكون دورك في كل ذلك, وأين رفقتك لي فــي تلــك الأهوال والمصائب؟

ــ إن لي حداً محدوداً في مرافقتك والسعي لنجاتك, إذ أن لــديك ملكات فاسدة ومعاصي ارتكبتها ولم تتب منها ولا بد لك من أن تذوق عذابها, وفي ذلك كله سأكون بعيداً عنك حتى تطهر منها.

ــ وماذا عن العقرب الذي في قدمي, وكيف الخلاص منه؟

ــ إن هذا أمر متعلق بالشخص الذي يطلبك مالاً ولم تؤده إليــه, وسوف لا يزول عنك حتى تؤديه دينه أو يبرئك منه.

ــ وماذا بوسعك أن تساعدني في هذا الأمر؟

ــ سوف أبذل أقصى جهدي لمساعدتك ونجاتك منه إن شاء الله. والآن لابد من مفارقتك على أمل اللقاء مرة أخرى.

تركني وحيداً وذهب. انطفأت كل المصابيح, وذهب بريق جميع الأشياء, وساد الظلام, فلم اعد أرَ شيئاً, ولا اسمع صوتاً, وغمرتنــي وحشة شديدة, وتحيرتُ إلى أي جهة أقصد, وإلى أي طرف أخطــو, هل أبقى في موضعي أم ماذا افعل, حقيقة لقد كــان الحــال مَهــولا والمستقبل مجهولا, ولعل هذا مقدمة للعذاب...

انجلى الليل وأقبل عليّ كائنان عملاقان أسودان كسواد القير, لا يُرى منهما شي غير شرارات تخرج من عينيهما وحلقيهما, وشرارات أخرى تخرج من عصاتيهما الملتهبتين. دَنَيا مني حتى وصلاني وأنا في حالة خوف شديد, فمسكني أحدهما من رأسي والآخر من قدمي وحملا بي سريعاً كالبرق إلى وادٍ كبير عميق يصعد منه دخان اسود عظيم. لقد كان الوادي عظيماً لدرجة أن له سوراً ضخماً لم أتمكن من تمييز حد لنهايته لا من أعلى ولا من يمين أو يسار. اقتربنا منه فانفتح لنا بابه الذي لو اجتمعت آلاف مؤلفة من البشر لِفتحه ما تمكنوا منه. دخلنا وإذا بأصوات صراخ وعويل لنساء ورجال، وغمرت مشامي رائحة كريهة نتنة فقلتُ للمأمورين معي:

ــ ما هذا المكان الذي جلبتماني إليه، لعلكما اشتبهتما في شخصي.

ــ قال أحدهما:

ــ نحن ملائكة الغضب لا نشتبه في شخص قط، وفوقنا رقيب نأخذ منه الأمر، ورقيبنا عليه رقيب حتى يصل الأمر إلى الجليل الأعلى، ألم تقرأ في القران الكريم ﴿ **لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[1]؟

ــ أما الآخر فقال:

---

[1]* التحريم / ٦

ــ وهذا وادي خُصص لعذاب العاصين، ولا بد لك من قضـــاء أنواع العذاب فيه حتى تنقى من ذنوبك.

قال كلامه وضربني بعصاه على رأسي فأشتعل ناراً, وصرختُ صرخة عظيمة، وضربني الآخر على بطني فالتهبت هي الأخرى.

ذهبا عني وبقيتُ أتلوى وأحشائي تحترق حتـــى بـــدأتُ اســـمع صوت توغل النار فيها.

بأي حال سيئة كنتُ, وأي آلام تحملتُ, بل أي صراخ صرختُ, ناديتُ وما من مجيب, واستغثتُ وما من مغيث. لقد كـــان إحساســـي بحرارة النار إحساس مَن حضر فيها فهو داخلها لا من اخبروه عنها فهو يتخيلها, وشتان بين الاثنين.

بقيتُ بهذه الحالة ساعات شغلني ألمي فيها عمّـــا حـــولي, فلمـــا هدأت النار وعاد جلدي كما كان نظرتُ يميناً وشمالاً فرأيـــتُ واديـــاً ليس له حدود قد انتشر فيه آلاف من ملائكة الغضب بأشكال مختلفـــة مرعبة يحملون سياطاً مختلفة، منها الغليظ ومنها النحيف, وبعضـــها من نار, وبعضها من مواد أخرى أجهلها، وهناك مجـــاميع أخـــرى تحمل مقامع من حديد مُحمر.

قَدِمَ عليّ ملكان ظهرا فجأة فلا اعلم من أي جانب أتيـــا. اقتربـــا مني وحملاني إلى غرفة مليئة بصفوف الملائكة الذين اصطفوا بشكل مرتب ومنتظم, وهم ينظرون إلى ملك عظيم الخلقة قد تصدّرهم وتقدم

عليهم، ويبدو انه زعيمهم. ألقياني أمامه وتحدثا معه بحديث لم افهمه وخرجا فبقيت انظر إليه كالذليل بين يديه, ارتجف خوفاً منــــه.

أومأ إلى ملكين آخرَين فأتيا سريعاً وحملاني إلى غرفة أخـــرى, إذ جاءنا فيها ملك يحمل لوحاً علقه في عنقي وقال:

ــ إن هذا اللوح يحوي أعمالك السيئة صغيرها وكبيرها ســـوى ما تبت منه, مع توضيح جزاء كل منها من العذاب ونوعه ودرجتـــه ومدته، كما يحوي صفاتك وملكاتك السيئة التي لم تزل باقية بســـبب عدم اقتلاعها من جذورها في الدنيا.

أجبته قائلا:

ــ وهل يمكن لي معرفتها؟

ــ نعم يمكن لك ذلك.

حملني إلى غرفة أخرى، ودخلنا فيها فرأيتُ ملكاً قد وضـــع أمامـــه لوحاً عظيماً, فلما رآني قال للمأمور معي:

ــ ما اسمه وما رمزه؟

ذكر المأمور اسمي الكامل ورقم طويل تتخلله أحرف وكلمـــات لـــم افهمها، بعدها خاطبني الملك قائلاً:

ــ اجلس هنا.

أشار إلى كرسي كان في الغرفة فجلستُ عليه وقال:

ــ هل ترى هذا الكتاب[١]؟

ــ نعم أراه, ولكنه ليس بكتاب كما اعرفه!

ــ ليس بالضرورة أن يكون كتاب البرزخ بنفس صورته في عالم الدنيا, بل يكفي أن يؤدي وظيفة مشابهة لما كان يؤديها, فيُطلق عليـــه هذا الاسم.

توقف قليلا ثم استأنف كلامه فقال:

ــ إن لكل إنسان يدخل هذا الوادي مقداراً معلوماً مـــن العـــذاب وفترة تتناقص مع كل لحظة تمضي عليه، وهذه المـــدة لا تزيـــد ولا تنقص إلا بإذن الله، كما إن ذلك مرتبط بما تركته فـــي دنيـــاك مـــن صدقة جارية أو اعمال سيئة لم يزل أثرها في الدنيا قائماً.

ــ قل لي بالله عليك كم سأبقى أسيرا عندكم فـــي هـــذا الـــوادي المرعب؟

نظر إلى الكتاب وتمعن فيه ثم قال:

ــ إننا مأمورون طبق هذا الكتاب بحبسك مدة إحدى وخمسين سنة وثمانية أيام و..

لم يكمل الملك حديثه بعد أن التفت نحوي لأنه رآني قد أُغشي عليّ, ولولا تماسك الكرسي لسقطتُ منه.

---

[١]* الكهف / ٤٩ : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المُجْرِمينَ مُشْـــفِقِينَ مِمّا فِيهِ ويَقُولون يَا وَيْلَتَنَا مَـــالِ هَذا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلوا حَاضِرا وَلا يَظْلِـــمُ رَبُّـــكَ أحَدَا﴾.

أفقتُ بسوطٍ من أحد الملائكة اللذين أحاطوا بي، حينها قلتُ لـــه بصوت ضعيف متقطع ولهجة آيس معترض:

ــ بأي ذنب كل هذه المدة؟ إنني تبتُ إلى الله توبة خالصة قبـــل خمس سنـــين, وسعيـــتُ جاهداً في طاعة الله ورعاية حقوق النـــاس و..

قاطعني الملك وقال:

ــ صحيح ما تقول، ولولا توبتك هذه لكان لا بد لك من أللبـــث هنا آلاف السنين, بل وقد يمتد عذابك إلى يوم الحشر الأكبر، ولكـــن بسبب توبتك الخالصة سُجلت لك هذه المدة القصيرة جداً.

ــ إحدى وخمسون سنة تقول عنها مدة قصيرة!

ــ نعم هي قصيرة جداً نسبة إلى فترات غيرك, ولـــولا علمـــي بدرجة إيمانك وتقواك ما أجبتك على أسئلتك, ولا أظهرتُ لـــك هـــذا الاحترام. وبسبب ذلك الأيمان ستكون درجة عذابك قليلة لو قارنتهـــا بغيرك.

ــ وبماذا سوف تعذبونني؟

نظر مرة أخرى إلى الكتاب وقال:

ــ نحن مأمورون طبق هذا الكتاب بإدخالك فـــي مئـــة وســـبعة وثلاثين نوعا من العذاب, وها أنا ذا أشاهد فيه صفات سيئة لم تـــزل فيك وإن كانت بدرجة ضعيفة, من قبيل التكبـــر والعجـــب والريـــاء وصفات مختلفة أخرى.

توقف قليلاً ثم استمر في حديثه فقال:

ــ كان عليك مراقبة نفسك في الدنيا ومحاسبتها قبل أن تُحاسب الآن، كما انك كنت تستهين بذنوبك الصغيرة ولم تتب منهــا، وكــان يصيبك شي من العجب في طاعتك، ولديك أعمال حســنة أديتهــا لله لكن خالطها الرياء دون أن تشعر به.

توقف مرة أخرى وتمعن في الكتاب وقال:

ــ وأرى في أعمالك أيضا ظلمك لولدك خمسا وأربعين مرة, ولزوجتك سبعا وخمسين مرة, وإسرافا في نعم الله أربعا وتسعين مرة, وأكلك مال حرام خمسا وستين مرة و..

قاطعته معترضاً:

ــ عن أي مال حرام تقول؟ إني سعيتُ جاهداً على عدم اخذ دينار واحد حرام، فمن أين أتيتَ بذلك؟ إنني أرى الخطأ في كتابكم هذا.

أجابني بهدوء رغم جرأتي على اتهامهم بالخطأ في كتابهم فقال:

ــ انك كنت تعمل مهندساً, وتتقاضى راتبا شهريا مقابــل ثمــان ساعات عمل يومياً، ولديك خمس وستون حالة انشغلتَ فيها بــأمور شخصية أثناء وقت عملك وبدون رخصة من صاحب العمل، وقد أثر ذلك على إنتاجية الشركة وان كان بشكل غير ملحوظ.

توقف قليلاً ثم قال:

ـ لا أرى من الضروري ذكر تفاصيل أكثر, فلا بد من قضاء هذه المدة بأي حال كان. ولكن لعله يصل إليك شي من أهل الدنيا يخفف عنك العذاب, وينقص من مدة مكوثك, أو لعل لديك من الأعمال الحسنة ما تسمح لك بنيل شفاعة الشافعين.

سلمتُ أمري إلى الله طوعا أو كرها, وقلتُ لهم احملوني إلى حيث يشاء ربي...

الفصل الخامس :

نَقاءٌ في جهنم

ليتني عرفتُ قدري في الدنيا قبل أن يعرِّفونه لي الآن تحت أقدام أهل جهنم. ألقوا بي وأنا مكتّف الأيدي والأرجل على أرضٍ محمـــرة مسودة ملتهبة, كلما لامسها جزء من بدني دفعتُ به ليتكئ على جزء آخر, فأصبحتُ متقلباً ممدوداً أتحول من مكان إلى آخر تحت أقــدام سكان جهنم الذين كانوا يقفزون من شدة آلامهم, والنار مشتعلة فيهم, فكأنهم قطع من نار متحركة مضطربة, والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم بسياط غليظة.

آه ثم آه, ألمي لا يوصف, وعذابي (رغم قلة درجته علـــى قول الملك) لو قُسّم على أهل الدنيا جميعاً ما تحملوه. لقد كانت حـــرارة النار تدخل إلى أعماق قلبي فتحرقه قبل بدني[1], وأيّ نـــار! أظـــن أن حرارتها لو مسّت جبال الأرض لانصهرت, ولو سقطت شرارة منها على بحار الأرض لتبخرت.

كنتُ أسمع في الدنيا وأقرأ عن نار الآخـــرة وأتصـــورها بمـــا يتناسب مع تخيلاتي المحدودة في ذلك الوقت, أما الآن فان روحـــي بعينها تذوق العذاب وهي حاضرة فيه لا خارجة عنه, وشـــتان بـــين الاثنين.

أصابني عطش شديد, لذا كنتُ حين تقلبي انظر هنا وهناك بحثاً عن الماء, فرأيتُ أحد ملائكة الغضب يحمل إناءً اسود يتصاعد منـــه

---

[1] * تختلف نار الآخرة عن سائر نيران الدنيا بأنها تحرق من الداخل وأول إقتـــداحها فـــي قلـــب الإنسان, وقد ذُكر هذا المعنى في سورة الهمزة ﴿ نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ. التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفْئِدَةِ ﴾.

بخار, ويُسمع منه صوت فوران ما بداخله، أدناه مني فانشوى وجهي لشدة غليانه, وكنتُ متردداً بين قبوله وردّه, لكن يبدو أن لا خيار لي في ذلك, فقد أراقه في فمي دون أن ينتظر, وليته لم يرقه, لقد كان حميماً وأي حميم، قطّع أمعائي لشدة غليانه[1], فازددتُ ألماً وعطشاً فوق ألمي وعطشي، وندمتُ حتى على نيتي في طلب الماء وشربه.

قال الملك وقد ضربني بسوطه مستهزئاً:

ــ كيف كان طعم الماء؟

لم اجبه فقال:

ــ انه ﴿ **مَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾[2], وهناك نوع آخر من الماء هل تريده؟

ــ أجبته بصوت ضعيف وشفاه يابسة:

ــ نعم.

تناول إناءً آخر وأراقه في فمي فإذا به أسوء من الأول, لذا قذفته خارجاً بعد أن ترك في حلقي مرارة لا تُطاق، فقلتُ له:

ــ أتقول عن هذا انه ماء؟!

قال:

---

*[1] محمد / ١٥ : ﴿ ... وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَائَهُمْ ﴾.

*[2] الكهف / ٢٩ : ﴿ ... وإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

ــ انه ماء صديد، يخرج مع الدم الذي يسيل من اثر جروح أهل جهنم[١].

أحسستُ بجوع شديد حتى إنني لم أعد أقوى على الحركة, بل حتى على التقلب يميناً وشمالاً. رفعتُ رأسي قليلاً بحثاً عن الطعام فرأيتُ شخصاً يصرخ صراخ المجنون بعد أن دخلت أفعى عظيمة في فمه ثم خرجت من دبره, وبدأت تلدغ في وجهه وبدنه والنار ملتهبة تحت قدميه.

نحّيتُ بصري عنه لبشاعة منظره, وإذا بسوط أحد الملائكة يهزّني، رفعتُ رأسي نحوه فقال:

ــ هل تريد طعاماً.

أجبته بصوت خافت متقطع:

ــ نعم.

لم يمكث طويلاً حتى أتى بإناء ممتلئ، قرّبه مني فنظرتُ لما فيه وإذا به طعام على هيأة نبات ذي أشواك حادة ورائحة نتنة كريهة. فتح السلاسل من يدَيّ وأشار لي بتناوله. أخذتُ الإناء وتناولتُ ما فيه، وليتني لم أتناوله ولم اطلبه, لقد مزق حلقي فلا يدخل فيه ولا يخرج منه، ولم اقذفه إلا بشق الأنفس وجهد جهيد, فقلتُ له عجباً من طعام!

---

[١]* إبراهيم / ١٦ ــ ١٧: ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ... ﴾.

نظر لي الملك وقال:

ـ ﴿ **إنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً**﴾[١]

قلتُ له:

ـ من أين أتيتَ بهذا الطعام؟

قال:

ـ أنت صنعته لنفسك في دنياك, فأتيتُ به من خزانة أعمالك.

ـ عجباً, وكيف اصنع لنفسي طعاماً كهذا؟

ـ أكلك مال الحرام تجسم بهذا الشكل من الطعام، كنتَ لا تراعي في وقت عملك انك أجير لثمان ساعات يوميا في شركة أبرمت عقداً معها، فتأتي متأخرا أحيانا, أو تخرج منها مبكراً دون عذر شرعي يجوز لك ذلك.

مضت ساعة وإذا بي اسمع ضجيج أناس يصرخون. زاد الضجيج شيئا فشيئا لاقترابهم مني فتمعنتُ فيهم وإذا بهم مجاميع مجاميع من أناس ذات وجوه وأبدان سوداء والنار محيطة بهم, ونار أخرى تخرج من أفواههم وآذانهم, وهم في حالة هول وذعر شديدين, يركضون وكأنهم قد فرّوا من فزع عظيم. أصغيتُ إلى صراخهم فسمعتهم يقولون: أين نهر الماء.. أين نهر الماء!

---

[١]* المزمل /١٢ ـ ١٣

جمعتُ قواي وقمتُ من مقامي وتبعتهم أملا في إيجاد نهر ماء كما يزعمون, ولم يمض وقت حتى اقتربنا من ضفة نهر كبير, وما أن وصلوا إليه حتى ألقوا بأنفسهم فيه إلا أنا إذ وصلتُ متأخرا فهممتُ باللحاق بهم ولكني سمعتُ صراخهم قد تضاعف, وعويلهم قد عظُم. نظرتُ إليهم فرأيتهم يصرخون ويستغيثون وسط نهر يغلي غليانا شديدا علمتُ فيما بعد أن مادته كانت من النحاس المذاب ذات الحرارة العظيمة. حمدتُ الله أني لم أكن معهم, ويبدو أن لدي من الأعمال ما منعتني من ذلك.

هممتُ بالعودة وإذا بي أرى مجاميع أخرى في حالة ركض شديد نحو جهة أخرى, وتلاحقهم ريح ذات حرارة وسموم حتى وصلتهم وأحاطت بهم ودخلت في مسام أبدانهم, فبدأوا يصرخون ويستغيثون, وكلما رأوا غيمة سوداء هربوا إليها ليستظلوا بظلها, فإذا هي الأخرى تبدو وكأنها دخان اسود غليظ يمطر عليهم بكتل من نار ملتهبة[1] لا تخطئ في هدفها ولا ترحم مَن تحتها.

انتهت فترة عذاب الصباح وكأنها استغرقت سنين طويلة لشدتها وقسوتها, فهدأت النار وانطفأت من تحت أقـــدامنا, واختفـــى ســـواد دخانها من أنظارنا, وشعاع لهيبها عن أعيننا, ورُفعت سياط ملائكـــة

---

[1] * الواقعة /٤٢-٤٤ : ﴿ في سَمُومٍ وَحَميم. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾.

الغضب عن أبداننا, وأعلنوا بدأ الاستراحة حتى الليل, حيث وجبة العذاب التالية[1]...

كان يتكرر ذلك يومياً غداةً وعشياً, وبين فترة وأخرى يتغير نوع العذاب إلى آخر, لذا رأيتُ أنواعا عجيبة غريبة ذات قسوة شديدة لا تتصورها عقول أهل الدنيا, فكيف بمن يعيش فيها ويتحملها.

ذات يوم وبالتحديد بعد خمسة أيام من دخولي في جهنم, كنتُ أعيش حالة عصيبة من المرارة والألم وسط حرارة النار المشتعلة حولي, إذ كان عَرَقي يخرج من رأسي وبدني ويجري عليه ثم يتخذ سبيله إلى الأرض التي تحتي, فأراه يتبخر فورا لشدة حرارتها وعظيم لهيبها, وبينما أنا في هذه الحالة إذ جاءتني نسمة هواء باردة, فغمرتني بعذوبتها وأطفأت النار من حولي, وجرى من تحتي ماء! لا اصدق ما أرى, نعم إنه ماء يجري, وها هي قدماي تبتل منه. غرفتُ منه غرفة لأتيقن أن ما أراه حقيقة لا خيال, وقد كان كذلك.

لقد تغير كل شيء وهدأت جميع النيران, وغابت جميع مجسمات أعمالي السيئة لأعيش حينها حالة من الراحة والسكون.

---

[1] * آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تشير إلى أن في البرزخ ليل ونهار, وان هناك وجبتين من العذاب يوميا, وهذا يبدو واضحا في آية رقم ٤٦ من سورة غافر والتي تعرض حال آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾.

سمعتُ أصواتا ما كانت غريبة عني فأصغيتُ إليها جيدا وإذا بها أصوات أهلي يتحدثون فيما بينهم, ثم ظهرت أمامي صـــورهم وقـــد اجتمعوا حول قبري[١], نعم ها هي والدتي تدعو لي وتبكي, وها هـــو أخي يتلو القرآن, ما أجمل صوته وأعذب لحنه, وهذه أختي تمســـك مرتضى بيدها وتحاول قراءة شيء من الكتاب الذي بيدها الأخرى[٢], جزاها الله عني خير الجزاء... هممتُ بالتقـــدم نحـــو صـــورهم وإذا بصوت يناديني:

ـ لا فائدة من ذلك, اكتف بالنظر إليهم والأنس بوجودهم حـــول قبرك.

فهمتُ المعنى وبقيتُ انظر إليهم وأتمعن في صورهم وأحسستُ بأُنس عظيم باجتماعهم هذا ولكن...

صرخت أختي الصغيرة وسط الجمع, وسرعان ما أسكتها أخـــي قائلا لها:

---

[١]* الحدائق الناضرة / ج٤ / ص١٦٩ : (عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن (ع) قال: قلـــتُ له : المؤمن يعلم من يزور قبره؟ قال: نعم, ولا يزال مستأنسا به ما زال عند قبـــره, فـــإذا قـــام وانصرف من قبره دخله من انصرافه عن قبره وحشة).

[٢]* من اللطيف جدا أن تكون مقابرنا ذات وسعة وتنظيم هندسي يسمح لنا بالاجتماع حول القبر والدعاء لصاحبه, وأن يكون محيطها ذا خضرة وجمالا يجذب الناس لزيارتها, ويدعوهم للتجول بين أحضانها, فيكون في ذلك منفعة للأموات وتذكرة للأحياء وقد لا يتحقق ذلك إلا بأن نخصص في كل مدينة مكانا يستوعب ما قلناه ليكون مقبرة ومتنزها لنا وللأجيال القادمة التي تلينا. وهذا مقترح منّا لعل المستقبل يتكفل باجرائه ويرى آثاره على المجتمع الإسلامي ان شاء الله.

ـ لقد أوصانا سعيد بزيارة قبره بين الحين والآخر حتى قبل يوم أربعينه, وقد عملنا بوصيته رغم مخالفة ذلك لتقاليد مجتمعنا[1], كما انه أوصانا بعدم صراخ النساء على قبره, وعدم ارتداء لباس الحزن عليه مدة طويلة, فهل نسيتي ذلك يا أختاه؟

قالت :

ـ لا والله ما نسيتها , فانا التي قرأتها عليكم, ولكن لا طاقة لي بفراقه, وكلما دعوتُ نفسي إلى الصبر غلبني شيطاني ودعاني إلى الصراخ والبكاء بصوت عالٍ بحجة أن ذلك يخفف عني ألم هجرانه.

تمنيتُ أن لا يغادروا قبري ولكن ليس كل ما يتمناه الإنسان يناله, فقد اقترب موعد الرحيل ثم تركوني وذهبوا, وعاد كل شيء إلى مكانه, وتوقدت النيران من جديد, وظهرت أعمالي السيئة بهيئتها الموحشة المظلمة مرة أخرى وهي تحمل في داخلها حقد عظيم...

مضت فترة أخرى في جهنم كنتُ خلالها متعجبا ومتألماً من العقرب العالق في قدمي كيف لا يمل ولا يهدأ, وكيف لا يحترق بتلك النيران وحرارتها العالية, وذات يوم...

---

[1] * بعض المجتمعات تلتزم عدم زيارة قبر الميت حتى يمضي أربعون يوما من وفاته, ولم أجد خلال بحثي ما يسند ذلك, بل وجدتُ خلافه, إذ إن الميت في أيامه الأولى يكون بأمس الحاجة إلى من يزوره ويخفف عنه غربته في عالمه الجديد الذي لم يتطبّع بعد على سكانه وأهله. أما عن زيارة الحوراء زينب لأخيها الإمام الحسين (عليهما السلام) بعد أربعين يوما (إن ثبت صحة هذا الحدث), فإنما كان لعدم تمكنها من ذلك إلا بعد هذه الفترة، بسبب أسرها ورحلتها إلى الشام وما تبعها من أحداث أخرى, ولو تمكنت من زيارة قبر أخيها قبل هذا الوقت لما ترددت فيه قط .

ذات يوم سمعته صرخ صرخة عظيمة, وأخرج شوكته, فنظر لي نظرة حقد وسخط ثم لاذ بالفرار بعيداً، وحينها ما وجدتُ سبباً لتصرفه هذا, ولا علمتُ حدثا يستوجب فراره هكذا, فقلت في نفسي لعل الأيام ستكشف لي ذلك.

ذات يوم اخبرني أحد خزنة جهنم أن غدا سيكون العذاب من نوع جديد, وهو صعود جبل من نار, وسيكون عذابه لي ذا درجة قليلة نسبة مع من يتسلقه من أصحاب الذنوب والمعاصي, وقال أيضا: سيكون العذاب على كل فرد يختلف عن الآخر تبعاً لدرجة معاصيه وملكاته الفاسدة.

جاء الغد وإذا بالملائكة يأتون بأشكالهم المخيفة, ويجرونني ذليلاً على ارض جهنم الملتهبة نيرانها, فلا ادري من أي آلام اصرخ واستغيث, مِن حرارة النار تحت قدمي، أم من جروح بدني الحارقة, أم من اثر سياط الملائكة الموجعة, أم من اثر الأشواك الحادة فهي كالسكاكين المبعثرة هنا وهناك، أم من لدغات العقارب والأفاعي والتي اخذ كل منها سهمه مني، أم من الوحوش المرعبة التي ما تركتني حتى غرزت أنيابها في بدني، فقلتُ عجباً لأعمالي التي تجسمت بهذه الصور فأصبحت قطّاع طرق لي، وعجباً لنفسي أن كنتُ غافلاً عنها فلم أطهرها يوم كانت لدي الفرصة لفعل ذلك. وعجباً أن كل ما لاقيته الآن هو في طريقنا إلى جبل النار, فكيف إذا

وصلنا إليه، أم كيف سيكون العذاب فيه وأنا بهذه الحالة من الضعف والعطش والجوع...

وصلنا المقصد فألقوا بي أرضاً, مكبّل الأيدي والأرجل على ارض يجري فوقها ماء اسود كالقير, يغلي كغلي القدور, والنار ملتهبة مشتعلة فيه وقد أحاطت بي من كل جانب.

ذهبوا عني وتركوني أتلوع وأتضرع, فنظرتُ أمامي وإذا بجبل عملاق لا تُرى قمته ولا تهدأ نيرانه، قد أُحيط بسور عظيم، وأمام السور ملائكة شداد غلاظ ذوي هياكل ضخمة ووجوه مرعبة, قد وقفوا بهيأة محكمة وصفوف منتظمة. بقيتُ وأنا بهذه الحالة انظر مبهوراً خائفا وإذا بأحد خزنة جهنم يضربني بسوطه ثم يقول:

ـ إن صعود هذا الجبل الذي تراه أمامك يستغرق عشر سنين حتى تصل قمته، وسوف تلاقي فيه مصائب وبلايا وأنواعا من العذاب جديدة منهكة ومؤلمة حتى تصل آخره, ثم يُلقى بك من تلك القمة في وادٍ مظلم معتم لا ترى فيه حتى قدميك, قد مُلئ بأنواع من الوحوش المفترسة الجائعة تأكل فيك ولا تشبع, وهي على هذا الحال مدة ثلاث سنين، ثم توضع ممدوداً مقيداً في صندوق من حديد ساخن مدة خمس سنين, وسترافقك فيه أعداد من العقارب القارصة والأفاعي السامة الملتهمة, بعدها يفعل الله ما يشاء.

سكت قليلاً ثم أضاف وكأنه يهوّن عليّ ما سألاقيه فقال:

ـ إن البعض منهم يستغرق صعوده الجبل آلاف السنين, ويلاقي فيه أنواع عذاب اشد واشد مما سوف تراه وتلاقيه أنت في صعودك، ويبدو لي انك إنسان مؤمن تقي, لكن لم تزل فيك ملكات فاسدة بدرجة ضئيلة, إذ إنك ما استأصلتها من جـذورها, تبعتهـا أعمـال سـيئة, فتجسمت جميعها بهذه الصور من العذاب التي سوف تلاقيهـا فـي صعودك جبل النار هذا...

أصابني غم شديد وحزن عميق وخوف لا يوصف مما أنا فيـه ومما ينتظرني من أهوال وبلايا، لكني أحسستُ حينها بقدرة التوجـه إلى ربي ومناجاته, فبكيتُ بكاءً شديداً, وتضرعتُ إلى ربي متوسـلا, وانطلق لساني مردداً:

(يا غافر الذنب يا قابل التوب يا عظيم المن يا قديم الإحسان, أيـن سترك الجميل, أين عفوك الجليل, أين فرجك القريب, أيـن غياثـك السريع, أين رحمتك الواسعة...)[١]

اقبل نحونا ملك حسن الوجه, جميل المنظـر فاستبشـرتُ مـن قدومه، وكان كلما يقترب اكثر ينفتح صدري أكثر حتى وصل إلينـا, فسلّم ثم تحدث مع الخازن المرافق لي بحديث قصير وذهب, وتبعـه الآخر بعده!

---

[١]* مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي, ولم يتمكن من النطق به إلا لأنه كـان يـردده بتـدبر وخشوع في عالم الدنيا, فتجسم هنا بصورة قدرة على مناجاة الرب الصادقة .

بقيتُ وحيدا مبهوراً مما حدث متحيرا في أمري وما سيؤول إليه مصيري. أحسستُ بخفوت النار حولي وبرودة الماء الأسود تحتي حتى اختفى، فقلتُ في نفسي: أترى حان وقت الاستراحة! كلا ليس هذا وقتها، إذن لعل زائرا محترما يريد القدوم! لا أظن ذلك إذ لا زال العذاب قائما على غيري. أترى هو ضوء أمل بالنجاة! نعم لعله مقدمة لذلك, ولكن بأي سبب، فملائكة ربي لا يخطئون في حساباتهم ولا ينقصون ولا يزيدون في العذاب إلا بأمرٍ من الجليل الأعلى, كما إنني لا زلتُ مكبّل الأيدي والأرجل, وما زال جبل النار يرعبني بضخامته ونيرانه...

آه.. حقيقة عشتُ بين الخوف والرجاء, واليأس والأمل, فتراني تارة اضحك وأخرى ابكي, وتارة تخنقني حسرة أعمالي التي أوصلتني إلى هذا المقام من الذلة والعذاب.

لم تمض مدة طويلة حتى أتاني خازن آخر ومعه مخلوق غريب لم أرَ مثله من قبل. كان بدنه كالفرس ووجهه كملائكة الغضب وله جناحين كبيرين. تقدم الخازن نحوي وفتح عني قيودي وقال:

ـ لقد وصلتك هدية كبيرة من أهل الدنيا, لذا أُمرتُ بنقلك إلى غرفة بعيدة عن جبل النار, وسوف تستقر فيها حتى يأتي أمر الله.

لا أستطيع أن أصف حالتي ساعة سمعتُ ذلك, فأصبحتُ كالمجنون الذي يتخبط هنا وهناك لا يعلم ماذا يفعل, حتى هدأتُ والملك ينظر لي فقلتُ له:

ــ اعذرني إنها الفرحة جعلتني افعل هكذا.

لم يجبني بشيء, واخذ بيدي وأشار لي بالصعود فوق ظهر المخلوق الذي معه. انطلق بنا بسرعة فائقة واعتلى محلّقاً فوق ارض جهنم, فرأيتُ في طريقنا مشاهد يشيب الرأس لرؤيتها فكيف بمن يعيشها!

رأيتُ أعدادا لا تُحصى من البحار، ويبدو أنها بحار من المُهل والغسلين[١] التي قرأتُ عنها في عالم الدنيا, ورأيتُ دوراً لا تُحصى من الرصاص, وأخرى من النحاس, وأخرى من الحديد، وبينما كنتُ انظر لها مبهوراً قال الملك:

ــ في كل دار منها سبعون ألف تابوت من نار, وفي كل تابوت ألف حية, ومن كل حية يصدر ألف نوع من العذاب!

ورأيتُ نساءً معلقات بشعورهن ويصرخن صراخا شديدا اختلط مع صوت غليان ادمغتهن, وعليهن سلاسل من حديدٍ ساخنٍ محمر, ورأيتُ نساءً على صور كلاب والنار تدخل في أدبارهن وتخرج من أفواههن, ورأيتُ نساءً معلقات بألسنتهن وصراخهن مثل صراخ الحمير والنار تأكلهن, والحيّات والعقارب تلسعهن وتنهشهن.

---

[١]* الحاقة / ٣٥ ــ ٣٧ : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَاهُنا حَمِيمٌ . ولا طَعَامٌ إلاّ مِنْ غِسْلِينٍ . لا يَأكُلُهُ إلّا الخَاطِئُونَ ﴾. وقال السيد الطبأطبائي في تفسير الميزان: وكأن المراد به (غسلين) هو ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه .

التفتُ إلى الملك لعله يوضح لي شيئا مما أرى فتدارك نظراتـــي إليه وقال:

اللواتي يكشفن شعورهن وزينتهن لغير أزواجهـــن, والصـــنفان الآخران اللواتي يؤذين ويلومَنَّ أزواجهن من غير ضرورة[1].

اشمأزت نفسي من بشاعة هذه المناظر, وأغلقتُ عيني وأطرقتُ قليلاً وأردتُ أن اشغل فكري بأمر آخر, فحضر لدَي أمر الهدية التي وصلت من الدنيا وتساءلتُ في نفسي:

تُرى من الذي ذكرني بعد ثلاثين عاماً، جزاه الله عني خيـــراً، تُرى هل هي أمي أم أبي ؟ كلا لا أظن انهما في عالم الدنيا بعد هـــذه المدة، تُرى هل هي من زوجتي؟ كلا إنها فارقت الـــدنيا قبلـــي. إذن لعلها من أحد أصدقائي؟ آه تذكرت صديقي مؤمن, ليتني اعلم أين هو الآن, هل ما يزال في عالم الدنيا؟ وهل هو الذي أهدى لي ذلـــك؟ لا اعلم...

وبينما أنا في هذه الدوامة من الحيـــرة والتفكيـــر وإذا بالملـــك يسألني:

ــ هل تعلم من أين أتتك الهدية؟

ــ كلا لا اعلم, اخبرني بالله عليك من أين هي؟

---

[1] * ورد ما يقارب هذا الوصف لحالة النساء في جهنم في بعض كتب الإسراء والمعراج.

ـ إن ابنك مرتضى لم يزل في عالم الدنيا, وهو الآن شاب مؤمن متدين جمع مبلغاً من المال خلال سنة من الجهد والتعب والعناء لغرض شراء وسيلة نقل له ولعائلته, ولكن عندما علم بوجود سبعة عوائل فقيرة في منطقته لا تملك قوت يومها، عزم على تقسيم المبلغ بينها وأهدى ثواب عمله هذا إليك, فأمر الجليل الأعلى بعدم إدخالك في جبل النار وكذلك نجاتك من عذاب عشر سنين أخرى.

غمرتني فرحة شديدة فلم أتمالك نفسي, وكأن روحي تحاول فك القيود والتحليق في عالم الفرحة والسرور, حتى خشيتُ الوقوع من على ظهر هذا المخلوق الذي لم يزل يقطع المسافات الطويلة حتى أوصلنا المقصد.

لم أكد أضع قدمي أرضا حتى تذكرتُ أن مدة العذاب المكتوبة في الكتاب كانت إحدى وخمسين سنةً وثمانية أيام, قضيتُ منها ثلاثين عاما, وعُفي عني عشرون, إذن بقي عام واحد وثمانية أيام.

آه الويل لي، صرختُ صرخة المجنون:

ـ أنا لا أريد العودة إلى النار, لا لا أريد, لا أطيق لحظة واحدة فيها. أراد أحد الملائكة أن يجرني ويأخذني إلى الغرفة المقصودة ولكني أبيتُ ذلك وأجبته قائلا:

ـ أنني أريد أن أناجي الجليل الأعلى، أريد أن أتوسل وأتضرع إلى ربي، أليس هو الرحمن الرحيم؟ أليس هو ارحم الراحمين؟ أليس هو حبيبي في الدنيا فكيف يتخلى عني في الآخرة؟!

ألقيتُ بنفسي ساجداً ودموعي جارية وقلبـــي منكســـرا وأملـــي منقطعا من كل شيء سوى الله, وقرأتُ كلمات كثيراً ما ترددت على لساني في الدنيا:

ـ (يا الهي وسيدي وربي أتراك معذبي بنارك بعد توحيـــدك, وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك, ولهج به لساني من ذكـــرك واعتقده ضميري من حبك, وبعد صدق اعترافي ودعـــائي خاضـــعاً لربوبيتك)[١].

اجتمع الملائكة حولي, وأخذتهم الحيرة من أمري فهم لا يعلمون ماذا يجب عليهم فعله، أراد أحدهم الدنو مني، لعله يتمكن من إقناعي بالذهاب، لكني لم أبال بهم, وكنت غارقاً في عالمٍ أخـــر, فـــي عـــالم عشق الله وشوق لقاءه...

أحسست بقدرة وجرأة اكبر على مناجاة ربي فدعوته قائلا:

ـ (الهي وسيدي وعزتك وجلالـــك لـــئن طـــالبتني بـــذنوبي لاطالبنك بعفوك, ولئن طالبتني بلـــؤمي لاطالبنـــك بكرمـــك, ولـــئن أدخلتني النار لأخبرن أهل النار بحبي لك)[٢].

كان بعضهم يقول لا يمكن لنا إجباره على مغادرة المكان، انـــه إنسان مؤمن وفي حال مناجاةٍ لله تعالى، ولو لم يكن مؤمناً لما أجـــاز الله له ذلك، إذن علينا الانتظار حتى يأتي أمرٌ من الجليل الأعلى.

---

[١]* مقتطف من دعاء كميل.

[١]* مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي.

ازددتُ شوقاً إلى لقاء ربي ومرضاته, وأحسستُ بانقلاب عظيم في نفسي, حتى بدأتُ اشعر أن حاجتي إلى الله تغيــرت وتجــاوزت حدود الخلاص من عذاب سنة أخرى، وأصبحتُ اطلب النجــاة مــن عذاب فراق ربي[1], فدعوته مردداً:

ــ (الهي هبني صبرتُ على عذابك فكيف اصبر على فراقــك, وهبني صبرتُ على حر نارك فكيف اصبر عن النظر إلى كرامتك, أم كيف اسكن في النار ورجائي عفوك, فبعزتك يا مولاي اقسم صادقاً لان تركتني ناطقاً لأضجّن إليك بين أهلها ضجيج الآملين, ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين, ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين, ولأناديـنّــك أين كنت يا ولي المؤمنين...)[2]

ازدادت حيرة الملائكة حولي, وتركوني بحالي ابكي وأنـــاجي، وبينما أنا بهذه الحال وإذا بي اســـمع صوت ملك اقبل علينـــا وهـــو ينادي:

ــ اتركوه قد انتهى عذابه وعُفي عنه, قد جعل الله نفسه شـــفيعاً إليه.

---

[1]* ان نقاء الإنسان وتطهره من الذنوب يؤدي الى قرب المقام من الله تعالى, وكلما كانت درجة النقاء اكبر كان القرب اعظم حتى يصل الى مرتبة العشق والشوق الى الله, وقد حلّق الامام علي (ع) في فضاء تلك المرتبة وهو لم يزل في عالم الدنيا, وذلك يبدو واضحا في هذا المقطع مـــن دعائه المعروف بدعاء كميل.

[2]* مقتطف من دعاء كميل.

اقترب منا اكثر حتى وصل إلينا وأنا انظر إليه مبهــوراً, غيــر مصدّق لما أرى. لقد كان وجه ذلك الملــك يشــع بــالنور الســاطع والجمال الباهر ويبشّر بالخير لمن يراه، ضمّني بجناحيه وقال:

ـ إن الجليل الأعلى يبلغك السلام ويقول: عبدي إنني ما تخليتُ عنك, ولا طردتك من رحمتي، لكنك كنتَ تقترب مني مــرةً وتبتعــد أخرى, وأنا دائماً أناديك وأدعوك بالتقرب والزلفى لدي، أما عــذابك في جهنم فهو لروحك تزكية ونقاء كي تعيش حياة الأبــد طــاهراً لا يحجبك عني شيء.

بكيتُ بكاءً شديداً عندما سمعتُ كلام الملك وخطــاب الجليــل, وصعقتُ صعقةً غشيتُ على أثرها, فلم اعد أرى ولا اسمع ولا اشعر بشيء, وغرقتُ في إغماء عميق وعميق...

الفصل السادس :

عودةٌ للأحباء

كان لقائي مع أول حبيب لي وأنا في أحضـــانه, انـــه عملـــي الصالح الذي عندما أفقتُ وفتحتُ عيني, أطلّت علي إشراقته المنيـــرة وابتسامته اللطيفة.

قال بصوته العذب:

ــ كيف حالك يا سعيد, احمد الله على ســـلامتك, مـــدة طويلـــة مضت وأنا أسعى لخلاصك من المأزق الذي وقعتَ فيه, ولنجاتك من بلايا أعمالك السيئة.

لم اصدق ما أرى, هل هو حقيقة أم إنني أعيش في عالم الـــوهم والخيال؟ بقيتُ حيرانا انظر إليه أُغلق عيني مرة وافتحهـــا أخـــرى, فبادرني بكلامه مرة ثانية:

ــ سعيد أنا عملك الصالح, أنا رفيقك وهاديك, هل نسيت لقـــائي معك قبل ثلاثين عاما؟

بدأ يمسح دموعي الجارية فرحاً للقائه, إنها دموع لقاء الحبيـــب لحبيبه, لقاء المشتاق إلى من اشتقتُ إليـــه سنين وســـنين, قلـــتُ لـــه معاتبا:

ــ أين كنتَ طوال هذه المدة, أنسيتَ وعدك لي فـــي مرافقتـــي والدفاع عني عند الشدائد والبلايا؟ لقد قضيتُ أقسى وأمرّ العذاب, وما كان لك حضور معي لتواسيني على مصائبي, أو تخفف عني آلامي.

ــ إنني لم أتخل عنك أبدا, وسعيتُ جاهدا طـــوال هـــذه المـــدة لنجاتك إذ كان لي علم بما تعانيه, وأول عمل أنجزته لك هو إيصـــال

خبر إلى ابنك مرتضى في المنام بأن والده يتعذب بسبب أن عليه دَين سابق إلى صديق له اسمه احمد لم يؤدّه إليه. وفي اليوم التالي ذهب مرتضى إلى العنوان الذي أُعطي له, فوجد الرجل قد توفى حديثا, لذلك أعطى المبلغ المطلوب إلى ابنه الأكبر, واخبره بما جرى وبالرؤيا في منامه بشأن والده, وطلب منه براءة ذمة تأخير هذا المبلغ, وقد رأيتَ اثر هذا العمل بفرار العقرب العالق من قدمك, أليس كذلك؟

ـ آه, الآن فهمتُ سبب فرار العقرب, جزاك الله عني خير الجزاء، لقد كان يؤذيني كثيراً بشوكته, لا أعاده الله لي.

ـ كما إنني فرحتُ كثيراً عندما علمتُ بهدية مرتضى إليك, ومنذ ذلك الوقت سعيتُ بكل وجودي لخلاصك الأخير من جهنم حتى تمكنتُ من الحصول على إجازة الجليل الأعلى بمناجاته والتضرع إليه, ومن ثُم إذنه تعالى بنجاتك وإخراجك من نار البرزخ, ولم اترك هذا الأمر حتى أوصلتك إلى المكان الذي أنت فيه الآن, كما إنني هيأتُ لك دار استقرارك ومحل سكناك في الجنان التي سوف نرحل إليها بعد ثلاثة أيام[1].

ـ لا اعلم كيف أشكرك، جزاك الله عني خير الجزاء.

---

[1]* أمالي المفيد / ص١٩٥: (... قال: سمعتُ أبا عبد الله جعفر بن محمد صلوات الله عليهما يقول: إن العمل الصالح ليذهب إلى الجنة فيمهد لصاحبه كما يبعث الرجل غلامه فيفرش له, ثم قرأ: وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلأنفسهم يمهدون).

ـ لا تنسى أني خلاصة أعمالك الصالحة, وكل مـــا اســـتكثرتَ منها في الدنيا كانت قدرتي علـــى الدفاع عنك أكبر, وجـــاهي عنـــد الملأ الأعلى أعظم.

بينما كنا نتحدث وإذا بثلاثة وجوه منيرة أقبلت علينـــا، اقتربـــت أكثر وأكثر فتمعنتُ فيها وإذا بها نفـــس الكائنـــات النورانيـــة التـــي اجتمعت حولي في القبر، أنها الولاية والصـــلاة والصـــوم, جـــاءوا ليباركوا لي نجاتي وخلاصي من نـــار البـــرزخ, اجتمعـــوا حـــولي وتذكرتُ اجتماعهم أيام القبر الأولى ووعدهم لي باللقاء مرة أخـــرى, كما إنهم وعدوني بعد التهنئة والتبريك بإقامة حفل بهذه المناسبة فـــي الأيام القادمة.

بقينا ثلاثة أيام في هذا المكان الذي كان بمثابة محطة اســـتراحة مؤقتة, وقد توافدت خلالها وفود عديدة من الأنس والملائكة لتهنئتـــي بمناسبة الخلاص من عذاب البرزخ.

انقضت الأيام الثلاثة فأخبرني عملي الصالح بأنـــه اســـتلم الإذن بمغادرة المكان والانتقال إلى وادي السلام[١], حيـــث هنـــاك مســـتقر المؤمنين, وجنات عدن التي وعد الله عباده المتقين.

تهيأنا للسفر وسألتُ صاحبي عن كيفية الذهاب فقال:

---

[١]* بحار الأنوار / ج٩ / ص٢٣٣ : (وروي عن أبي عبد الله (ع) انه قال : ما من مؤمن يموت في شرق الأرض وغربها إلا وحشر الله روحه إلى وادي السلام).

ــ هناك دابة سوف تأتينا لنستقر على ظهرها ونرحل.

جاءت الدابة وبدأنا الرحيل أنا وعملي, إذ لا رفيق لي غيره, ولا أنيس لي سواه...

سألته في الطريق عن مسائل عدة منها عن جبل النار فقال:

ــ إن جبل النار هو تجسّم لصفة التكبر عند الإنسان, وهو الذي قال عنه الله تعالى في كتابه (**سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا**)[١], ويحوي على أنواع من العذاب هي تجسّمات لآثار ذلك التكبر. كما إن درجة العذاب فيه تختلف من شخص إلى آخر تبعا لدرجة تكبره ومعاصيه حتى تصل إلى المتكبرين على الله تعالى, وأما ما كان مقررا لك فهو أدنى درجاته.

ــ وماذا عن الوحوش المفترسة الجائعة في الوادي المظلم المعتم بعد جبل النار؟

ــ إنها حالات الغضب التي كانت تعتريك, وتجعلك كالوحش المفترس لمن تغضب عليه, إذ كنت تنحّي عقلك جانبا, ويغمرك ظلام الجهل المعتم الذي لا يسمح لك بالنظر إلى من تغضب عليه إلا بمنظار سَورة الغضب الضيقة.

أستمر بنا الحديث ونحن محلّقين على الدابة التي كانت تسير بسرعة لا توصف, أظن أن سرعتها كانت تفوق سرعة الضوء،

---

*[١] قرآن / المدثر /١٧

والعجيب أننا كنا لا نشعر بتلك السرعة والاحتكاك مع الهواء وكأننــا في طائرة مغلقة مكيّفة!

كان يغمرني شوق كبير لرؤية جنان البرزخ التي كثيرا ما قرأتُ عنها في الدنيا، وشوقي للقاء أحبتي كان اكبر، تذكرتُ والدي ووالدتي وأهلي وزوجتي، لا ادري أين مستقرهم الآن, وهل نجوا كما نجوتُ, أم لا زالوا...

بينما كنت غارقاً في عالم الفكر والخيال, وإذا برائحــة عطــرة عذبة تغمر مشامي وتخرجني من عالم فكري. نظرتُ لمــا حــولي فرأيتُ خضرة واسعة ليس لها حدود. لم تمض دقائق حتــى توقفنــا عندها واستقرت أقدامنا فوقها. اســتأذنتْ الدابــة للــذهاب, وحلّقــت بجناحيها الشفافين إلى حيث يشاء الله لها.

قال عملي وقد أشار إلى أحدى الجهات:

ـ لنترجّل قليلاً إلى تلك الأشجار المثمرة حيث هناك نهر مــاء عذب وثمار مختلفة.

ذهبنا وأكلنا من أنواع الفواكه التي لا عين في الــدنيا رأت ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر، كانت من الألوان بما لا تُعــد, ومن الطعم بما لا يوصف, ومن الرائحة بما لا يرغب من يشمّها أن يبتعد عنها ويفارقها.

قال عملي:

ــ إن هذا الذي تراه هو مقدمــة لجنان البرزخ ومــا ينتظــرك اكبر واكبر.

ــ وماذا عن جنان الخُلد بعد يوم القيامة؟

ــ أما نعيم جنان الخلد فلا أستطيع وصفه لك الآن لأنــك لــن تستطيع أن تتخيل أو تتصور ما أقوله لك، ولكن اعلم أن كل ما تراه من جنة ونعيم وثمار واشجار وحور وانهار ولذة في عالم البــرزخ, إنما هي صورة وانعكاس لحقيقة النعيم والجنان والحــور والأنهــار واللذات في عالم الأبد بعد الحشر والحساب.

ــ وهل تعني أننا نعيش الآن في عالم الظل والخيال؟

ــ كلا، ولكن أقصد أن درجة الإحساس بلذات عالم البرزخ لــو قارنتها مع عالم الأبد, لكان الفرق بينهما كالفرق بين لــذتك عنــدما تنظر إلى صورة معلّقة على جدار وتحوي منظرا جميلا فيه جبــال وشلالات وورود جذابة, وبين لذتك عندما تذهب إلى مكــان ذلـــك المنظر, وتعيش فيه بروحك وبدنك[1].

---

[1]* هناك فرق وتباين درجات بين عالم البرزخ وعالم القيامة, منها مايلي: (١) في البرزخ تعيش الأرواح بأبدان لطيفة شفافة, وتأخذ أشكالها الدنيوية ولكن في قالب مثالي, بينما في عالم القيامــة يكون هناك معاد جسماني وروحي. (٢) في عالم البرزخ يوجد زمان وليل ونهار ومدته محدودة, بينما في عالم القيامة لا يوجد ليل ونهار ومدته غير متناهية, فهو عالم ابدي. (٣) يمكن لــبعض المؤمنين الترقي في عالم البرزخ بواسطة الآثار المستمرة لأعمالهم الحسنة, والتي تركوها فــي عالم الدنيا, بينما لا يكون ذلك في القيامة الكبرى. (٤) في عالم البرزخ هناك حساب وجزاء أولي

اقبل علينا ملك في غاية الجمال فسلّم علينا وقال:

ــ لقد أتيتُ لكما بالإذن لدخول وادي السلام، تعالوا معي.

ــ سألته مستغرباً:

ــ وأين هو وادي السلام؟

ــ انتم الآن على مشارفه, تقدموا قليلاً.

تقدمنا خطوة بعد خطوة وقدما بعد قدم, فإذا بباب عظيمة شــفافة وقد اصطفت الملائكة عن يمينها ويسارها وهم ينتظرون قدومنا.

تقدمنا نحوهم, واقتربنا منهم فسمعنا أولهم يقول: ﴿ **تِلْكَ الجَنّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا** ﴾[1]

تقدمنا أكثر فقال آخرهم: ﴿ **ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ** ﴾[2]

دخلتُ أنا وعملي بسم الله الرحمن الرحيم... يا الهي ماذا أرى! أهو حقيقة أم خيال؟ ما هذه الخضرة الواسعة المطعّمة بأجمل الألوان، يا لسعتها وجمالها، وما هذه الأشجار والبساتين الرائعة، ومــا هــذه الأنهار الجارية والأنوار المضيئة، ومن هؤلاء الجالســين مجــاميع

للأعمال وتجسم لها بصورة جزئية, بينما في عالم القيامة يكون تجسم للأعمال بصــورة كاملــة, وفيه حساب دقيق للغاية واستيفاء كامل لجزائها.

[2]* مريم /٦٣

[1]* الحجر /٤٦

مجاميع ووجوههم تشع نوراً وبهاءً, يبدو أنهم من جنس البشر، نعــم إنهم سكان جنان البرزخ جالسين مجتمعين[١]، ليتني اصل إليهم فأسألهم عن أهلي وأحبتي. أردتُ التحرك نحوهم ولكني تذكرتُ أني جديــــد العهد هنا, لذا سألتُ الملك المرافق لي:

ــ ماذا نفعل الآن؟

قال:

ــ علينا أن ننتظر حتى يأتي أمر الله.

سمعتُ اسم الله فأحسستُ بحب عظيم له وشوق للقائه, ورغبــة في رضوانه, وتذكرتُ الآية الكريمة ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِـكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[٢] فقلتُ في نفسي ليتني اصل إلى رضــوان الله، وهل صحيح انه اكبر من كل هذه الجنان والنعيم والصفاء؟! تــرددتُ في سؤال الملك ثم تجرأتُ بقولي له:

ــ هل يمكن لي الوصول إلى رضوان الله؟

قال:

---

[٢]* الذكرى للشهيد الأول / ص٧٨ : (وفي الكافي بإسناده إلى حبة العرني قال: خرجتُ مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر, فوقف بوادي السلام كأنه مخاطبا لأقوام .... فقال: يا حبــة إن هو إلا محادثة مؤمن أو مؤانسته, ولو كشفت لك الغطاء لرأيتهم حلقا حلقا يتحادثون, فقلتُ: أجساد أم أرواح؟ فقال: أرواح, وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه الحقــي بوادي السلام وإنها لبقعة من جنة عدن).

[١]* التوبة / ٧٢

ـ إن رضوان الله ليس بالشيء المستقل عن جنان البرزخ حتى تصل إليه، فهو يرافق وجودك ويمنحك السعادة والطمأنينة في تلك الجنان, وتختلف درجته باختلاف منزلة العبد ومقامه.

سُررتُ كثيراً عندما رأيتُ الدابة التي أتت بنا قد عادت بشكلها الجذاب ونورها المشع وابتسامتها البهية, وعندما وصلت إلينا قالت:

ـ اركبوا بسم الله مجراها ومرساها.

قلتُ لها:

ـ بالله عليكِ اخبريني من أنتِ؟

قالت:

ـ أنا تجسم مساعداتك للناس وقضائك حوائج المؤمنين في الدنيا، وقد خلقني الله لأقضي حوائجك وأكون وسيلة تنقلاتك في عالم البرزخ.

ـ وكيف أستدعيكِ عند الحاجة إليكِ؟

ـ إن من خلقني أودع لدي القدرة على الحضور أمامك بمجرد حصول نية استدعائك لي.

انطلقتْ بنا وحلقت فوق الجنان وأي جنان! قلتُ لعملي:

ـ إلى أين المقصد هذه المرة؟

قال:

ـ إلى مسكنك البرزخي, إلى مثواك ومقرك الذي طالما كان في انتظارك، إلى ما غرسته في الدنيا ونما لك في الآخرة، إلى

﴿ **جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتي وَعَدَ الْرَّحْمَنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأتِيًّا** ﴾[1]

لحظات لا توصف, ومشاعر لا تقاس بشيء وأنا في طريقي إلى ما وعدني به ربي...

قال عملي:

ــ لدي ما يسرّك أكثر، هل أخبرك به؟

ــ نعم, وهل هناك من لا يرغب في سماع ما يسرّه.

ــ اعلم أن الإنسان الذي يدخل السرور في قلوب المؤمنين سوف يخلق الله له من يسره في الآخرة[2], وهذا المخلوق ستلاقيه وقد اعد لك الكثير مما تقرّ به عينك.

ــ وهل تعلم ماذا أعدّ لي؟

ــ إن المستقبل سوف يكشف لك ذلك...

---

[1]* مريم /٦١

[2]* الكافي / ج٢ / ص١٨٩: (عن أبي عبد الله (ع) قال: من ادخل على مؤمن سرورا خلق الله عز وجل من ذلك السرور خلقا عند موته فيقول له ابشر يا ولي الله بكرامة من الله ورضوان ... ثم لا يزال معه عند كل هول يبشره ويقول له مثل ذلك فيقول له من أنت رحمك الله فيقول أنا السرور الذي أدخلته على فلان).

الفصل السابع :

حورٌ وجنان

كان أول من استقبلني واحتضنني في قصـــري الجديـــد هـــي زوجتي، نعم إنها زوجتي في عالم البرزخ, إنها الحور العين التي قال عنها الله تعالى في كتابه العزيز (**حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**)[١], كانت غاية في جمال لا يوصف, وبما يفوق أن يُقاس بجمـــال نســـاء أهل الدنيا، كان وجهها يشع نوراً فهو برّاق كبريق اللؤلؤ, وصـــاف كصفاء الياقوت، أما شعرها فقد تدلّى بعض منه إلى خلفهـــا وفـــوق أكتافها, وبعض منه على صدرها المملوء بـــاللؤلؤ اللمـــاع والحلـــي الذهبية البراقة التي كانـــت تعطي بحركتها نغمات لطيفة. أما بـــدنها فهو خال من كل عيب, وله نقاوة وصفاء لدرجة كنتُ أرى صورتي خلال أجزائه البارزة من ثيابها الشفافة والتي كانت تتغيـــر ألوانهـــا وعطرها بين الحين والآخر، إنها ثياب إستبرق وحرير شفاف...

أما كلامها فعذب لا توصف عذوبته, ولا يمل منـــه ســـامعه, إذ كنتُ اطرب لحديثها, ولا أتمنى سكوتها, وكأني اسمع أنغاماً موسيقيةً رائعة منسجمة بشكل كامل مع أنغام الحلي ورنينه, ولا أبالغ لو قلتُ أن جمالها يحير العقول, ولا طاقة لأهل الدنيا على رؤيتها, ولو أنهـــا طلعت على عالم الدنيا لطغى نورها على نور الشمس المشرقة[٢]...

---

[١]* الرحمن / ٧٢

[٢]* ذكر الشهيد عبد الحسين دستغيب في كتاب الدار الآخرة روايات تقول: (لو أن حورية جاءت إلى هذا العالم لطغى نورها على نور الشمس ...ولو أن قطرة من لعاب حوريـــة ســـقطت فـــي

استقبلتني عند أول قدم لي في القصر، فأقبلتْ مبتســمة مشــرقة يضيء نورها معها أينما ذهبت، تركت وصيفاتها وجواريها وخدمها خلفها وأقبلت نحوي, فبدأت تقترب مني شيئاً فشيئاً حتى وصلتني.

لحظات لا تُنسى ومشاعر لا توصف وهي تقف أمامي بجمالهــا الساحر ونورها المشع الهادئ, قلتُ لها:

ــ من أنتِ؟

قالت:

ــ أنا زوجتك المقترحة في عالم البرزخ، اشتقتُ إليك كثيراً دون أن أراك, وقد خيرني ربي في اختيار زوج لي, فقلــتُ الخيــر مــا اخترتَه لي، وها أنتَ أمامي قد بهرنــي جمالــك الســاحر وهيبتــك العظيمة، فحمدتُ الله على اختياره, وشكرته على امتنانه.

قلتُ لها:

ــ نِعمَ الرب ربنا, وسبحان الذي خلقنا, فان الخير كله منه وإليه, وقد رضيتُ برضاه واحمده على اختياره, واشكره على امتنانه.

عانقتها وضممتها إلى صدري فأحسســتُ بســكون وطمأنينــة عظيمة ولذة قصوى...

دخلتُ القصر معها وأي قصر كان! كانت لبنتــه بعضــها مــن الذهب الخالص وأخرى من الفضة, أما سقفه وطلاؤه فكان من مــواد

البحار المالحة لأصبح مائها عذبا, ولو أن ثوبا من ثياب الحور أتى به لهذا العالم لأغمي علــى الناس جميعا)

غريبة عجيبة سألتُ عنها فكان الجـواب أن السـقف مـن الزمـرد والطلاء من الياقوت. أما أرضيته فكانت بعضها مفروشة بمواد أشبه بالزجاج المطعّم بأنواع أحجار ما رأيتُ مثلها ولا سمعتُ مـن قبـل عنها.

تجولنا في القصر فلم أرَ له حدودا ينتهي بها، قلتُ لها:

ــ ما اعظم هذا القصر!

قالت:

ــ إن مواده ولبنته التي تراها هي أعمالنا الحسنة قـد تجسـمت بهذه الأشكال, فكونت قصراً بهذه العظمة.

تحيرتُ في أمرها وجوابها وتساءلتُ في نفسي: أيكـون لـديها أعمال حسنة وسيئة مثلي؟! قلتُ لها مستغربا:

ــ ما اسمكِ؟

قالت:

ــ اسمي سناء.

ــ انه من أسماء الدنيا، أليس كذلك؟

ــ نعم.

ــ وهل أنتِ من صنف البشر؟

ــ نعم.

ــ وفي أي بقعة من الأرض كنتِ؟

ــ في ارض تركيا.

ــ لكني أراك تتكلمين العربية!

ــ نعم, إن روح الإنسان لها قدرات فائقة أودعها الله فيها, فــإذا تحررت من بدنها المادي ظهرت تلك القدرات, ومنها التكلم بجميــع اللغات حتى لو لم يكن الإنسان يجيدها, بل لم يكن يعرفها في عــالم الدنيا[١].

ــ اخبريني بالله عليكِ ما قصّتك؟

قالت:

ــ كنتُ امرأةً مؤمنةً بالله, راضيةً بقضائه, شاكرةً لنعمائه رغــم وجود عاهة في بدني والتي منعتني من الزواج في الــدنيا، وعنــدما علمتُ أن لا سبيل لشفائي، أصبحت الدنيا لا شيء عندي, وتوجهــتُ بجوارحي وجوانحي إلى آخرتي, فتخلقتُ بأخلاق الإسلام, وتقربــتُ إلى ربي العلاّم, وتيقنتُ أني خُلقتُ لغيــر عــالمي, وأصــبحتُ أرى روحي اعظم من بدني, فحررتها من قيوده, وحلّقتُ بها إلــى عــالم الملكوت, فدخلتُ جنتي وأنا في دنياي, وشعرتُ بسعادة عظيمة قبــل مماتي حتى توفاني ربي, وأنجز لي وعده فيما حُرمتُ منه, وها أنــذا معك بتمام العافية وعظيم الراحة في جنات عدن التي وعد الله عباده المتقين.

---

[١]* بحار الأنوار / ج١١ / ص٥٦: (...وكان لسان آدم العربية وهو لسان أهــل الجنــة ...) . وهناك شواهد تجريبية في عصرنا الحالي تحكي عن حالات التنويم المغناطيسي, إذ يمكن لروح النائم بهذه الطريقة أن تتحدث بلغات مختلفة حتى التي لم تعرفها سابقا.

ـ إنني أرى جمالكِ يفوق جمال حور العين التي رأيتها في طريقي إلى هنا, فهل ترين في شخصي ما يناسب جمالكِ وكمالكِ الذي أراه؟

ـ نعم إنني أرى فيكَ ذلك. انكَ الآن بأكمل هيأة, وأجمل صورة, فجمالكَ عظيم يفوق جمال يوسف الذي كنا نسمع عنه[1], ونورك يسعى بين يديك ليعطيك بهاءً اكبر وكمالاً أعظم.

ـ آه, إنني لم اكن اعلم بذلك حتى سمعتُ كلامكِ هذا.

قالت:

ـ ليس هذا فقط, بل كل ما أحاط بهذا القصر من حدائق خلابة وبساتين جذابة, وكل ما فيها من خدم وجواري هو لك، كما إن هناك قصورا وحدائق عظيمة أخرى في أماكن غير التي أنت فيها الآن، ويمكنك الذهاب إليها في أي وقت تشاء.

استمر بنا الحديث طويلاً أحسستُ خلاله بسعادة عظيمة ولذة فائقة, وكانت الأطباق تأتينا بين الحين والآخر بأيدي الولدان المخلدين الذين كانوا يطوفون علينا فهم كاللؤلؤ المنثور[2], وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين, ليزيد ذلك من اجتماعنا وحديثنا صفاءً اكثر ولذة أعظم.

---

*[1] روضة الواعظين / ص٥٠٥ : (قال صلى الله عليه وآله : والذي انزل الكتاب على محمد إن أهل الجنة ليزدادون جمالا وحسنا ...).

*[2] الإنسان /١٩: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُورا ﴾.

تجولنا في الحدائق المحيطة بالقصر, وكانت الأشـــجار تبادرنـــا بالسلام, وتدعونا لتناول ثمارها, وقد كان بلاط تلــك الأشـــجار مــن الياقوت وترابها من المسك الأبيض وسقيها من الزنجبيــل والعســل, وعشبها من الزعفران, وظلها مجالس لأهل الجنــة وخــدمها. أمــا الورود الملونة فكانت تستقبلنا بأنغامها العذبة, ورائحتهــا العطــرة, وتنحني لنا كلما اقتربنا منها. وأما الطيور فكانت تحوم في فضاء تلك الحدائق, وتنتقل بين غصن وآخر لتعطي جمالاً اكثر بألوانها, ونغمة لطيفة بتغاريدها.

تقدمنا أكثر فرأينا نهراً يجري فيه ماء زلال يُشاهَد مــن خلالــه قعره الذي يبدو انه من الياقوت الأحمر, وحصاه من الــدر واللؤلــؤ, وقد وقفت على جوانبه جَواري تحمل كل منهــا كأســاً مــن مائــه, وتدعونا بصوتها العذب للشرب منه.

تقدمنا أكثر فرأينا نهراً آخر من لبن بياضه كبياض الثلج, يجري من مرتفع إلى منخفض ليكوّن شلالاً تقف الجواري علــى جانبيــه, وتملأ الكأس منه لتعرضه علينا علّنا نتناول منها.

قالت سناء:

ــ وهناك نهر آخر أمامنا وهو من عسل مصفّى[١], هــل تحــب الذهاب إليه؟

ــ لنترك الذهاب إليه ومشاهدته إلى وقت آخر.

كانت هناك أمكنة للجلوس على حافة النهر, وعندما وصلنا إليها جلسنا قليلاً لنشاهد تلك المناظر والحدائق الخلابة ونتناول شيئاً منها، وبمجرد أن نوينا لحم طير مشوي سمعنا نداءً لأحد طيور الجنة مــن على غصن فيها وهو يقول بصوت جميل:

ــ أنا طير خلقني الله في الجنة, وليس في الجنة عين إلا شربتُ منها, ولا فاكهة إلا أكلتُ منها, ولحمي من هذه العيون والثمار فهــل تشتهيا الأكل منه؟

أجبته قائلا مستغربا:

ــ نعم.

وما أن قلتُ ذلك حتى رأيته ألقى بنفسه أمامنا وخفق بجناحيه ثم خرج من كل ريشة منه قطعة لحم. نظرتُ إلى سناء وقلتُ لها:

ــ تفضلي بسم الله, هذا من فضل الله.

ولما انتهينا من تناول ذلك اللحم فوجئنا بعودة الطائر إلى حالتــه الأولى, إذ رفرف بجناحيه وعاد إلى غصنه مرة أخرى.

---

[١]* محمد /١٥ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾.

قلتُ لسناء:

ــ هل كنتِ تتوقعين الحصول على ما تشاهدينه الآن؟

ــ نعم, ولكن كان توقعي بما يناسب تصوراتي المادية في الدنيا, أما ما أشاهده الآن فهو يفوق تلك التصورات جميعها, ورأيتُ أشـــياءً ما كان بالإمكان تخيلها في عالم الدنيا.

ــ العجيب يا عزيزتي انهم يقولون: إن ما نشاهده الآن في عالم البرزخ ليس إلا انعكاسا لحقيقةٍ في عالم الأبد, والبرزخ قطـــرة مـــن بحر عالم الخلود...

الفصل الثامن :

شوقٌ ولقاء

اقبل علينا شخص يبدو من شكله انه ليس من الخدم والجواري, وتظهر عليه ابتسامات لطيفة، استأذن منّا وبادرنا بالسلام وقال:

ــ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

أجبناه معاً وبصوت واحد:

ــ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

سألته من يكون, فقال :

ــ أنا السرور الذي أدخلته في قلوب المؤمنين..

قاطعته مسروراً:

ــ نعم نعم, اخبرَني عملي الصالح أنــي ســألاقيك، وان لــديك مفاجئات سارة قد أعددتها لي.

ــ صحيح ما أخبرَك به.

ــ وأين مفاجئاتك؟

أشار إلى سناء وقال:

ــ زوجة من الخيرات الحسان ألم تُدخل السرور في قلبك؟

ــ كيف لا, بل غمرتني فرحة وسرورا لا حدود لهمــا، ولكــن اخبرني ما دورك بذلك الأمر؟

قال:

ــ كنتُ أنا الوسيط بينكما, وقد سعيتُ بهذا الأمر منــذ نجاتــك وخلاصك من تبعات ملكاتك وأعمالك السيئة.

توقف قليلا ثم ابتسم وقال:

ــ ولَدَي أمر آخر يسرك كثيراً.

ــ قل لي بالله عليك ما هذا الأمر الذي يسرني كثيراً؟

ــ سوف يزورك في قصرك بعد ثلاثة أيام شخص عزيز عليك, قد كان لك في الدنيا سنداً وهادياً, وهو الآن في مقامات عالية اعظم من مقامك الذي أنتَ فيه, فهو يتمكن من زيارتك بينما أنت لا تستطيع ذلك إلا للأشخاص الذين هم أدنى منك.

غمرتني فرحة كبيرة بسماع هذا الخبر خالطتها حيرة في من سيكون هذا الزائر! طلبتُ من سرور أن يخبرني باسمه فأبى إلا أن يجعلها مفاجأة لي في يوم اللقاء مما زاد الطين بلّة والحيرة حيرة.

سالتُ سرور:

ــ كيف تمكنتَ من تهيئة هذا الأمر كله؟

ــ إن خدمتك لضيوفك في الدنيا وسعيك لتوفير كل الراحة لهم بما يسرهم ويزيل عنهم أتعاب السفر وعناء الطريق كانت خالصة لله, وقد تجسّم عملك هذا بهيئة قوة مكنتني من هذا الأمر.

مضت ثلاثة أيام وجاء اليوم الموعود. كان كل من في القصر متهيئاً لساعة اللقاء ومتشوقاً لرؤية الضيوف الكرام, ويبدو على سكان القصر نشاط دؤوب وحركة كبرى بعدما عرف كل منهم دوره وواجبه, وترى الواحد منهم يبشّر الآخر ويحثه على العمل, فقلتُ في نفسي عجباً! يبدو أن الجواري والخدم فرحون اكثر منا بقدوم الزائر، أما وصيفات سناء فقد اجتمعن حولها فالبسنها أنواعا جديدة بديعة من

الحلي والأساور وملابس جذابة بألوان براقة, فزادها جمالاً وكمـــالاً فوق جمالها وكمالها.

اقترب الموعد وبلغ التهيؤ لاستقبال الزائر ذروته وحان اللقـــاء، نعم إنها علامات تدل على قدومه, فها هي جنتي تزداد نـــوراً فـــوق نورها، وها هي الطيور زادت من تغاريدها, والورود مـــن ألوانهـــا وروائحها, والأشجار من ثمارها...

اقبل الزائر والنور يسعى بين يديـــه, والبســـمة علـــى شـــفتيه, والملائكة تحفه يميناً وشمالا، عانقني وضمني إلى صدره وقال:

ــ هل وجدتَ ما وعدك ربك حقاً يا سعيد؟

أجبته ودموعي جارية لفرحة لقائه:

ــ نعم وجدتُ ما وعدني ربي حقاً وزيادة يا مؤمن.

اجل انه صديقي مؤمن الذي كنـــتُ أتمنـــى رؤيتـــه, وأتخيـــل ابتسامته, وطالما تذكرتُ نصائحه لي في الدنيا والتـــي كلمـــا رأيـــتُ آثارها في الآخرة ازددتُ شوقا إليه ورغبة في لقائه.

علم أني قد عرفته فضمني إلى صدره مرة أخرى وقال:

ــ يبدو انك ما زلتَ تذكرني يا سعيد.

قلتُ له:

ــ كيف أنساك يا مؤمن وقد تربيتُ على يديك, فكنـــتَ تســـهر الليالي من اجلي, وتتحمل العناء في تعليمي مفـــاهيم دينـــي وأحكـــام إسلامي. أنت الذي وضعتَ وردة الإسلام في يدي وسقيتها حتى نمت

وترعرعت ودخلت في قلبي, فأصبحت جزءاً لا ينفصل من حيـــاتي.
أنت يا مؤمن كنتَ نورا استضيء به في ظلمات الــدنيا وشـــبهاتها, واستعين به من الزلق والمتاهات, كنتُ اقتبس منك نورا فـــي عـــالم الفناء فكيف يزول عن قلبي شوق لقائك في عالم البقاء...

رواية من عالم لا يفنى :

(الجزء الثاني)

في أمواج

القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(الزمر :٦٧)

فهرس الجزء الثاني : ......

الفصل الأول :

ألوانٌ مضطربة

أفِقِ من نومك يا سعيد، أما علمتَ باقتراب قيام الساعة والقيامة الكبرى؟ كيف تنام رغدا في جنان البرزخ، وبين أحضان الحور، وقد تحقق أول شرط من أشراطها!

نداءٌ هزّ كياني كله ولم أكن نائما، بل غارقاً في بحر من الفكر، سابحاً في أمواج ذكريات عالمٍ مضى، عالم الدنيا الذي انقضى وكأنه لم يكن إلا ساعة، أو أقل الساعة.

كنتُ أتذكر لحظات الموت، وكيف انتقلتُ من عالم الضيق والفناء، إلى الوسعة والبقاء... كنتُ أتذكر أيام البرزخ التي قضيتها، ومراحل العذاب والنعيم فيه، وها هي آلاف من السنين مضت وتمضي والجميع بانتظار القيامة الكبرى!

كانت فرائصي تضطرب وخوفي يتعاظم كلما مرّ على فكري أمر القيامة والحساب، برغم أني أعيش في جنات ونعيم عالم البرزخ[١]، وبرغم القصور والبساتين، والحور والخدم من الملائكة الذين سخرهم ربي لخدمتي، وليس لديهم شغل شاغل غير ذلك.

مرّت سنين وسنين، وكلما تحقق شرط من أشراط قيام الساعة في عالم الدنيا، تحدث ضجة كبرى بين سكان عالم البرزخ، وترى

---

[١]* عالم البرزخ هو الفترة التي تتوسط بين عالم الدنيا وعالم القيامة الكبرى، وهو أرقى درجة من الدنيا وأدنى من القيامة. تعيش فيه أرواح الأموات بأبدان لطيفة شفافة، ويكون فيه ثواب وعقاب جزئي على الأعمال والعقائد والملكات، حينها إما أن يعيش الإنسان فيه داخل جنة ونعيم أو في عذاب نار اليم.

الخوف والاضطراب يغمرهم، وكثير منهم (حتى أصحاب الدرجات العالية) كانوا يعيشون حالة بين الخوف من الساعة والحساب، وبين الرجاء بالنجاة من أهوال ذلك اليوم العظيم.

مرّت الأيام، وتشابكت الأحداث، وسالت دماء كثيرة على الأرض حتى غيّرت لون أنهارها، بل أصبح اللون الأحمر هو السائد فيها...

أحسستُ بيقين لا يخالطه الشك بأن الساعة آتية عن قريب ولا ريب فيها، خصوصا بعد أن كسفت الشمس في وسط رمضان، وخسف القمر في آخره[1]، وخرج أقوام يأجوج ومأجوج منتشرين في الأرض، وهم من كل حدب ينسلون[2].

وتوالت أحداثٌ وآيات عجيبة غير مأهولة على أهل الأرض كان آخرها أن أشرقت الشمس من مغربها، وخرجت دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون[3]، حينها تحقق مصداق

---

* [1] يمكن للقارئ مراجعة كتاب موسوعة الإمام المهدي / المجلد الثالث للسيد محمد صادق الصدر، حيث أورد فيه علائم الظهور وقيام الساعة التي ذكرناها أعلاه مصحوبة ببحث وتحقيق جيد حولها.

* [2] الأنبياء / ٩٦ – ٩٧: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

* [1] النمل / ٨٢: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾.

الآية الكريمة ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾[١]... أجل لقد انتقض الشك باليقين، وانتهى تكليف سكان الأرض فانتشروا فيها مرعوبين مذهولين، لا يعلمون ما يفعلون، والى أي وجهة يتوجهون!

أما الأرض فقد زُلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وقال الإنسان ما لها[٢]، هنالك نطقت بإذن ربها، وقالت: إنما هو أمر الجبّار إذ أوحى لها بأن تُخرج ما في بطونها من أثقال وأسرار، وأن تستعد لانقلاب وتغيّر شامل فيها، حينها تيقن الناس أنها النهاية ولا مناص منها.

واستمرت أحداث الأرض زلزال بعد زلزال، حتى ابتلعت معظم سكانها، وغاصوا في أعماقها الملتهبة، فلم تر لهم باقية.

كل شيء يشير إلى قرب حدوث تغيّر شامل وواسع في عالم الوجود، وبات من بقي من الناس حيارى سكارى، يرتطم بعضهم ببعض، وكلٌّ يفكر في نفسه ومصيره، ويتخلى عما سواه، حتى الأم تخلّت عن ولدها، والمرضعة عن رضيعها، بل لشدة الخوف من

---

[١] * الأنعام / ١٥٨

[٢] * الزلزلة / ١–٤: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾.

العذاب المُرتقب وضعت كلُّ ذات حمل حملها، إذ كان يسقط الجنين من بطن أمه ولم تكن قد اكتملت بعد خلقته[١].

تيقنتُ أنها مقدمات الساعة، فأصابني خوف كبير ورعشه شديدة. وكلما التقيتُ جماعة من سكان البرزخ، أرى صورهم قد تغيرت واصفرت خوفاً من قيام الساعة، حينها يعظم هولي مما سيؤول إليه مصيري، وما رأيتُ أحداً مطمئن القلب، فيسلّيني ويهوّن علي ما سألاقيه في المستقبل المجهول، ثم...

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ .. ﴾[٢].

إنها نفخة إسرافيل الأولى لإماتة خلق الله، إذ انقطعت الحياة عن كل شيء، وماتت جميع الموجودات والكائنات، فلم يبق في عالم الوجود أثر لها، وباتت الأرواح ساكنة صامتة وفي داخلها فزع واضطراب عظيم، إلا أولئك العارفون بحقائق الوجود وأسراره، وقلوبهم غريقة بالمعرفة والمحبة الإلهية.

لم يسلم حتى جبرائيل وميكائيل من صعقة الموت، بل حتى اسرافيل وعزرائيل الذي كان آخر من بقي فقال له الله: مت يا ملك الموت، فمات!

---

[١] * الحج / ٢: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

[٢] * الزمر / ٦٨

لم تتوقف الأرض عن امتثال أوامر ربها، إذ ألقت ما فيها وتخلّت، واندكّت أجزائها دكّا[١]، وتشققت أنهارها، وسُجّرت بحارها فالتهبت، وكأن الماء أصبح وقودا لاحتراقها[٢]، ثم طغى ماءها فوق الأرض منبئاً بحدوث سيل عظيم بعد هطول أمطار غزيرة كثيفة.

وأما الجبال فقد تحرّكت، ونُسفت نسفاً، حتى أصبحت كالغزل المنفوش، والرمل المنثور الذي تناثرت ذرّاته هنا وهناك، ثم تطايرت في الفضاء، وأصــبح مكانها (**قَاعاً صَفْصَفاً، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً**)[٣].

واستمر الكون في تغيراته حتى شملت الأجرام السماوية، إذ خسف القمر، وطغت ظلمته على نوره، وجُمع الشمس والقمر حتى تلاطما فيما بينهما، فاضمحل ضياء الشمس وتلاشى وتلاشت بعده[٤]، وانكدرت النجوم، وراحت الكواكب والمجرّات ترتطم فيما بينها بعد أن اختل نظام حركتها، واضطربت قوانينها التي كانت حاكمة عليها، فتراها تلتهب ثم تتناثر في الفضاء.

---

[١]* الفجر / ٢١: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾.

[٢]* التكوير / ٦: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾.

[٣]* طه / ١٠٥-١٠٧: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً ﴾.

[٤]* القيامة / ٧-١٠: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾.

أما السماء والتي هي مثل السقف المحفوظ والمُحكم يحيط بهذا الكون، لم تسلم من ذلك التغيير أيضاً، إذ عمّ فيها دخان عظيم مما زاد على الظلمة ظلمة، فلا شمس تشع، ولا قمر ينير، ولا نجوم برّاقة، كل شيء ظلام في ظلام!

وفي هذا الوسط من الظلمة المُعتمة انطوت السماء كطي السجل للكتب[١]، فأخفت ما في داخلها بين طيّات صفحاتها، ولعلها عادت إلى خزائن الغيب مع ما فيها من أسرار الكون ومخلوقاته.

سكنت الحركات، وخمدت الأصوات، وخلت من سكانها الأرضُ والسموات، وساد صمت وهدوء مطلق في أرجاء الكون، إذ بقيت السموات خالية من أملاكها، والأرض من إنسها وجنّها وطيرها وهوامها، وبقي المُلك لله الواحد القهار، المتصرف في المُلك والملكوت، وكأن ربي يسأل خلقه: (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ** ..)[٢].

لا أحد يُجيب، بل لا أحد غير الله ينطق حتى يجيـــــب ويقول: (..**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**)[٣].

طال سُبات الخلائق وسكونها، والله أعلم كم كانت مدته، حتى حان ذلك اليوم الذي سمعنا فيه صوت نفخة الصور الثانية وصيحته،

---

*[١] الأنبياء / ١٠٤: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾.

*[٢] غافر / ١٦

*[٣] غافر / ١٦

إنه إسرافيل عاد بعد أن أحياه الله لينادي في خلقه: أن قوموا ليوم الحشر والحساب، ولكن أي صيحة كانت! بل أي نداء هذا الذي يُحيي الأموات من أولهم إلى آخرهم، ويخرجهم من الأرض قياماً ينظرون! ومن الأجداث مسرعين، يرتطم بعضهم ببعض، أبصارهم خاشعة، وقلوبهم خائفة مضطربة، كأنهم جراد منتشر[١] إلى ربهم ينسلون.

كل واحد من الخلق كان يحس أن الصيحة والنداء قريب جداً منه، بل قد تكون في داخله، فهي كما قال تعالى: ﴿ **وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴾[٢].

حقاً انه منظر مرعب ومهول أن تخرج كل الأجيال من البشر منذ خلق آدم وحتى قيام الساعة في وقت ومشهد واحد! والكل يسوق بنفسه مسرعاً مضطرباً، والبعض زاحفاً... إلى ساحة المحشر والحساب.

أسرعتُ مع هذا الجمع العظيم من الخلق، وبين الحين والآخر أتعثر، فأقع ذليلاً على وجهي، وأحس بأقدام الخلق فوقي، ولكن سرعان ما أنهض قائماً بمساعدة مخلوق كان يرافقني منذ خروجي

---

[١]* القمر/ ٦-٧: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ*خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

[٢]* ق / ٤٢

من قبري، ولشدة الزحام والاضطراب لم أتعرف عليه، بل ما تمكنت من رؤيته بصورة تسمح لي بمعرفته.

كنتُ أرى الكثير ممن بُعثوا ونُشروا معي وقد تأججت في أفواههم نار، وهم يتعثرون، وتحت الأقدام يُسحقون. هم كالأقزام في صغرهم، وقد لا ترى لهم أثر حتى يمر كل هذا الجمع العظيم فوقهم[1]. والعجيب أن البعض منهم كلما أراد القيام أركسه مخلوق قبيح كان يرافقه ليلقيه على الأرض مرة أخرى! فقلتُ: بسم الله، هذا أول مشهد من مشاهد الذلّة والعذاب.

وسط هذه الأوضاع والغبرة، وبين وجوه الخلق المتفاوتة، رأيتُ شخصاً يشع منه النور، ولا تبدو عليه آثار التعب والإرهاق، سوى الدهشة التي كانت تظهر في ملامح وجهه. نظرتُ إليه فبهرني جماله وهيبته، وعجبتُ منه إذ لم يكن يسرع في مشيه، وفي الوقت نفسه لا يتخلف عن غيره! سألته ونفسي تلهث من عناء المسير، وغبرة الطريق:

ــ هل تعلم ما الذي حدث؟ وإلى أي شيء يُساق بنا؟

تمعّن في وجهي ثم أجاب:

ــ أرى في صورتك ملامح الإيمان والتقوى، ولكني أيضا أرى نورك ضعيف لا يكاد يضيء الطريق إليك.

---

[1]* ميزان الحكمة / ج٣: (عن رسول الله (ص) قال: يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال ما هؤلاء في صور الذر؟ فيقال هؤلاء المتكبرون في الدنيا).

نظر إلى الجمع العظيم، ثم عاد ليقول:

ــ إن الله بعثنا بعد أن أماتنا موتة البرزخ، ونحن الآن في يوم البعث الذي وُعِدنا به لنُساق إلى الحشر والحساب، ثم لتُجزى كل نفس بما كسبت، ولا يظلم ربك أحداً.

قلتُ:

ــ سبحان الله! ما أقصر لبثنا في عالم الدنيا والبرزخ، وكأننا لم نقضِ فيهما إلا ساعة أو أقل الساعة[1].

قال:

ــ يبدو لك ذلك، والواقع أنها لحظات، بل أقل من لحظات لو قيست مع حياة الأبد التي أمامنا، ولكنها في نفسها كانت كافية لأن ينال الإنسان فيها كماله الذي أراده الله له في عالم الأبد.

تذكرتُ آيات من القرآن تشير إلى الموقف الذي نحن فيه، فسألته:

ــ أنتَ من أهل العلم والإيمان، أليس كذلك؟

قال:

ــ وكيف علمتَ هذا؟

قلتُ:

---

[1] * الأحقاف / ٣٥: ﴿ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

ـ لا أعلم أنت من أي أمة وأي جيل، ولكن الله تعالى أخبرنا في كتابنا القرآن بقوله: ﴿ **وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[١]، فعلمتُ عندما أخبرتني بيوم البعث، وبحقيقة مقدار اللبث في عالم الدنيا والبرزخ أنك من الذين أوتوا العلم والإيمان.

توقفتُ عن الكلام، ثم نظرتُ إليه متسائلا:

ـ قل لي بالله عليك من أي أمة أنتَ؟

ـ إنني من أمة النبي موسى سلام الله عليه، كنتُ قد صدّقته، وآمنتُ بما أتى به من الكتاب، واتبعتُ سبيله رغم ملاحقة فرعون وأعوانه لنا من مكان لآخر، ومن بلد إلى بلد، حتى قُتلتُ صريعاً، وأُريق دمي على طريق الحق والإيمان.

أصابتني حسرة أن لم أكن مثله وفي درجته ونوره، فقلتُ له:

ـ إذن أنت من العلماء المجاهدين بعلمهم على طريق الحق والتوحيد.

استقر الجميع في ساحة المحشر، وهي أرض بيضاء مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ربوة، ولا تلّة يتوارى الإنسان خلفها عن أعين الناس، بل ولا حتى حفرة يدسُّ الإنسان فيها نفسه هرباً من

---

[١]* الروم / ٥٦

الغرماء والخصماء! هي صعيد واحد لا تباين فيها، ولا زرع فيها، ولا جبال، ولا أودية ولا سهول، بل ممدودة مد الأديم[1].

نظرتُ لما حولي فرأيتُ أحسنهم حالا من وجد لقدمه موضعا، ولنفسه متّسعا، ورأيتُ من البشر رجالاً ونساءً ما لا يُحصى عدده، ولا نهاية لحدوده، وهم في صور مختلفة: فبعضهم ذات صور قبيحة ومهولة موحشة، أبدانهم عراة لا يغطيها ولا يسترها شيء، وهم في حالة يكاد الخجل يذيبهم، والذلة والحسرة تقتلهم، ولا ملاذ لهم فيستترون فيه، أو يحتجبون به عن أنظار غيرهم.

كان بعض منهم على صورة القردة، وبعض آخر على صورة الخنازير، وبعضهم منكّسون على وجوهم وقد علت أرجلهم رؤوسهم وهم يُسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم وبكم، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاّت على صدورهم، ويسيل القيح من أفواههم فيتقذرهم أهل المحشر، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيفة، بينما هناك آخرون ملبَّسون جباباً سابغة من قطران نار لاصقة بجلودهم[2].

---

[1] * تفسير الميزان / ج٢٠ / ص٢٤٧: (عن رسول الله (ص) قال: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه).

[2] * بحار الأنوار / ج٧ / ص٨٩: (سأل معاذ بن جبل رسول الله (ص) عن قول الله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾، فقال (ص): يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر، ثم أرسل

وفي الوقت نفسه كنتُ أرى البعض الآخر على صور جميلة متفاوتة، كلٌّ حسب درجته وكماله الذي اكتسبه في عالم الدنيا، وهم يرتدون ألبسة متغايرة فيما بينها. قلتُ سبحان الله! ما هذا التفاوت في خلقه؟ وتساءلتُ مستغربا عن أي أرض أو سماء يمكن لها أن تسع كل هذا الحشر العظيم؟!

التفتَ نحوي شخص يبدو أنه من أهل الإيمان، وكتابه القرآن، فقال:

ـ أما قرأتَ في القرآن: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾[1]، فأرض المحشر وسماءها، ليست كسماء وأرض الدنيا التي قضيتَ عمرا فيها، بل كل شيء تبدل وتغير، والقوانين في عالم القيامة هي غير قوانين ونظام عالم الدنيا والبرزخ، وأحكام الزمان والمكان التي كانت مهيمنة عليها لا وجود لها هنا.

بهرني نور وجهه المشع، ووجدتُ في ذلك فرصة للسؤال منه، فسألته:

ـ أخبرني، كم سيطول وقوفنا في عرصة المحشر؟

أجاب قائلا:

عينيه ثم قال: تُحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً، قد ميّزهم الله تعالى من المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، و ...).

[1] – إبراهيم / ٤٨

ــ إن للقيامة خمسون موقفاً، وكل موقف يستغرق ألف سنة، أما قرأتَ في القرآن: ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾[1]، وأهوال هذه المواقف وشدتها مرتبط بدرجتك التي حُشرتَ عليها، فإن ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾[2].

صمتَ قليلاً، ثم قال:

ــ أراك وقد حُشرتَ على هيئة إنسان، ولباس التقوى يسترك، ولكني ألاحظ نورك ضعيف، قد لا يهديك في ظلمات القيامة والصراط.

أصابني هول مما سمعته منه، وحسرة على ما قصّرتُ به في عالم الدنيا، إذ لم أرفع درجتي بأعمالي وملَكاتي، ولم أوصلها إلى مراتب الإنسان الكامل الذي يشع نوره بين العباد في يومٍ يجمع الله به الأولين والآخرين.

بكيتُ بكاءً شديداً، فاختلطت دموعي مع العرق الذي راح يجري جرياناً من بدني، إذ أصبحت الشمس محرقة بعد أن اقتربت شيئاً فشيئاً فوق رؤوس العباد، وانشغل كل واحد بهمّه وغمّه، وأصبح لا يبالي بغيره.

---

[1]* المعارج / ٤

[2]* الأنعام / ٣٢

وإذ أنا في ذلك الوضع من الحزن والقلق، وبّختُ نفسي وقلتُ لها: يا نفسي أصبحتِ كما قال إمامي زين العابدين في دعائه: (**أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يُغنيه، وجوهٌ يومئذٍ مسفرة ضاحكةٌ مستبشرة، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة ترهقها قَتَرة ...**)[1].

لفت نظري مخلوق كان حسن الوجه، جميل المنظر. اقترب مني وقد علت الابتسامة على وجهه، ثم نادى باسمي! نعم، سمعته ينادي ويقول:

ـ سعيد، ألا تعرفني؟

نظرتُ إليه، وهو أول من ينادي باسمي في ساحة المحشر، ولكني لم أتعرف عليه، لذا أجبته مستغربا:

ـ كلا، إن أهوال القيامة أنستني كل شيء، فمن تكون؟

ـ أنا الذي كنتُ من البعث إلى المحشر أُنجيك كلما صرتَ تحت أقدام العباد، أنا الذي كنتُ أنير لك الطريق كلما دخلتَ في الظلام، أنا الذي كنتُ أزيل عنك اليأس، وأبشّرك بالجنة، وادعوك إلى ترك القنوط من رحمة الرحمن[2].

---

*[1] مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين (ع).

*[2] الكافي / ج٢ / ص ١٨٨: (قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث طويل: إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدِم أمامه، وكلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل...).

ــ آه، أشكرك كثيراً، ولولا أنت لكنتُ الآن في أسوء حال. قل لي بالله عليك مَن أنت، فإني أحب أن تكون دائماً برفقتي.

ــ سأكون كذلك إن شاء الله، إلا في المواضع التي لا يُسمح لي بتجاوزها.

تمعنتُ فيه جيدا، وقلتُ له مترددا:

ــ هل.. هل أنت عملي الصالح؟

قال:

ــ نعم.

كادت روحي تحلّق من فرحة لقائه، فعانقته طويلاً، ثم نظرتُ إليه مستغربا تغير صورته عما عهدتها عليه، وقلتُ له:

ــ أرى صورتك وهيئتك قد تغيرت، وهي ليس كما عهدتها يوم كنتَ معي في عالم البرزخ!

أجاب، وقال:

ــ في البرزخ كانت تظهر بعض تجسمات حقائق أعمالك، وكنتُ أنا خلاصة لها، أمّا في عالم القيامة فتظهر جميع أعمالك، ودقائق إحساساتك، وملكاتك التي كانت معك في الدنيا، أمَا قرأت في القرآن: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَن**

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَــرّاً يَرَهُ)[١].

ــ إذن يبدو من كلامك أنني سألاقي الكثير من تبعات أعمالي السيئة ومصائبها.

ــ نعم يا سعيد، ومما يزيد الطين بلّة أن القيامة ليست كالبرزخ، إذ لم يبق مخلوق في الدنيا حتى يتصدّق نيابة عنك، أو يذكرك بذكر أو دعاء، بل تلاشت الدنيا وما فيها، وأنتَ الآن في نشأة أخرى لها نظامها الخاص بها، وقوانينها التي تميّزها عن غيرها، وهذه القوانين الجديدة مما لم ترها من قبل، بل لم تكن قادراً على تخيلها إن سمعتَ عنها...

---

*[١] الزلزلة / ٦-٨

الفصل الثاني :

صحراءُ مُحرقة

أربعون عاما مضت وحالة أغلب من في المحشر سيئة للغاية، إذ زادت حرارة الشمس باقترابها، ولشدة حرارتها أصبح العرق يجري من أبداننا جريان الماء من مصباته! أما الأرض فتكلمتْ، وأخبرت من في المحشر أنها أُمِرت بعدم السماح لعرَق العباد أن ينفذ فيها، مما زاد ضجيج أهل المحشر واستيائهم.

واشتدت حرارة الشمس أكثر وأكثر بركوبها فوق رؤوسنا، وهي ليست كشمس الدنيا، بل أشد وأقسى وتنفذ أشعتها إلى الأعماق، ولا يمكن التستر أو التهرب منها. أما الأرض فقد تمسكت بأمر ربها، وبلغ العرق لدى البعض منا حتى قدميه، ومنهم من بلغ ساقيه، ومنهم من بلغ بطنه، والبعض الأخر إلى رقبته، وازداد الصراخ والعويل وما من مغيث...

خطر على فكري أمر الشفاعة، ولكن شفاعة في هذا الوقت ولجميع أهل المحشر تحتاج إلى شفيع يكون أهل لها، وذي درجة عالية من المنزلة والقرب من الله.

ويبدو أني لستُ الوحيد الذي طرق فكري هذا الأمر، إذ رأيتُ أهل المحشر يتوجهون إلى ذوي الأنوار المشعة، فاتجهتُ أنا أيضاً نحو أحدهم، وطرحتُ عليه أمر الشفاعة لنجاتنا من هذا الموقف، فقال:

ــ أنت تعلم أنني لستُ ذا درجة عالية في المقام حتى أتمكن من الشفاعة لنفسي، فضلاً عن غيري.

ــ وماذا نفعل، وإلى أي وجهة نتوجه؟

ــ علينا بالأولياء المُخلَصين.

قلتُ له مستغرباً:

ــ ألستَ أنت منهم؟!

كأنه تحسّر على أمر ما، ثم قال:

ــ إنني من الأولياء المخلِصين لله، وأعلى من مقامي الأولياء المخلَصين الذين استخلصهم الله لنفسه بعد أن رأى صدق إخلاصهم له.

انطلقنا مع هذا الولي وجمع غفير معنا إلى أحد أولياء الله المخلَصين...

كنتُ ألاحظ خلال مسيرنا ما تبقى من أهل المحشر، فرأيتُ ذوي الأبدان العارية، والصور القبيحة، لا يتجرءون على الذهاب معنا، بل لشدة خجلهم وذهاب ماء وجههم نكسوا رؤوسهم، وبعضهم من ذوي الدرجات السفلى لا يتمكنون من القيام، فضلاً عن المسير، فتراهم قد غرقوا في عرق أهل المحشر، وهم في كل مرة يخرجون رؤوسهم ثم يدخلونها، وهذا هو حالهم، وأول مراحل عذابهم.

اقتربنا من أحد أولياء الله المخلَصين، إذ دلنا عليه نوره المشع الذي طغى على أنوار الأولياء الذين كنا برفقتهم. دنونا منه أكثر وأكثر حتى بان بياض وجهه، وتألق ضياء صورته، وهيبة وقفته و..

يا إلهي! .. ماذا أرى! أحقيقة هو أم خيال! توقفتُ عن التقدم نحوه، فالتفتَ لي ولي الله الذي أتيتُ معه، وقال:

ـ ما الذي حدث؟ أراك مندهشاً، مستغرباً، مضطرباً!

أجبته بدموع جارية:

ـ إنه مؤمن، إنه صديقي مؤمن، إنه..

آه، بأي وجه سألاقيه، وبأي مقام أتقابل معه، لا، لا أريد..

أراد الولي أن يهوّن علي موقفي، فقال:

ـ إنك بحمد الله على صورة إنسان، وعليك لباس التقوى يسترك، فماذا تقول في غيرك ممن تخلّفوا عنا من أهل المعاصي والذنوب؟

نظرتُ إلى بدني ولباسي، وقلتُ الحمد لله على كل حال، ولولا هداية ربي لكنتُ أسوأ من ذلك.

نظرتُ إلى مؤمن مرة أخرى، وتطلعتُ إلى بهاء وجهه، ورأيتُ عرق أهل المحشر لم يغط سوى قدميه، وجزء يسير من ساقيه.

يا إلهي إنه يتقدم نحوي، لا بد أنه قد علم بقدومي، ماذا أفعل، آه، إنه يقصدني ولا يقصد غيري، نعم، ها هو يقف أمامي...

عانقني وضمني إلى صدره، وقال:

ـ لا يا سعيد، لماذا تهم بالهرب مني؟ ألستُ أنا الذي أدخلتك خيمة الإسلام في الدنيا بعد أن رأيتك أهلاً لها؟ ألستُ أنا الذي رافقتك، وما تخليتُ عنك عند فراقك الدنيا ونزولك في منزلك

البرزخي، كيف أتخلى عنك الآن، ألم يقل الله تعالى في قرآنه: (**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**)[١]، وأنا وأنت بحمد الله من المتقين، رغم اختلاف مقاماتنا، وإن شاء الله تعالى سأشفع لك في مواضع عدة، لترفع من مقامك الذي أنت عليه الآن.

كنتُ أنصت لكلامه والعَبرة تحرقني، والدمعة تغلبني، وكلما نطق بكلمة يعظم بكائي، ويشتد تقاطر دموعي. أمسك بي وأوقفني بجنبه ليتحدث مع أولياء الله بعد أن طرحوا عليه أمر المأزق الذي يمر به أهل المحشر، فقال:

ــ إن أمراً كهذا لا أتمكن منه، وقد طرحته مع أمثالي في المقام، واتفقنا على أن ننطلق إلى أهل مقامات الرضا، الذين هم أعلى درجة منّا، ونرى ما يمكن لهم أن يفعلوه.

طلب الحاضرون مرافقته، ولكنه تعذر وقال:

ــ إن المقامات التي سوف ننطلق إليها ليس من الهين وصولها إلا لأمثالي في الدرجة والمقام، وسوف أبذل ما يسعني إن شاء الله لتحقيق ما طلبتموه مني.

انصرف الكثير من الحاضرين معي، ثم التفتَ مؤمن إلي وقال:

ــ ما من إنسان في عالم القيامة إلا وهو محتاج لشفاعة من هو أعلى منه في الدرجة والمقام، حتى الأولياء والأنبياء.

---

[١] - الزخرف / ٦٧

ـ وكيف ذلك؟ وهل هناك نبي يدخل النار، أو يتعرض إلى عذاب كي يحتاج إلى الشفاعة.

ـ الأنبياء على تفاوت في الدرجة، أما قرأتَ في القرآن: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾[1]، فكل نبي منهم يحتاج شفاعة نبي أعلى منه كي يرفع درجته، لا أن ينجيه من النار أو العذاب.

سألته مستغربا من كلامه:

ـ حتى أنبياء أولي العزم؟

ـ نعم حتى هؤلاء، فهم بحاجة إلى شفاعة الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، وأظن أن مشكلة أهل المحشر ليس لها إلا الرسول الأعظم الذي ختم مقامات القرب إلى الله بمقامه، وبلغ موقعاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده، فهو الذي قال القرآن بشأنه: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾[2].

طلبتُ منه مرافقته في رحلته، فتبسم وقال:

ـ عزيزي سعيد، إن أثر وتبعات كل شيء في عالم القيامة تكويني لا اعتباري، فلا يمكن السماح لك بمرافقتي، فضلا عن غيرك

---

[1]* البقرة / ٢٥٣

[2]* النجم / ٨ – ٩

من أصحاب الدرجات الدنيا، إذ إن درجتك التي اكتسبتها في عالم الدنيا والبرزخ لا تمكّنك من ذلك.

عدنا إلى مواضعنا على أمل أن تصلنا أخبار مسيرة مؤمن وأمثاله من المخلَصين، وفعلاً علمنا بعدها أن الأمر قد وصل إلى نبي الله آدم، ثم قطع مراحل أخرى، ومراتب عدة حتى صار لأن ينطلق الأنبياء من غير أولي العزم إلى نبي الله نوح الذي قال لهم:

ــ أن هذا الأمر عظيم وأنا لستُ له، اذهبوا إلى نبي الله إبراهيم.

ذهبوا إلى نبي الله إبراهيم، فدلّهم على نبي الله موسى الذي دلّهم على نبي الله عيسى، وعندما وصلوا إليه قال لهم:

ــ إن الله تعالى خص مقام المحمودية للرسول الخاتم محمد، وهو أهل لهذا الأمر.

جمعوا أمرهم، وانطلقوا إلى الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقالوا له:

ــ يا من ختم الرسالات برسالته، والمقامات بمقامه، يا من هو أولنا إسلاماً، وأرفعنا درجة، وأوجهنا عند الله، يا من أقر بالعبودية لله وآدم بين الروح والجسد[1]، يا من يشهد على الشهداء ونحن

---

[1]* كنز العمال / ج١١: (عن رسول الله (ص) قال: كنتُ نبيا وآدم بين الروح والجسد).

الشهداء[١]، إشفع لنا ولأهل المحشر عند الله، فإن الحرارة كادت تذيب أبدانهم، والعرق يصل إلى أعناقهم، بل إلى أفواه البعض منهم.

أجابهم الرسول الخاتم، وهو أول من يجيب بالإيجاب، إذ قال: أنا لها يا أنبياء الله وأولياءه.

وانطلق الخاتم (ص)، وسجد لله سجدة أطال فيها، وما رفع رأسه الشريف منها حتى قيل له: يا محمد إسئل تُعطى واشفع تُشَفَّع، فقال يا رب أُمتي أُمتي[٢].

هنالك ارتفعت الشمس من على رؤوس العباد، ونفذ العرق في الأرض، وتوغل فيها بعد أن أُذن لها بذلك، وعاد الرسول الخاتم،

---

[١]* إن كل نبي يشهد على أمته يوم القيامة، وخاتم الأنبياء (ص) يشهد على الأنبياء الأولين والآخرين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله في سورة النساء آية ٤١: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَــؤُلاء شَهِيداً ﴾.

[٢]* المضمون العام لهذه الحادثة مستوحاة من الرواية الواردة في بحار الأنوار للعلامة المجلسي / ج ٨ / ص ٤٨ – ٤٩: (عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله : " عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاما، و يؤمر الشمس فيركب على رؤوس العباد ويلجمهم العرق، ويؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئا، فيأتون آدم فيتشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقول: عليكم بمحمد خاتم البشر، فيقول محمد : أنا لها ، فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق، فيقال له: من هذا ؟ – والله أعلم – فيقول: محمد، فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربه فيخر ساجدا فلا يرفع رأسه حتى يقال له : تكلم وسل تعط واشفع تشفع ، فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجدا فيقال له مثلها ، فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد احرق بالنار ، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد صلى الله عليه وآله، وهو قول الله تعالى : عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا).

وكل من في المحشر ينطق باسمه، ويحمده على شفاعته، ويغبطه على مقامه ومنزلته، وذلك قول الله تعالى: (**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**)[1].

بعد أن رُفع البلاء العام الذي كان قد شمل عموم أهل المحشر بشفاعة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، بقي كل شخص منا يعيش عذاب نفسه، وحسرة أعماله. والذي يزيد من العذاب عذاباً، أن كل شخص منا كان معروفا بين أهل المحشر بملامحه أنه فلان الذي كان في الدنيا، رغم تغير صور وأبدان البعض منهم إلى صور قبيحة منبوذة، كهيئة الخنازير والقردة وأمثالها[2]، والبعض تفوح منهم رائحة كريهة نتنة تجعل أهل المحشر يفرون منهم، وذلك يجعلهم في عزلة وذلة، منبوذين لدى الخلائق أجمعين.

كنتُ أجول في عرصة المحشر عسى أن أجد ما ينفّس كربتي في أول موقف من مواقف القيامة، فأرى بعض أصحاب الدرجات السفلى يتمسّكون بأطرافي، ويتوسلون بي لنجاتهم، أو على الأقل

---

*[1] الإسراء / ٧٩ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾.

*[2] [عالم ما بعد الموت] للفيض الكاشاني / ص١٠٠: (إن المُعاد في المعاد والمحشور في الآخرة، هو بعينه هذا الشخص الإنساني الذي في الدنيا والبرزخ- روحا وبدنا - بحيث لو يراه أحد عند المحشر يقول: هذا فلان الذي كان في الدنيا).

لتأمين لباس لهم يسترون به أبدانهم، وذات مرة سألني أحدهم أن أهب له شيئا من نوري رغم ضعفه، إذ قال:

ــ أعطني من نورك، أو دلّني من أين أتيتَ به؟

تذكرتُ آية القرآن التي تشير إلى هذا الطلب من المنافقين يوم القيامة، والتي تقول: (**يَـوْمَ يَقُولُ الـْمُنَافِقُونَ وَالـْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً** ..)[١]، حينها أجبته بما أجابهم القرآن، إذ قلتُ له:

ــ ارجع ورائك فالتمس نوراً.

قال:

ــ أتسخر مني، أين النور الذي تقول عنه ورائي؟

ــ أنا أقول ارجع إلى الدنيا والتمس النور من هناك، وهيهات لك ذلك. لقد تركتم نور الله ورائكم، فلماذا لم تستضيئوا به، ولم تلتمسوا منه وقد قضيتم عمراً فيها!

أما المخاصمات بين أهل المحشر فحدث ولا حرج، وكثيراً ما كنتُ أشاهد مخاصمات بين أفراد يبدو من كلامهم أنهم كانوا في الدنيا أصدقاء على السوء، أو شركاء على الباطل، أما الآن فقد أصبح الواحد منهم أشد الأعداء للآخر، ويود لو يقطّعه قِطَعا قِطَعا...

---

[١]* الحديد / ١٣

الفصل الثالث:

مظالمُ ودرجات

ذات مرة رأيتُ مشاجرة تبدو شديدة لكثرة اجتماع أهل المحشر حولها. اقتربتُ منها، ودهشتُ كثيراً عندما رأيتُ أن أفرادها ليسوا بغرباء عني، ويبدو أني أعرفهم! دنوتُ منهم أكثر، وتمعنتُ في صورهم ... يا إلهي ماذا أرى! إنه جمال!!

نعم، إن ما أشاهده حقيقة لا خيال، هو جمال بعينه وشخصه. إنه جمال الذي كان سبب مفارقتي للدنيا بعد أن ألقى بي من سطح مبنى ذي خمس طوابق، والآخر الذي كان يتشاجر معه هو صديق له في العمل، ومعروف بسيرته الحسنة لدي ولدى سائر موظفي الشركة التي كنتُ أعمل مهندساً فيها. توقفتُ في موضعي، وما دنوتُ أكثر كي أصغي لهما.

قال جمال وهو في أبشع صورة، عاري البدن، أسود الوجه، نتن الرائحة، يقطر الدم من جروحه التي ملأت جميع أنحاء جسده، وهو يتلوى ألماً منها، قال لصاحبه:

ــ أنت الذي غررتني ودفعتَ بي إلى سرقة أموال الشركة دفعة بعد أخرى، حتى انكشف أمري، وقَتلنا سعيد بسببها.

صرخ صاحبه في وجهه، وهو يقول:

ــ لا تقل قتلنا سعيدا، بل أنت قتلته، وأنت الذي كنت تأخذ جميع أموال سرقاتك، ولا تعطيني إلا القليل منها، و...

قلتُ سبحان الله! هنا تنكشف الأسرار، وتظهر الحقائق المكنونة في الصدور، فجمال كنتُ أعرف سرقاته وقتله لي، أما الآخر فكنتُ

أحسبه من المخلصين في عمله وتعامله، وقد ظهر الآن أنه شريك جمال في سرقاته!

تركتهما يتشاجران وانصرفتُ عنهما موكلاً الأمر إلى الله، وقلتُ: ربي أريد العدل والقصاص منهما، فأنت الشاهد وأنت الحاكم.

كانت نار جهنم تزفر بلهيبها بين فترة وأخرى على أهل المحشر، فيبلغ حرّها الأجواف، وتسيل لها الأعراق، وتذوب لشدة حرارتها الجلود، وكلٌّ يتألم حسب درجته ومقامه.

لقد كان عسيراً جدا المكوث لحظة واحدة في تلك العرصة، ونحن في أول موقف من مواقف القيامة الكبرى، فكيف بي ومدته تطول ألف سنة، أم كيف بي في المواقف الأخرى التي تليه حتى الخمسين[1].

جفّت دموعي من شدة البكاء على نفسي، فأصبحتُ أبكي دماً، وما رأيتُ قبل هذا الموقف أحداً يبكي دما، ولكني بكيت...! أسفا على لحظات الدنيا التي انقضت ولم أستثمرها كما ينبغي، ولم أتزوّد منها بالزاد الوافي لهذه المواقف والأيام.

---

[1]* وسائل الشيعة / ج١٦ / ص٩٥: (قال أبو عبد الله (ع): ... فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإن للقيامة خمســين موقفاً، كل موقف مقداره ألف ســنة، ثم تلا قوله تعالى ﴿ ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾).

كل من في المحشر مشغول بنفسه، فلا أحد من الجن أو الإنس، ولا من الملائكة ينظر إلي فيسألني عما بي، أو يترحم علي، سوى عملي ...

قلتُ لعملي الصالح:

ـ بالله عليك قل لي شيئاً يهوِّن علي ما نزل بي، ويطمئن قلبي الملتهب حسرة وندما.

قال :

ـ إنشاء الله ستنال الشفاعة في آخر المطاف، وسأقودك حينها إلى الجنة، فإن لدي الأمل بذلك.

سألته مستغرباً:

ـ ومتى يكون ما تقوله؟

طأطأ رأسه، وقال:

ـ إن ذلك لا يكون إلا في آخر موقف من مواقف القيامة الكبرى[1]، إذ لا سبيل لها الآن.

ـ إنك لم تطفئ ناري المشتعلة في أحشائي، إن قلبي يلتهب الآن، وتقول أني أنال الشفاعة بعد خمسين ألف سنة!

قال وقد أحسستُ عليه الانكسار من عتابي له:

---

[1]* تفسير الميزان / ج١ / ص٧٩ : (فتحصّل أن المتحصل من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة...).

ـ يا عزيزي، إنك تعلم أني خلاصة أعمالك الصالحة، وملكاتك الحسنة، فلا تتوقع مني أكثر مما ادخرته لنفسك في عالم الدنيا، ولو كنتَ أعطيتني من القوة أكثر مما لدي الآن، لتمكنتُ من تخفيف بعض آلامك، وعلى كل حال لا تقنط من رحمة الله، ولا تيأس من فضله..

لم يكمل كلامه حتى سمعنا نداءاً هزّ أهل المحشر، وسمعه أولهم كما سمعه آخرهم:

ـ (يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار).

انكسرت الأصوات عند ذلك، وخشعت الأبصار، وفزعت القلوب، ورفع الجميع رؤوسهم منصتين ﴿ **مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ** ﴾[1]، فكان النداء:

ـ يا معشر الخلائق إن الله تعالى يقول: (أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يُظلم اليوم عندي أحد. اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم، ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها، وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب)[2].

---

[1]* القمر / ٨

[2]* بحار الأنوار / ج٧ / ص٢٦٨: (عن سيد العابدين (ع) قال: حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب (ع) يحدث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة ... فيأمر ملكا من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار. قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم،

توجه عملي الصالح نحوي، وقال:

ــ إن الله تعالى جعل هذا الموقف موقف تصفية الحقوق بين أهل المحشر، إذ هنا يأخذ المظلوم حقه من ظالمه، والمسروق من سارقه، والمغتاب ممن اغتابه و..

قاطعتُ كلامه بقولي له:

ــ وهل أخذُ حقي منهم يخفف عني ما أعانيه، وما أتألم منه؟

ــ بالتأكيد، وجميع ذلك ينفعك في موقف الميزان والحساب.

إنطلقنا بعد أن اصطحبنا عدداً من الملائكة الذين كانت وظيفتهم ما نروم إليه، ويسمونهم ملائكة أخذ المظالم، وقد كان معهم كتاباً سُجل فيه كل مظلمة وتبعة كانت لي ولم أستوفي حقي منها في عالم الدنيا.

كان أول إنسان توجهوا إليه هو جمال! ... نعم انه جمال، ولكن بأي حال سيئ كان. قلت في نفسي حينما رأيته عاري البدن، مسود الوجه والجسم، وقد اختلط سواده بالدماء السائلة من جروحه، يحاول

قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم، وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر، قال: فيشرف الله عز وجل ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب ...).

ستر نفسه، ولكن بأي شيء يستره! قلتُ: سبحان الله! أهذا جمال الذي كان يتكبر ويتملّق لمسؤولي الشركة، أهذا جمال الذي كان يرتدي الملابس الفاخرة، ويركب السيارة الحديثة، ويسكن المنزل المجهّز بأحدث الوسائل والإمكانات! أهذا المهندس الذي كان يصرخ باطلاً على العمّال، ولا يحترم أحدا دونه، بل كان ينقص من حقهم، ولا يبالي بأجورهم.

التفتُ نحو عملي، وقلتُ له مشيراً بيدي إلى جمال:

ـ أترجو من هذا شيء وهو بتلك الحالة؟! هل لديه حسنة واحدة حتى أرجو أن تُعطى لي، لا أظن ذلك.

ـ لا تعجل الأمور يا عزيزي، وترقب ما سيحدث.

اقترب المأمور منه، وقال مخاطباً إياه بلهجة غاضبة:

ـ إن لسعيد هذا مظلومية عندك، فماذا لديك كي يستوفيها منك؟

صاعقة كبرى نزلت على جمال حينما رآني لأول مرة في ساحة المحشر، وصُدِم صدمة عظيمة جعلته ساكناً جامداً، لا ترى في أعضائه حركة، ولا دبيب إلا دبيب العرَق الجاري، والدماء السائلة على بدنه المحترق.

العجيب أني شاهدت عليه نفس ملكاته التي كانت حاكمة عليه في عالم الدنيا، من الغضب، والكذب، ونكران الحق، فاشتعل وجهه غضبا، وازداد سواداً وتفحّماً، وصرخ بوجه الملك قائلاً:

ـ إنني لم أعرف سعيد، وليس لديه أية مظلومية عندي.

غضبتُ لكلامه، وصرختُ بوجهه:

ــ إنك قتلتني، عدمتني الحياة في الدنيا، حرمتني من فرصة لا تقدّر بأثمان، ولولا فعلتك هذه لشغلتُ ما بقي من عمري في طاعة الله، ولرفعتُ درجتي بأعمالي، ولادخرتُ ليومي هذا ما وسعني.

قال الملك المأمور:

ــ إن حالك وصورتك يا جمال تدل وتشهد على ذنبك بحقه.

صرخ جمال مرة أخرى، وقال:

ــ إنه يكذب، إنه يكذب...

وبين ذلك الصراخ والعويل، وإذا بصوت يخرج من نفس بدن جمال، صمت الجميع وإذا بيديه تنطقان وتقولان[1]:

ــ ونحن نشهد عليه، إنه قتل سعيداً ظلماً، إذ استعملَنا لإلقائه من أعلى الطابق الخامس إلى الأرض، فبنا عدمه الحياة في الدنيا، وكنّا شاهدين على ذلك.

دُهش الجميع من شهادة اليدين، لاسيما جمال الذي بقي مبهوراً مدهوشا، لا يعلم ما يقول، وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، نطق جلده ليشهد هو الآخر بقوله:

ــ وأنا اشهد عليه، إنه قتل سعيدا ظلما بغير حق.

---

[1] * النور / ٢٤ : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

ــ دهشتُ من ذلك، وساد الصمت على الجميع مرة أخرى. أما جمال فعاد يصرخ، ولكن هذه المرة على يديه وجلده:

ــ لِمَ شهدتما بهذه الشـــهادة، ألا تخافان أن يصيبكما العذاب والنار؟

نطق جلده مرة أخرى، وقال:

ــ لقد كنتَ غافلاً يا جمال عن اليوم الذي يتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[1]. لقد عُدتَ يا جمال إلى الله الذي خلقك أول مرة، ولكن إلى اسمه المنتقم الجبار، بينما عاد غيرك إلى الله باسمه الرحيم الغفّار، وإنما العذاب يصيبك أنتَ لا غيرك، وأنا لستُ سوى ناقل له إليك، وسوف يتحقق وعيد الله لك، ويكون حالك معي كما قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾[2].

ما أن أكمل الجلد كلامه حتى سمعنا نداءاً من الأرض، ويبدو أنها كانت منتظرة فرصتها في الشهادة، إذ قالت:

ــ أنا الأرض، أشهد أن جمال ألقى بسعيد من مكان مرتفع، وفارق حياته الدنيا على سطحي الممتلئ بقطع من الحديد المبعثر.

---

*[1] فصلت / ٢١

*[2] النساء / ٥٦

لم يبقَ لجمال كلمة واحدة يتفوه بها ليدافع عن نفسه، أو يكذّب بها شهوده، لذا استسلم ونكس رأسه منتظراً ما سيُفعل به.

قال الملك المأمور لمرافقيه من الملائكة:

ــ لا أجد في كتابه حسنات يمكن إعطائها لغريمه، لذا علينا نقل سيئاتٍ من سعيد إليه بمقدار جرم القتل الذي ارتكبه بحقه[١]!

ما أن أنهى الملك كلامه حتى أحسستُ بخفة الثقل على ظهري، وزيادة في نوري، وانخفاض الحرارة التي كانت تحرق أحشائي، وفي الوقت نفسه رأيتُ جمالاً قد ازداد صراخه، وشدة آلامه، وسواد وجهه الذي خالطه دمه الجاري عليه، فازددتُ وحشة منه، ونفرة من رائحته النتنة. توجه الملك نحوي، وقال:

ــ ألديك حق آخر تأخذه منه؟

التفتُ لعملي الصالح أسأله، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة سمعنا نداءاً من الأرض يقول:

ــ نعم، أنا أشهد أنه كان المدبر لقتل زوجة سعيد بحادث سيارة متعمَّد!

---

[١]* شرح أصول الكافي / ج١٢ / ص٣٤: سأل رجل من قريش الإمام السجاد (ع) فقال له: (يا بن رسول الله إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة، أي شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟ قال: فقال له علي بن الحسين (ع): يُطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ما له على الكافر فيعذب الكافر بها ...).

قلتُ سبحان الله! وهذا سر آخر ما كنتُ أعلمه. نظرتُ لعملي الصالح متسائلا عما يجب فعله، فأشار إلى الملك الذي بادرني بقوله:

ـ كل حق لك، صغير أو كبير، مدوَّن في هذا الكتاب الذي لا يضلّ ولا ينسى، سواءً كان حرمانك من تكميل حياتك مع زوجتك في الدنيا، أو غيبته لك، أو تسقيطه لسمعتك بأكاذيب وافتراءات عليك، أو سرقاته لأموالك، وما من ذرة مظلمة لك عنده إلا وانتزعنا لك حقها منه.

تحسّن حالي بعد تصفية الحساب مع جمال، بينما هو فأصبح أسوأ حالا مما سبق. كنتُ أشاهد دخّان ناره المحترقة فيه يخرج من جميع أنحاء بدنه، أما نار باطنه فهي سوداء تتأجج في أعماق قلبه، وتخرج من فمه ومناخره، وهو يقوم ويقعد، ويعوي كعويل الكلاب والذئاب.

كنتُ مندهشاً مما أشاهده، مستحضراً في فكري كبرياء جمال وتملقاته، وافتراءاته علي في دار الدنيا. استحضرتُ نصائحي له بترك أعماله السيئة وسرقاته من الشركة، ولكنه ما كان يصغي لجملة واحدة منها.

لم أخرج من عالم الفكر الذي جرني إلى ذكريات ما مضى من الدنيا إلا بنداء عملي الصالح الذي قال:

ـ سعيد أرأيتَ ما حصل لجمال؟

ــ نعم قد رأيتُ.

ــ لعلك أول من استوفى حقه منه فأصبح حاله هكذا، فكيف إذا جاء كل من لديـــــه مظلمة عنده وانتزعها منه، تُرى بأي حال سيـــكون؟!

انطلقنا نبحث عن مظالم أخرى نأخذها، وخلال مسيرتنا لفت نظري شخص مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، دالعاً لسانه من قفاه، بيـــده قدح وهو أنتن من كل جيـــــفة على وجه الأرض، يلعنه كل من يمر به من الخلائق، فقلت لعملي الصالح:

ــ ماذا كان يفعل هذا في دنياه؟

تمعن فيه قليلاً، ثم قال:

ــ لا يشرب عبد خمراً في دنياه إلا وحشره الله بهذه الهيئة التي تراها، وقد أقسم ربي جل جلاله انه لا يشرب عبد خمراً إلا وسقاه يوم القيامة مثل ما شرب منه من الحميم[1].

وصل بنا الملك المأمور إلى رجل كان بدنه عارياً متعفناً، تخرج منه رائحة جيفة الأموات، وهو يقطّع لحم بدنه المتعفن ويأكل منه. كان يتلوى ألماً حينما يمضغ لحمه بأسنانه الصفراء!

---

[1]* بحار الأنوار / ج ٧ / ص ٢١٨: (عن الصادق (ع) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: اقسم ربي جل جلاله لا يشرب عبد لي خمرا في الدنيا إلا سقيته يوم القيامة مثل ما شرب من الحميم معذباً بعد أو مغفوراً له، ثم قال: إن شارب الخمر يجيء يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، دالعاً لسانه من قفاه).

أمر عجيب! لماذا يأكل هذا الشخص بهذه الصورة؟ تحيرتُ أكثر عندما اخبرني الملك أن لي مظلمة عنده، فتمعنتُ فيه أكثر ولكني ما عرفته.

سألتُ الملك عن أي حق لي عند هذا الشخص، فقال:

ـ انه كان يجلس مجالس الغيبة والبهتان عليك، ويشارك فيها ولا يدافع عنك، ولا يقوم من مجلسه عندما تُذكر فيه بسوء، أو تُفترى عليك الأقاويل. انه أحد رفاق جمال الذين لم تتعرف عليهم في دنياك.

سأله الملك عن سبب مشاركته في مجالس الغيبة والبهتان، فأنكر ذلك، وقال:

ـ متى كان ذلك؟ إنني لم أنطق أو أسمع أي غيبة عن هذا الشخص، لم أسمع أي شي عنه...

أراد أن يبكي بدموع التماسيح، ولكن فضحه سمعه بشهادته عليه إذ نطق، وقال:

ـ نعم، انه كان يستعملني كثيراً لسماع الغيبة، بل لسماع افتراءات كاذبة على سعيد، وكان لا يردُّ على أهل تلك المجالس، بل يتلذذ بسماعها، ويضحك معهم، وأنا شاهد على ذلك. أنه كان غافلا عن الآية الكريمة: ﴿ **حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾[1].

---

[1] * فصلت / ٢٠

نكس الرجل رأسه للأرض وبكى بكاءً شديداً، وتمسك بأطراف ثيابي متوسلاً أن أهبه حقي الذي عنده، فأبيتُ ذلك.

لم يتركني على حالي، بل راح يتوسل أكثر، ويقبّل يدي مرة وقدمي أخرى، وفي كل ذلك كنتُ أعرض عنه ولا أقبل منه. التفتُ إلى عملي الصالح، فقلتُ له:

ـ إنني كلما راجعتُ نفسي، ما وجدتُ في قلبي ذرة تحنن ورأفة عليه أورقّة على حاله، أيكون ذلك بسبب انحطاط درجته وتدنّي مقامه؟

ـ صحيح ما تقول، وصورته وحاله يدلك على ذلك، ولو كان من المتقين لألقى الله في قلبك حبّا له، ولوهبته مظلمتك التي عنده، والله يعطيك مثلها من الأجر.

أخذتُ حقي منه، وانطلقنا نبحث عن مظالم أخرى، ولكن خلال مسيرتنا أقبل علينا شخص مسودّ الوجه، يصرخ بصوت عال: أين فلان أين فلان.

أصغيتُ جيداً لما يقول. عجيب أمره أنه ينادي باسمي ويطلبني! تُرى ماذا يريد مني؟ استوحشتُ منه أكثر عندما رأيتُ معه ملك مأمور وجمع من ملائكة أخذ المظالم.

اقترب مني وأراد أن يمسكني من عنقي، فمنعه الملائكة الذين برفقته، وكلما حاول ذلك مُنع منه.

تمعنتُ في صورته وملامحه أكثر وأكثر حتى تذكرته. لقد كان صاحب محل صغير بالقرب من محل سكني أيام دراستي في الجامعة، ولكن تُرى ماذا يريد مني الآن؟!

بادرني الملك المأمور معه بقوله:

ـ إن لهذا مبلغٌ لديك لم تؤده إليه في الدنيا، وهو الآن يريد أخذ ما يعادله منك.

سألته مستغربا عن زمن ذلك و كيفيته، فأجاب:

ـ لقد كنتَ تتسوق منه يومياً ما يلزمك للعشاء لك و لرفاقك، وذات مرة اشتريتَ منه بيضة واحدة، فأعطيته مبلغاً بعملة ذات فئة كبيرة، فاستحى أن يصرّفها لك لأن المبلغ كان زهيداً، لذا قال لك أن لا تثريب في ذلك، يمكنك إضافتها على الحساب القادم، ولكنك استحقرتها ولم تؤدها إليه، فبقي مبلغها في عنقك حتى انتقلتَ من الدنيا للبرزخ بالموت، وانقطع بك السبيل، وما كان أحد في الدنيا يعلم بهذا الأمر كي يؤديه عنك.

خاطبتُ الرجل ملتمساً إياه:

ـ ألا تهبها لي؟ إني بأمس الحاجة إلى حسنة واحدة، وأنت تريد أن تأخذ مني حسنات.

لم يعبأ الرجل بكلامي، وقال:

ـ ألا ترى بدني يتوهج من شدة حرارته؟ إنني أريد أن أضع اصبعي في بدنك فلعله يبرد قليلاً.. ولو للحظة واحدة.

نظرتُ إلى إصبعه فرأيته متوقداً محمراً كالجمرة الحمراء! لم يترك لي فرصة النطق بكلمة واحدة، إذ مد يده نحوي وغرز إصبعه في عنقي، ولشدة حرارته أحدث ثقب فيه، وصهر ما حوله. صرختُ صرخة عظيمة من شدة الألم سمعها من في المحشر، وبقيتُ أتلوى ألماً وحرقة، وبكيتُ بكاءً عظيماً، فلا أدري على أي شيء أبكي، أبكي لعظيم ألمي، أم لحرقة بدني، أم لندامتي على غفلتي، واستحقاري لهذه وغيرها من تبعات عالم الدنيا...

مضت مدة طويلة وأنا أتألم مما أحدثه هذا الرجل في بدني، بل أضيفت فوقه تبعات أخرى ومظالم عدة ما كانت في الحسبان، بل ما كنتُ أتوقع يوماً أن يأتي أصحابها وينتزعوا ما يعادلها مني، وذلك لتفاهة قيمتها كما كنتُ أتصور في دار الدنيا.

ذات مرة أتاني شخص ما كنتُ أعرفه، وقال إن مظلمته عندي أنه ذات يوم كان واقفاً في صف شراء الخبز، فأتيتُ أنا لشراء الخبز أيضاً، وكان بعض من الواقفين عمّال في الشركة التي كنت أعمل فيها مهندسا، فقدّموني أمامهم، فتقدمتُ، وما حسبتُ أني أخذتُ حق من كان يقف خلفهم، وقد كان هذا الرجل أحدهم، فامتعض من فعلي هذا، وجاء اليوم ليأخذ حقه مني! وقد أخذه وذهب لحاله.

وأيضا في يوم من أيام الدنيا تعاقدتُ مع أحد الأشخاص لإنجاز عمل في أحد مشاريع الشركة بأجرة يومية قدرها عشرون ألف دينار، ولكن بعد أدائه لِما كلِّف به واطّلاع مدير الشركة على قائمة

أجور العمال، خفَّض أجرة عمله إلى ثمانية عشر ألف دينار، وقد جاء هذا العامل الآن ليأخذ حق الألفين مني!

وذات مرة جاءني شخص يطالبني بحقه في الجلوس في الصف الأول من صلاة الجماعة، إذ أتيتُ في يوم من أيام الدنيا لأداء الصلاة، ورأيتُ الجمع مجتمع، والصفوف قائمة بانتظار إقامتها، فقدّمني أحدهم للصف الأول، وطلب من الشخص المذكور القيام كي أجلس أنا محله، فقام دون رضا منه، وقبلتُ أنا ذلك لغفلتي أني قد أخذتُ حق أسبقيته في المكان!

أصبتُ بنكسة كبيرة وانكسار عظيم عندما راجعتُ نفسي، وتفحّصتُ حالي، فوجدتُ أن نوري قد ضعف، وثقل سيئاتي قد كبر، وكفة حسناتي قد خفت، وبياض وجهي قد خالطه السواد...

أصبحتُ أرتجف كلما أرى شخصاً يُقبِل نحوي أو يناديني، خوفاً من أن ينتزع شيئاً مما لدي. التفتُ إلى عملي الصالح، وقلتُ له:

ــ انطلقنا بحثاً عن مظالم تتفعنا، ولكني أرى حصول خلاف ما تأملناه!

ــ عزيزي سعيد، المشكلة أنك تبتَ إلى الله توبة صادقة في الدنيا، ولكنك غفلتَ عن أداء حقوق الناس التي بقيت في عنقك، والتوبة لا تكون كاملة إلا بإرجاع كل حق إلى صاحبه وإن صغر، وأنت تعلم أن كل إنسان في المحشر بأمسّ الحاجة إلى زيادة رصيده من الحسنات، ولو كان بمقدار ذرة أو اقل منها، و ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن**

رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[١].

ــ وماذا أفعل الآن، وما هو حلّك لهذه المشكلة؟

ــ كان الحلّ بيدك في الدنيا، وهو أن تذهب إلى كل واحد من هؤلاء وتطلب منه براءة ذمة أو توفيه حقه. وعلى كل حال لا تحزن، فانك لا زلتَ ضمن حدود درجة المؤمنين، ولم تبتعد عنها كثيراً.

طأطأتُ رأسي إلى الأرض، وقلتُ له:

ــ إني أخاف فقدان حتى هذه الدرجة، إني قلق جداً لما سيؤول إليه مصيري، وكيف يمكنني تجاوز خمسين موقفاً من مواقف القيامة وتحمّلها، وأنا لا أطيق ساعة منها، وهل سأنجو بعدها، أم سأقع في هاوية النار، لا ادري...

وجرت دموعي مرة أخرى أسفاً وحزناً على تقصيري وغفلتي في عالم الدنيا، إذ كنتُ غافلا عن أن حق الناس لا يسقط بالتوبة فقط، وصحيح أني عزمتُ على ترك المعاصي ورعاية حقوق الخلق، والتزمتُ بكلامي بيني وبين الله بعد إعلان توبتي، لكني نسيتُ تبعات الماضي ولم أسعَ لتصفيتها مع خلقه.

بقيتُ على هذه الحالة مدة طويلة، أرى كل مخلوق مشغول بنفسه عن غيره، بل يفر حتى من أهله وأخوته، ويهرب من أمه وأبيه،

---

[١]* يونس / ٦١

وزوجته وبنيه[١]، فلكل واحد منهم شأن يغنيه، أما أنا فكنتُ أعيش بين الخوف من قلة رصيد الحسنات، وبين الأمل بالنجاة... بل حتى ذلك الأمل صار ضعيفا يوم فوجئتُ بلقاء زوجتي في المحشر!

نعم، كانت تقصدني وتبحث عني، ولم يكن حالها أفضل من حالي. تمعنتُ فيها جيدا وتيقنتُ من شخصها... أجل هي آمنة أم مرتضى بعينها، والتي فارقت الدنيا أثر حادث سيارة يوم كان مرتضى صغيرا لم يتجاوز الرابعة من عمره.

سلمتُ عليها، وسألتها عن حالها، فأجابتني:

ــ ليت الموت أعدمني الحياة يا سعيد، وليتني لم أُخلق في الدنيا لأعيش حسرتها الآن، وليت الـــ...

لم تتمكن من إكمال جملتها التي نطقت بها، وجرت دموعها بغزارة، وارتفع صوت بكائها، فعلمتُ من ذلك شدة الألم والحسرة التي أصابتها، وما أن هدأتْ حتى سألتها:

ــ ولكن ما الذي تطلبيه مني؟ ولماذا تبحثين عني في صحراء المحشر؟

كانت مترددة في الجواب، وقد طغى على وجهها الخجل والحياء، ولكنها تغلبتْ عليه، وقالتْ:

---

[١] عبس / ٣٤ – ٣٧: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

ــ كنتُ أبحث عنك كي أأخذ حقي منك.

ــ وما هو حقكِ عندي؟

ــ إن الله جعل للزوجة حقوقا على زوجها، وأنتَ لم تراعي الكثير منها، فهل كنتَ غافلا عنها؟ أم أنك انجرفت مع العُرف السائد في مجتمعنا يوم ذاك، والذي يفرض على المرأة واجبات لم يفرضها الله عليها.

لم تعطني فرصة السؤال عن أي حقوق تتحدث، إذ استرسلتْ في كلامها، وقالتْ:

ــ أتذكر يا سعيد يوماً دعوتَ فيه أصدقائك للعشاء في بيتنا، وطلبتَ مني تهيئة الطعام لهم، فتعذرتُ من ذلك لأني كنتُ متعبة جدا.

ــ نعم أذكر ذلك، وقد جلبتُ لهم الطعام من السوق، وما أجبرتكِ عليه.

ــ ولكنكَ جرحتني كثيرا بكلامك لي بعده، وأعرضتَ عني، ولم تكلمني ليومين لأني لم أهيء الطعام لهم، مع إن الإسلام يعتبر خدمات المرأة في منزل زوجها تطوعا وإيثارا منها، لا وجوبا عليها[1]. سعيد: إنني لم أسمع منك كلمة شكر ولو بلفظ اللسان على ما

---

[1] * [أخلاق أهل البيت] للسيد محمد مهدي الصدر / ص ٣٧٩: (والنفقة حق معلوم للزوجة، تتقاضاه من زوجها، وان كانت ثرية موسرة، لا يسقط الا بنشوزها وتمردها على الزوج. وليس له قسرها على الخدمات المنزلية، أو إرضاع طفله، الا ان تتطوع بذلك عن رغبة وإيثار) .

اعمله في المنزل من الصباح إلى الليل، كما إني لم أطالبك قط بأجرة على عملي هذا، مع إن الإسلام كان يسمح لي بذلك. أهكذا كان ينبغي أن يكون جزائك لي مقابل كل أتعابي وخدماتي لك؟ لا بل الأكثر من ذلك أنك كنتَ تتعامل معي وكأني خادمة في بيتك، فتأمرني بجلب طعامك أو أوراقك أو حاجياتك التي كان بإمكانك أن تقوم وتجلبها بنفسك، والأعظم من ذلك انك كنتَ تغضب علي إذا تأخرتُ في جلبها، فهل هذا كان يتوافق مع الإســلام الذي كنتَ تعتنقه وتدافع عنه؟

نكستُ رأسي ولم أتمكن من الدفاع على نفسي، فبأي جواب أردها؟ وبأي كلمة أجيبها؟ وكل كلامها كان صحيحا، لذا التزمتُ الصمت، وأعطيتها بسكوتي هذا فرصة لاستئناف حديثها، إذ قالت:

ـ كنتُ أفتقد منك العون لي ببعض أعمالي في المنزل، إذ كان تكبرك يمنعك من ذلك، واستحيائك من الناس يحول بينك وبينه، ولا أعلم أي عيب فيه. ألم يساعد إمامنا زوجته فاطمة في منزلها بأعمال الطبخ وتربية الأطفال وغيرها؟ ألم يطرق سمعك قول نبينا لأمير المؤمنين بعد ما رآه في البيت ينقي العدس، وفاطمة جالسة عند القدر إذ قال له: (ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة

على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين)[١].

يا سعيد، أين كنتَ من كل هذا الثواب وأنت الآن في أشد الحاجة إليه، وأراك تبحث عن الحسنة من هنا وهناك، ومن فلان وفلان.

إحترق قلبي ألما وحسرة لما ضيعته من الثواب العظيم في الدنيا، ولِما قصّرتُ به من حُسن العشرة مع الأهل والعيال، ولم تكتفي آمنة بهذا الحد من عتابها لي، إذ استأنفتْ كلامها مرة أخرى لتوقد شعلة الندم والحسرة أكثر في قلبي، فقالتْ:

ــ يا سعيد، إن كل واحد منا الآن يتمنى لو أفدى بدنياه وما فيها مقابل أن تزيد حسناته ولو واحدة، أو تطفئ نيران سيئاته ولو للحظات، وأنت ضيعتَ الكثير الكثير. أين كنتَ من وصية خاتم

---

[١]* جامع أحاديث الشيعة / ج١٧ / ص١٣٩: (عن علي عليه السلام قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر وأنا انقى العدس قال: يا أبا الحسن، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: اسمع وما أقول إلا ما أمر ربى، ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين وداود النبي ويعقوب وعيسى (عليه السلام). يا علي، من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة. يا علي: ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة، وألف حجة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة ...).

الأنبياء لعلي إذ قال له: (يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات)[١].

اعترفتُ لها بتقصيري معها، إذ لا مجال هنا لنكران الحقيقة، أو التهرب منها، ولكني سألتها عما إذا كانت نادمة على خدمتها في بيتها طوال حياتها معي، فأجابتْ:

ـ اعلم يا سعيد أنني غير نادمة قط على ذلك، ولولا هذه الخدمات في البيت لما كان نوري بالدرجة التي تراها الآن، بل إني متأسفة على عدم المزيد منها، ونادمة على أَني لم أتلقى بجدٍ تلك الأحاديث التي كانت توعد بالثواب العظيم للمرأة التي تخدم زوجها، وأن هذه الخدمة تغلق عنها أبواب النيران، وتفتح لها أبواب الجنان[٢]،

---

[١]* مستدرك الوسائل / ج١٣ / ص٤٩: (عن علي عليه السلام قال: دخل علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ... يا علي، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب. يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات. يا علي، لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد، أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة).

[٢]* ميزان الحكمة / ج ٢ / ص ١١٨٦: (عن الإمام الباقر (عليه السلام): أيما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت).

أو تلك التي توعد بالغفران للمرأة التي تسقي زوجها شربة ماء، وأَن هذا العمل خيرٌ لها من صيام نهارها وقيام ليلها[1].

توقفتْ عن الكلام، وجرّت حسرة طويلة، ثم قالتْ:

ــ لا فائدة من التأسف والندم الآن، فقد انتهى التكليف، وهيهات من العودة للدنيا مرة أخرى.

تأثرتُ كثيرا من كلامها، وأحسستُ بالخجل العظيم أمام الملائكة الذين كانوا برفقتها، لذا حاولتُ إبراز جانب الإيجاب مني معها، إذ قلتُ لها:

ــ إنني الآن لم أنكر خدماتكِ لي في المنزل، ولكِ الحق في كل ما قلتيه، وكان الأجدر بي أن أجمع بين نفقاتي عليكم، وسعي من أجل تحصيل معاشكم، وبين حُسن العشرة والخُلق معكم، وكان الأجدر بي أن أشكركِ بدلا من إظهار عدم الرضا عليكِ.

كان الجميع ينصت لكلامي ويترقب نتيجة الحوار بيننا، ولم أجد من يقاطعني، فاستأنفتُ الحديث بقولي:

ــ لقد رفع الله درجتي ونوري بين أهل المحشر بسبب إخلاصي له تعالى في كدّي عليكم، ولولا ذلك لما كان نوري بالدرجة التي

---

[1] * وسائل الشيعة – آل البيت / ج ٢٠ / ص١٧٢: (وقال (عليه السلام): ما من امرأة تسقى زوجها شربة من ماء إلا كان خيرا لها من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها ويبنى الله لها بكل شربة تسقى زوجها مدينة في الجنة وغفر لها ستين خطيئة).

تربينها[١]. وأسفي أن لم أكن حَسنَ الخلُق معكِ كما أوصى نبينا به، وقد عُذّبتُ عظيم العذاب في البرزخ لأجله، وخوفي الآن أعظم من آثاره في عالم القيامة الكبرى.

نويتُ الطلب منها أن تهبني ظلمي لها، ولكني قبل أن أعرض عليها ذلك قلتُ لها:

ـ إن من واجبات الزوجة في العشرة مع زوجها أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ولو إلى أهلها، وأيما امرأة باتت وزوجها ساخط عليها في حق، لم تُقبل منها صلاة حتى يرضى عنها[٢]. فهل عملتِ بما فرضه الله عليكِ، أم كنتِ غافلة عنه؟

لم أعطها فرصة المقاطعة والدفاع عن نفسها، إذ أردفتُ كلامي مباشرة بالسؤال منها:

ـ أتذكرين يوم انتقل محل عملي إلى مدينة أخرى، وقد طلبتُ منكِ السفر معي إلى هناك، ولكنكِ امتنعتِ ولم توافقي رغم إصراري

---

[١]* بحار الأنوار / ج ١٠٠ / ص ١٣: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله).

[٢]* جواهر الكلام / ج ٣١ / ص ١٤٧: (ومن حقه عليها أن تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيته إلا بإذنه ولا تصوم تطوعا إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها، ولو كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ولو إلى أهلها ولو لعيادة والدها أو في عزائه وأن تطيب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتتزين بأحسن زينتها، وتعرض نفسها غدوة وعشية...).

عليه، ورغم أن السفر لم يكن حرجا عليكِ، أليس هذا خلاف لتوصيات الإسلام لكِ بحق زوجكِ؟

وذكرتُ لها موارد عديدة أخرى كانت مقصرة فيها، فلم أسمع جوابا منها، بل التزمتْ الصمت الذي كان يدل على اعترافها بها، حينها رأيتُ أن الوقت مناسب لعرض طلبي منها، فقلتُ لها:

ــ أطلب منكِ يا آمنة أن تهبي لي ظلمي لك، وأنا أهب لكِ تقصيركِ معي[1]، عسى الله أن يعف عنا، ويتجاوز علينا، وهو أرحم الراحمين.

لم تمانع طلبي منها، بل استقبلته بلهفة وترحيب طمعا برحمة العزيز الغفار، ولعل عفوي عنها يخفف عنها شيئا من أهوال المحشر وما بعده. ثم حان الوداع، وآن الفراق، ليشق كل منا طريقه المجهول...

ومضيتُ مرة أخرى في صحراء المحشر، ولشدة حرارة الموقف أحسستُ بجفاف بدني ويبوسته، وضعف في جوارحي. أصبحتُ أقوم واقع، وأمشي وأتعثر، ولم تعد لي طاقة على الحركة والانتقال. ومما زاد الطين بلّه أنه أتاني مخلوق قبيح الشكل، أسود

---

[1] * بحار الأنوار / ج٧ / ص٢٦٨: (عن سيد العابدين (ع) قال: حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب (ع) يحدث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة ... ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب ...).

اللون، يتلفت يميناً ويساراً، وكأنه يخاف من شيء ما، فأمسك بيدي، وقال لي بلهجة ساخرة:

ـ أبشرك بالنار يا سعيد، أبشرك بالنار، سوف تدخلها لا محالة في ذلك، وإني أرى مستقبلك أسوء وأخزى بكثير مما أنت فيه الآن!

صعقني بكلامه، وقلتُ له:

ـ وماذا يجب علي فعله حتى أنجو مما تقوله؟

ضحك مستهزئا من قولي، ثم قال:

ـ لا سبيل لنجاتك، وكل ما عليك فعله أن تتحمل أحقاباً في نار جهنم، قد تكون آلاف من السنين، إن لم تكن ملايين!

صرختُ في وجهه، وحاولتُ إبعاده عني فما تمكنتُ من ذلك حتى أتى عملي الصالح، حينها ولى هارباً بعيداً عني، لا أعاده الله لي.

قلتُ لعملي الصالح:

ـ من يكون ذلك الذي أرعبني، وقد ولى هارباً حين حضورك؟

أجابني بقوله:

ـ إنه خلاصة أعمالك السيئة، ولكن لا عليك به، فإنه ضعيف ولا يتمكن منك إلا في بعض المواضع، إنه يستثمر أوقات الدنيا التي كنتَ بعيدا فيها عن الأعمال الصالحة، فيأتي فيها الآن ليرعبك ويؤذيك. ولكن عليك الحذر منه عند عبورك الصراط، إذ سيكون لك

في المرصاد، ويستخدم كل ما لديه من قوة وسلطان كي يزلك عنه، ويوقعك في الهاوية.

ومضت آلاف السنين...

أجل آلاف من سنين المحشر، وفي عرصته التي لا ظل فيها ولا ظليل، ومررتُ فيها بمواقف عسيرة غير يسيرة، وفترات مريرة طويلة جداً لقيتُ فيها ما لقيتُ من مرارة وآلام، وفي بعضها ذلة وانكسار، ولماء وجهي خزي واندثار.

كنتُ أخجل كثيراً، وتحرقني العبرة والحسرة عندما أرى أفراد من أقربائي في الدنيا، وقد نالوا درجات عليا ونور عظيم، وهم الآن في مقامات عالية.

والعجيب أنني كنتُ أحسبهم أناس بسطاء، إذ لم يكن ظاهر للناس قربهم من الله في دار الدنيا، ولا تحس لأعمالهم الصالحة ضجيجاً، ولا لخيراتهم إلى الناس حسيساً.

سألتُ أحدهم وقد كنتُ أنا الذي حثثته على التوبة في الدنيا، وتعاهدنا سويا على أن تكون توبتنا خالصة لله، سألته عن أي شيء أوصله إلى هذا المقام؟ فأجاب:

ـ لا تظن أنني نلتُ هذا المقام دون عمل وجهاد مع النفس و..

قاطعته، وقلتُ له:

ـ هل تذكر أنني أنا الذي فاتحتك بالتوبة إلى الله، وقد تعاهدنا عليها، وبدأنا بها في وقت واحد، فبماذا افترقنا؟

ــ صحيح ما تقول، لكنك لم تجاهد نفسك كما ينبغي، ولم تمنعها من الرياء الذي كان يخالط الكثير من أعمالك. كنتَ تعمل قربة إلى الله، لكنك لم تكن تراجع باطن قلبك، وتتفحص حقيقة نيتك، ولو فعلتَ ذلك وحاسبتَها في وقتها، لوجدتَ أن عملك مشوب، ونيتك غير خالصة، ولرأيتَ هدفاً آخر قد لصق به، واخترق صدق خلوصه.

شكوتُ إليه طول الفترة التي مضت في المحشر، فتعجب من كلامي، وقال:

ــ لقد كانت مدة قصيرة ولم أحس بطولها كما تقول، فعن أي شيء تتحدث؟

إستغربتُ من جوابه، وقلتُ له:

ــ أتحدثُ عن الفترة من أول الحشر حتى ساعتنا هذه.

أطرق قليلاً، ثم قال:

ــ أنتَ صادق فيما تقول يا سعيد. إن طول مواقف القيامة تختلف من شخص لآخر، وكلٌّ حسب درجته ومقامه، فبعض يحس به آلاف بل ملايين السنين، وبعضهم لا يحس به كذلك، بل يمر عليه وكأنه نهر يقطعه، أو جسر يعبر فوقه، والخلق بهذا الأمر في تباين كبير...

الفصل الرابع :

عقباتٌ في

الطريق

سكنت الأصوات، وساد الصمت بين العباد حينما سمعوا نداءاً كان معناه: يا معشر الخلائق إن العزيز الجبار يقول: (يا بني آدم إن صراطي مستقيما منذ خلقتكم وقد أمرتكم به، وقلتُ لكم أكثروا من الزاد إلى طريق بعيد، وخففوا الحمل فالصراط دقيق[١]، فمن سار عليه في دنياه نجى عندي، ومــن أعرض عنه، ووضع فيه العقبات فعليه اليوم أن يتجاوزها).

كان لكل واحد من أهل المحشر أمل بتجاوز عقبات الوصول إلى جنة الخلد، والذي زاد من ذلك أن الجنة بدت للجميع فرأوها، واشتاقوا لها. ولولا خلود عالم القيامة لمات الجميع شوقاً لها!

إنطلق الجميع أملاً باقتحام عقبات الجنة وتجاوزها، وانطلقتُ أنا معهم...

يا له من أمر عجيب! ومنظر غريب! جلب أنظار الخلق أجمعين، دهشتُ انأ أيضاً مما شاهدته، وسألتُ عملي الصالح عن أولئك الأشخاص ذوي الأنوار العظيمة الذين اقتحموا العقبات، ثم قطعوا الصراط كالبرق الخاطف في سرعتهم، ليقفوا على أبواب الجنان، ثم يتعالون ويستقرون فوق أعرافها، فقال:

---

*[١] الجواهر السنية في الأحاديث القدسية / ص٨٠: (... يا بن آدم أكثر من الزاد إلى طريق بعيد، وخفف الحمل فالصراط دقيق، وأخلص العمل فان الناقد بصير، وأخر نومك إلى القبور، وفخرك إلى الميزان، ولذاتك إلى الجنة، وكن لي أكن لك...).

ـ أول تلك الأنوار هو الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتبعه أوصيائه بعده، ثم الأنبياء أولوا العزم وسائر الأنبياء ثم أوصيائهم، وتلك سيدة نساء العالمين يحاذي نورها نور خاتم الأنبياء. وتلك مريم العذراء مع مجموعة من النساء اللواتي كُنَّ من أفضل نساء عالم الدنيا في المرتبة بعد الزهراء البتول. لقد أزالوا كل العقبات في دنياهم، ولم يتركوا واحدة تعيقهم الآن من الوصول إلى الهدف والغاية من خلقهم، إلى رضوان الله وجنة لقائه...

اشتقتُ كثيراً للقاء تلك الأنوار، ولكن أين مقامي من مقامهم، وأنا لازلتُ في أول الطريق. عدتُ ثانية إلى عملي الصالح متسائلاً:

ـ وما هذا المكان المرتفع الذي وقفوا فوقه؟

ـ انه مكان مرتفع من الجنان، يشرف على الجنة والنار، ويقال له الأعراف..

قاطعته مستغرباً:

ـ الأعراف؟! وماذا يفعلون في مكان كهذا؟

ـ انه مقام وهبه الله لهم، وقد أوكل إذن ورود الجنة لهم، فهم الشهداء على أفعال الخلق، ويعرفون ظواهرهم وبواطنهم.

أطرقتُ قليلاً، ثم استأنفتُ الحديث معه بسؤالي منه:

ـ أيكونوا هم من قال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ** ﴾[١]؟

ـ نعم، فهم الرجال الذين يعرفون أهل النار بسيماهم، وأهل الجنة بسيماهم، وهذه المعرفة إنما هي بحقائقهم وصورهم الباطنية ودرجات استحقاقهم للجنة أو النار.

ـ وهل لهم حق الشفاعة في هذا الموضع؟

ـ نعم، في هذا الموضع تكون شفاعتهم، ولكن لا ينالها منهم إلا من ارتبط بهم في دنياه، وعرفهم وعرفوه، واتّبع سبيلهم، وخطى بخطاهم.

كنتُ أرى بعد الوجبة الأولى أُناس يقتحمون عقباتهم بسهولة، بالغة ثم يعبرون الصراط[٢] فُراداً فُراداً، ويصلون إلى الجنان، ولكن ليسوا بمرتبة رجال الأعراف.

---

[١]* من الشائع لدى عامة الناس أن أهل الأعراف هم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ولكن السيد الطباطبائي (قدس الله سره) في المجلد الثامن من تفسير الميزان ضمن تفسيره لهذه الآية رقم ٤٦ من سورة الأعراف، لا يؤيد هذا المفهوم، ويثبت بعد بحث طويل أن الأعراف من المقامات الإنسانية العالية التي تظهر يوم القيامة، وأهل الأعراف هم أصحاب تلك المقامات من الأنبياء والأولياء، يعرفون الناس بحقائقهم، ويشهدون على أعمالهم، ولهم منزلة الشفاعة فيهم.

[٢]* الأمالي / ص٢٤٢: (عن الصادق (ع) قال: الناس يمرون على الصراط طبقات، والصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبوا، ومنهم من يمر مشيا، ومنهم من يمر متعلقا، قد تأخذ النار منه شيئا وتترك شيئا).

نظرتُ إلى نفسي وقايستها مع أولئك، فرأيتُها تعتصر ألماً، وتحترق حسرة على ما فرّطتْ في دنياها، تتطلع للجنان تارة، ولعقبات طريقها تارة أخرى، أرى المسير وعراً جداً، ولا اعلم متى تكون نهايته والى أين؟ أيطول عشرات أم مئات أم آلاف من السنين؟ والأسوء من ذلك أني لا اعلم أن الوصول في نهاية الطريق سيكون للجنة أم للنار؟

على كل حال، لا بد من البدء بالرحيل ...

كانت الصلاة أول عقبات الطريق، وقد مكثتُ في محطاتها عدداً من السنين حتى تم تحميلي بكل ما قصّرتُ بحقها، كما إن صورة صلاتي الحقّة قد تجسمت وحضرت لتزيل عني بعض أشواك طريق اقتحامها، وألقت باللوم علي أن لم أراعي أدائها في أوقاتها، ولم أستحيي من ربي حين الوقوف بين يديه فيها، إذ كان فكري يهرب منه هنا وهناك!

قلتُ لها:

ــ كنتُ كلما حاولتُ أن أحفظ طائر الخيال في الصلاة أن لا يهرب مني لم أجد جدوى في ذلك، وما أشعر إلا وقد ذهب الفكر إلى أمر من أمور الدنيا، ثم يجول من غصن إلى غصن فيها تاركاً بدني يقيم الصلاة وحده، دون حضور للقلب معه.

أجابتني الصلاة وقد أنكرت علي كلامي، وأبطلت حجّتي:

ــ إن القلب إذا تعلّق بشيء وأحبّه، يكون ذلك المحبوب قبلة لتوجه فكره حيثما كان، فان منعه مانع وشغله شاغل عن التفكير فيه، والعيش معه، عاد مرة أخرى ليطير شطر محبوبه بمجرد ارتفاع المانع وقلة الاشتغال، وأنت يا سعيد ..

قاطعتها لأقول لها:

ــ إن محبوبي لم يكن سوى الله.

ــ من أحب الله لم يتركه وهو في حضرته وبين يديه، أليس كذلك؟

ماذا بوسعي أن أقول لها؟ لزمتُ الصمت ولم أجبها بشيء، فقالت:

ــ كان حبك للدنيا أكبر من حبك لله، وقد أنكرتَ على نفسك ذلك. كنتَ إذا حان وقت الصلاة وكبّرتَ تكبيرة الإحرام مستنفراً كل قواك لأن تكون مع الله، سرعان ما يطير قلبك إلى محبوبه وهو الدنيا، ليتعلق بها مرة أخرى. وصلاة كهذه لم تقربك من مقام الحق تعالى[1]، ولم تزيل عن قلبك الظلمة والكدورة التي كنتَ تشكو منها.

توقفتْ قليلا لتعطيني فرصة التعليق على كلامها، فسألتها:

---

[1]* مستدرك الوسائل / ج٣ / ص٥٩: (عن النبي (ص): إن من الصلاة لما يقبل نصفها، وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما يُلف كما يلف الثوب الخلق، فيُضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلتَ عليه بقلبك).

ـ إذن سبب فرار الفكر وطائر الخيال من الصلاة هو التعلق بالدنيا؟

ـ نعم.

ـ وماذا كان بوسعي أن أعمل كي أتخلص من حالة كهذه؟

ـ كان عليك أن تخلع شجرة حب الدنيا بجذورها من قلبك، بالتفكر والتدبر في حقارتها، وزوالها مقابل عظمة الآخرة وأبديتها، و كان عليك أن تعرف الله، وتستحضر عظمة من تقف بين يديه، وحقارة شأنك أمامه[1]، وكلما ازددتَ معرفة بالله، ازددتَ حبا له وتوجهاً إليه وتعلقاً به، وكان تصديقك به صادقاً، وتوحيدك له كاملاً، أما علمتَ أن أول الدين معرفة الله، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده[2].

لم يكن من الهيّن تجاوز هذه العقبة، ولكني تجاوزتها بعد عناء كبير، ووقت طويل دام سنين وسنين، وبذلك تخلفتُ عن الكثير ممن كنتُ أحسبهم قرناء لي في الدرجة والمقام.

---

[1]* يمكن لمن يعاني مشكلة هروب الذهن في الصلاة أن يراجع كتاب [الآداب المعنوية للصلاة] للسيد الخميني (قد) / الفصل ١٠ إلى ١٢، إذ شرح فيه وبأسلوبه العرفاني اللطيف أسباب هروب الذهن في الصلاة وكيفية علاجه.

[2]* نهج البلاغة / خطبة ١: (أول الدّينِ معرفتُهُ، وكمالُ معرفتِهِ التصديقُ بهِ، وكمالُ التصديق بهِ توحيدُهُ، وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ له،...).

كنتُ ما أن اخرج من عقبة حتى أقع في أخرى، وكنتُ أتمنى العدم والفناء في كثير من مواقف تلك العقبات لشدتها، إذ كان يرافق كل منها عذاب روحي وجسدي، وإني كنتُ في عالم الدنيا لا أطيق الوقوف ساعة تحت أشعة وحرارة شمسها، فما يكون حالي عند الوقوف سنين في صحراءٍ محرقة لا ظل فيها ولا ظليل! إذ لا يوجد منزل كمنازل الدنيا التجأ إليه، ولا شجرة أستظل تحتها، ولا حتى خيمة ألوذ بها، وكلما وضعتُ قدمي على أرضها احترقت فأرفعها لأضع الأخرى، وهكذا كان حال عموم أهل المحشر.

كان عملي الصالح يصاحبني أحياناً ويفارقني أخرى، وذات مرة سألته عن عقبة مساعدة الفقراء والمساكين، فتعجب من سؤالي، وقال:

ـ ما الذي يذكّرك بهذه العقبة؟ وما وجه سؤالك عنها من بين جميع العقبات الأخرى؟

ـ إني لم أحصي جميع العقبات، بل الكثير منها كنتُ غافلاً عنها، وما كنتُ أتوقع يوماً أني سألاقيها، ولكن عقبة مساعدة الفقراء والمساكين ذُكرت في القران الكريم بقول الله تعالى: ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾.[1]

[1] البلد / ١١ – ١٥

كان يصغي إلى كلامي، وما أن انتهيتُ من تلاوة الآية حتى قال:

ـ لو تمعنتَ في هذه الآية، لرأيتَ أنها لم تذكر فقط عقبة مساعدة الفقراء، بل ذكرت عقبات أخرى وهي تخليص الناس من الرق والعبودية بمختلف أنواعها، والأخرى رعاية اليتيم وأداء حقوقه ابتداءً من ذوي الأرحام، وانتهاءً بعموم يتامى المجتمع، والأخرى مساعدة الفقراء والمساكين وسد حاجتهم من الطعام وغيره، ثم ذكرت عقبة الإيمان، والصبر، والرأفة بالناس، حيث الآية التي بعدها تقول: ﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾[1].

علمتُ أن العقبة القادمة هي عقبة صلة الرحم، فاستحضرتُ علاقتي بأقربائي وأهل بيتي، وقلتُ لعملي الصالح:

ـ إنني كنتُ أصل رحمي، وكان لدي برنامج تفقد القريب والبعيد منهم، كنتُ أساعد المحتاج منهم، وأرشد من يلزم الرشاد. كنتُ لا أبخل عن مدّ يد العون إلى أي شخص يطلب العون مني...

قاطع كلامي بقوله:

ـ إذا كنتَ كذلك، فلماذا أراك قد اصطحبتَ الخوف معك، فهل كان يخالط أعمالك رياء و حبّ سمعة بينهم؟

---

[1]* البلد / ١٧

ـ الله يشهد أني كنتُ مراقبا لنفسي في كل أعمالي هذه، وقد وبّختها في كثير من مواقع صلة الرحم التي كنتُ أحسُّ قد خالطها شيء مما تقوله، أو من الشعور بالمنّة والتفضل عليهم. كنتُ أحادث نفسي وأصارعها، وفي آخر المطاف أقنعها بأن الفضل أولاً وآخراً لله تعالى، فهو المتفضل علي برزقه أن مكنني من مدّ يد العون لهم، وهو الذي أعطاني العافية في الجوارح لعيادتهم وتفقدهم، وهو الذي وهبني العزّة والكرامة بينهم، فأي فضل لي عليهم؟

ـ إذن لم تخبرني عن أي شيء يخيفك في تجاوز واقتحام هذه العقبة؟

ـ المشكلة أن الحساب هنا ليس كحساب عالم البرزخ، فهو دقيق للغاية، ولا يترك ذرة إلا وادخلها في المحاسبة والميزان، حتى دقائق الأفكار، وذرّات خواطر القلوب، وهذا ما شاهدته في العقبات الســـابقة، إذ واجهتُ صغائر أعمال ما كنتُ أتصور يوما أن أُحاسَب عليها.

تقدّمنا باسم الله لاقتحام عقبة صلة الرحم... ولم أواجه بحمد الله مطبّات تعرقل مسيري فيها، ورأيتُ الكثير من الخلق قد تخلفوا عني وحُبسوا فيها.

أكملنا جميع متطلبات العبور، واقتربنا من الخروج منها و..

يا الهي، ماذا أرى؟! إني أرى والدتي، نعم هي بعينها! اقتربتُ منها أكثر فرأيتها جالسة تبكي، قد بدا عليها أثر إرهاق وألم شديدين.

ناديتها باسمها فالتفتتْ نحوي، وفوجئتْ واضطربتْ كثيراً حينما رأتني واقفاً أمامها. أحسستُ أن الخجل والحياء الشديدين قد خالجاها، وقد ترددتْ في جوابي، فناديتها مرة أخرى:

ــ أماه أنا سعيد، ابنكِ في الدنيا، هل تعرفيني؟

رفعتْ رأسها، وأجابتني بصوت ضعيف:

ــ كيف لا أعرفك يا سعيد.

ــ أراكِ شاحبة الوجه، سيئة الحال، فما الذي حدث؟

تحسرتْ، وجرت دمعتها من عينيها، وقالت:

ــ أتذكر خالتك يا سعيد؟

ــ نعم أذكرها، أعلم أنكِ لمدة يسيرة كنتِ لا تتحدثين معها.

ارتفع بكائها، وقالت:

ــ ليتني ما قطعتُ علاقتي معها وهي أختي، ليتني ما أصغيتُ للشيطان الذي كان يمنعني من الوصول اليها، ليتني قبّلتُ قدميها بدلاً عن الإعراض عنها حينما أتتني إلى منزلي تريد المصالحة، وتحذّرني من عواقب الآخرة.

صمتت قليلاً، ثم عادت تقول والحسرة تحرقها، والندامة تكاد تميتها لولا خلود الحياة في عالم القيامة:

ــ ليتني أصغيتُ لكلامكَ يا سعيد يوم أخذتَ بيدي تجرها وتقول: (لنذهب إلى بيت خالتي نصالحها، ونزيل الكدورة بينكِ

وبينها). آه.. ليتني سحقتُ تكبّري، وذهبتُ معك يوم ذاك وقبّلتُ قدميها قبل يديها.

كنتُ أعلم أن تأنيبها لنفسها هذا لا يزيدها إلا عذاباً فوق عذابها، ولكن ماذا عساي أن افعل لها. ابتعدتُ عنها، وتركتها تتلوى ألماً، وراحت تجر بشعرها، وتقطّعه، وتنادي:

ــ لا تتركني يا سعيد، أنا أمك، ألستُ أنا التي تحملتُ العناء من أجلك، وسهرتُ الليالي في رعايتك؟

تألمتُ من كلامها، وعدتُ إليها لأقول لها:

ــ أماه، إن كل إنسان هنا رهين عمله، وأنا أيضاً رهين عملي[1]، لا أتمكن من التقدم خطوة واحدة إلا إذا كانت أعمالي وملكاتي تؤهلني لذلك، ولكن لعلي أتمكن من الشفاعة لك في المواقف الأخيرة إن كانت درجتي آنذاك تسمح لي، ودرجتكِ تجيز لكِ استقبالها.

غادرتها هذه المرة دون عودة، وابتعدتُ عنها رغم سماعي لصراخها وندائها لي.

خرجتُ من عقبة صلة الرحم، ودخلتُ في عقبة المسؤولية، دخلتُ فيها ولا مناص من الدخول، ولا مجال للفرار منها...

---

[1] المدثر / ٣٨: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾.

تلقتني ملائكة الغضب بأشكالها المخيفة المرعبة وهيئتهم الموحشة! فأصابني خوف عظيم منهم، وأصبح بدني يرتجف لرؤيتهم، ويرتعش كلما نظرتُ إليهم.

ضربني أحدهم بسوطه فوقعتُ أرضاً، وانشل بدني عن الحركة. نظرتُ لما حولي أبحث عن عملي الصالح فلم أجده، بل رأيتُ آلاف من الخلق قد سقطوا أرضاً، وحال بعضهم مثل حالي، والكثير منهم أسوَء مني.

وبجهد جاهد، رفعتُ رأسي لعلي أجد من يسعفني ويترحم على حالي، ولكني رأيتُ شخصاً قبيحاً، أسود اللون من أعلاه لأسفله، قائم الشعر مكشراً، قد برزت أنيابه الصفراء، ونزلت إلى نصف بدنه، وهو ينظر إلي ويقهقه بصوت عالي، وما أن رفعتُ رأسي، واستقر في مكانه حتى لطمه برجله، ولم يكتفي بذلك بل راح يضغط على وجهي ويسحقه، ويقول:

ـ هل ظننتَ أنك لا تقع في مخالبي مرة أخرى، أين عملك الصالح لينجيك؟ لقد هرب ولا ترى له أثراً، وبقيتَ وحيداً في قبضتي.

ما كان لدي القدرة على الكلام معه كي أسأله من يكون، ولكني ظننتُ أنه خلاصة أعمالي السيئة، وقد كان كما ظننتُ.

أحسستُ بذلة موقفي أمام هذا القبيح وقد استفحل علي، ولا سيما قد غمرتني رائحته النتنة التي لا توصف نتانتها، ولا يستطيع أحد تحملها.

قال لي مستهزئاً:

ـ كانت تأخذك نشوة الرئاسة عندما يُقال لكَ مدير مشاريع، وتفرح كثيراً بهذا الأسم، وتحس بالعلو على غيرك ممن دونك في المسؤولية والوظيفة.

أحسستُ بزيادة ضرب الأقدام على وجهي وصدري، ولا أدري أهي منه أم من أعوانه الذين أتوا ليشاركوه فرحته، ولا أعلم أين ذهب ملائكة الغضب، إذ لم أعد أسمع لهم صوتاً، ولا أحس لهم أثراً، وأصبحتُ عاجزاً تماماً عن أداء أي شيء، حتى عن رؤيتهم والتكلم معهم...

مضت فترة طويلة وأنا بهذه الحالة، حتى أتى الوقت الذي أحسستُ فيه بأن شخصاً ما يجرني، وجهتُ نظري نحوه وإذا بهم ملائكة الغضب قد عادوا، فسألتهم عما يريدون فعله بي، فجاء الجواب أنه يُراد بي إلى غرفة المحاسبة التي كثيراً ما دخلتها في العقبات السابقة.

دخلتُ غرفة المحاسبة وقد حضر الجميع من متهم، وشهود، وقضاة، ومحامين...

لا تتصوروها كمحكمة عالم الدنيا في مصاديقها، بل في مفاهيمها فقط، فالمتهم أنا، ولكن ليس كمتهمي محاكم الدنيا، إذ كل سمات بدني تشير إلى تهمتي، والشهود ليسوا كشهود الدنيا يُحتمل فيهم الصدق والكذب، بل لا مجال للكذب والخداع هنا، ونفس أعضاء بدني تشهد، والأرض تشهد، والملكان المرافقان لي في الدنيا على يميني وعلى يساري يشهدان، وقادة الأمة يشهدون من الأئمة والأولياء. أما المحامين فهم أعمالي الصالحة وملكاتي الحسنة! أما القضاة فهم من الملائكة الذين لا يأخذون رشوة، ولا تؤثر فيهم قرابة أو صداقة، وهم موكّلون من الله تعالى الحاكم المطلق الذي هو شاهد على أعمال الخلائق، بل على خواطر أفكارهم، وهمسات قلوبهم ونياتهم، قبل أن يشاهد الشهود ما وقع.

عرض القاضي علي كثيراً مما قصرتُ به في مسؤولياتي تجاه عائلتي والمجتمع الذي كنتُ فيه، وحوسبتُ على ذلك حساباً دقيقاً، حتى وصل المطاف بنا إلى فترة تحمّلتُ فيها مسؤولية إدارة قسم المشاريع في الشركة التي كنتُ أعمل فيها، وليتني ما تحملتها ولا قبلتُها.

سألني القاضي عن سبب قبولي مسؤولية إدارة المشاريع لفترة شهرين حتى يعود مديرها من سفره. أطرقتُ قليلا، ثم أجبته:

ـ كان مدير الشركة قد أصرّ كثيراً على قبول طلبه، وعدم رفضه، لأنه لم يجد غيري شخصا آخر نزيهاً يعتمد عليه، ولهذا فإني إستحييتُ منه، وما رفضتُ له طلبه.

ـ وما وجه شعورك بشيء من الفرح الذي دخل قلبك حين معرفتك بالأمر، أهو لأجل أن ذلك يقربك من الله؟ أم لبروز نشوة حب الرئاسة لديك؟

لم أجبه، فأذن القاضي لأحد المَلَكين الذين كانا يرافقاني في الدنيا، فقال الملك الأول بعد أن توجه نحوي:

ـ نحن الملكان اللذان كنّا معك في الدنيا حيث ما كنتَ، أحدنا كان على يمينك، والآخر على يسارك، نراقب أعمالك، ونسجّل خواطرك، ولا يفوتنا شيء عنك. نحن الذين قال الله عنّا: (**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)[1].

قلتُ سبحان الله، كيف يخفى على الله شيء، وأنتما ترافقاني في الدنيا أينما ذهبتُ وخلوتُ.

أجاب الملك الآخر:

ـ الله لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، سواءً كنا معك أم لم نكن، فهو يعلم ما في نفسي ونفسك، وقد محى عنك

---

[1]* ق / ١٧-١٨

الكثير مما ثبتناه عليك من الذنوب والخطايا، وأنسانا إياها لأنك تبتَ منها، إذ سترها عليك في دار الدنيا وفي الآخرة، ولا يعلم بها الآن أحد غيره.

ـ إذن فما وجه مرافقتكما لي مع إن الله يعلم كل شيء بدونكما؟

أجاب الملك:

ـ إن الله أراد أن نكون عليك حجة وشهوداً على أعمالك ونياتك، كما إنه أبى أن يُجري الأمور إلا بأسبابها، رغم قدرته على إدارة الوجود وحده.

أخذتني العبرة، وسالت دموعي أسفاً على معصيتي لربي، ربي الذي ستر علي عيوبي وذنوبي التي تبتُ منها، وكم كان يناديني في القرآن، ويدعوني للتوبة، ويوعدني بالغفران والجنان، وسِتر الذنوب، وتبديل السيئات حسنات... لقد صدق ربي وعده ولم يخلفه.

توجه القاضي نحو الملك الرقيب، وطلب منه الاستمرار في الحديث، فاستجاب الملك، وقال:

ـ لقد استحضر سعيد ذكر الله تعالى في قلبه، ولكنه أيضا تخيّل نفسه يجلس خلف طاولة إدارة المشاريع، والمهندسون حوله مجتمعون، فأحس حينها بسعادة ورغبة فيما تخيله، وقد كان ذلك أحد الحوافز التي دفعته للقبول.

توجه القاضي إلى الملك الآخر، وسأله:

ــ هل كان لديه أيضا لحظة القبول قصد إصلاح وضع المشاريع، والحد من السرقات والفساد فيها؟

ــ نعم كان في قلبه ذلك أيضاً.

ــ وما كانت غايته وراء قصده هذا؟ هل كان قصد إصلاح المشاريع خالصاً لله وطلباً للآخرة، أم كان لأجل أن يُقال له أنه مهندس نزيه مخلص؟ أم لأجل أن يرضى عليه مدير شركته؟

كنتُ مندهشا من دقة السؤال والجواب الذي يدور بين القاضي والملك الرقيب الذي أجابه بقوله:

ــ كانت نسبة إخلاصه لله في لحظة الموافقة ٧١، اختلط معها حب الرئاسة بدرجة ٤٢، وحب السمعة بدرجة ١٥، وإرضاء مدير شركته بدرجة ٣١.

توقف الملك عن الكلام، فبادره القاضي بالسؤال منه مرة أخرى:

ــ وهل كانت هناك نيات أخرى في قلبه؟

أجاب الملك سريعا:

ــ نعم كان لديه طموح في زيادة راتبه أيضا.

ــ وكم كانت درجة هذه النية لديه؟

ــ أحد عشر درجة.

لم أكن أفهم ما يقصدوه من هذه الأرقام والدرجات، ولكني كنتُ مبهوراً جداً من دقة الأسئلة وتشعبها، وقلتُ في نفسي الويل لي، هذه

كلها عن لحظة الموافقة على تحمل مسؤولية إدارة المشاريع، فكيف سيكون الحساب إذن على ساعات وأيام ما بعد تولي هذه المسؤولية؟!

لم ينتهي بحثهم حول اللحظة المشئومة، إذ عاد القاضي يسأل ولكن هذه المرة مني، إذ توجه نحوي، وقال:

ـ ماذا كان هدفك من زيادة راتبك حينما نويتَ قبول إدارة المشاريع؟ هل كنتَ تنوي صرف فرق الراتب في أعمال الخير؟ أم لتحسين معاش عائلتك؟ أم لشراء شيء ما كنت بحاجة إليه؟ أم ماذا؟

تحيرتُ في إجابته، وأنى لي التذكر للنوايا التي كانت لدي في موقف مضى عليه ما مضى! لذا أشرتُ إلى أحد الملكين وأوكلتُ أمر الإجابة إليه.

أجاب الملك بما أجاب...

واستمرت المحكمة في مرافعاتها، ودخل البحث فيها عن مسائل دقيقة للغاية من قبيل كيفية إدارتي للمشاريع، والتعامل مع المهندسين والعمال والفنيين، ومن قبيل حالات التكبر التي كانت تراودني، ورؤية أفضلية نفسي كمسؤول على غيري.

ودار البحث أيضاً عن الأموال التي تم صرفها بإمرتي، هل كانت في موردها الصحيح أم بإسراف في بعضها، وهل تم إعطاء العمال والمقاولين حقوقهم بصورة كاملة وعادلة دون إفراط وتفريط. وفي كل ذلك كان هناك شهود على الأفعال، إذ شهدت الأرض على

بعضها، وفي الأخرى خُتم على فمي، ونطقت أعضاء بدني لتقول الذي تماهلتُ عن أدائه في الدنيا، ولم أعطه تمام حقه.

وأخيراً وبعد جهد جاهد، وعناء كبير، ومدة طويلة دامت سنين وسنين من الألم والحرقة، تجاوزتُ عقبة المسؤولية، وسُجّلت لي نتيجتها الأخيرة لتضاف مع نتائج العقبات السابقة واللاحقة، إذ على ضوء مجموعها سيكون الحكم النهائي، وتحديد مصير كل إنسان أهو للجنة والنعيم، أم للنار والعذاب الأليم ...

وتلت ذلك عقبات كثيرة في الطريق كان علي المرور في بعضها، والمكث في الأخرى، حتى وصلتُ إلى عقبة الحج والعمرة، ولم تكن لدي مشكلة كبيرة فيها، إذ كنتُ قد أديت مراسمهما بعد التوبة إلى الله، كما إني كنتُ دقيقاً في تطبيق أحكامهما، وجعلتُ حينها سفري إلى مكة سفر هجرة إلى الله.

فوجئتُ برؤية أحد رفاقي الذين كانوا معي في سفر الحج وهو بحال سيئ جدا، إذ كان يتلوى ألماً، وتحرقه الحسرة والندامة. اقتربتُ منه, وناديته باسمه:

ـ حامد، ألستَ أنتَ حامد الذي رافقني في سفري إلى مكة والمدينة؟

التفتَ نحوي وهو في حالة يُرثى لها، يبكي مرة, وينظر لي أخرى، ثم قال متلكئاً في كلامه:

ــ نعم أنا هو حامد الذي تراه أمامك، ليتك تساعدني وتنجيني مما وقعتُ فيه. إنهم يقولون إن جزائي سيكون مئة عام في نار جهنم، فكيف بي وأنا لا أطيقها لحظة واحدة!

ــ لكنك أديتَ واجبات الحج معي، فلماذا هذا الجزاء؟

أجاب، وهو في حالة يأس وانكسار شديد:

ــ كان بإمكاني الذهاب للحج في سن الخامسة والعشرين من عمري، ولكني لم أسعى إليه حتى تجاوز عمري الأربعين.

ــ ولكنك ذهبتَ في سن الأربعين؟

ــ صحيح ذلك، كنتُ أعتقد جهلا كما يعتقد أغلب الناس أن الحج لا يجب على الشاب، وأن لديه الخيار في تأخيره إلى أواخر عمره. وعندما أخبرني أحد أصدقائي في وقتها بوجوب الحج عليَّ، وعدم جواز تأخيره، تماهلتُ فيه، ولم أسعى لتأديته.

جرت دموع الحسرة منه، وارتفع صوت بكائه، فسألته:

ــ وماذا حدث الآن؟

ــ الآن تبين لي أثر هذا التقصير، وأن التأخير والتماهل مع الاستطاعة معصية.

ــ ولكن ليس كل من كان يسعى للحج يحصل عليه.

ــ إن هذا العذر لم ينفعني هنا، إذ كان يجب علي الحد الأدنى، وهو السعي له بمجرد التمكن واحتمال الحصول عليه، سواءً بالقرعة أم بغيره[١].

تمسك بأطرافي متوسلاً بي علّني أنجيه من مأزقه الذي فيه، ولكني تركته، فماذا بوسعي أن أعمل له، ويكفيني الذي أنا فيه.

لم يبق شيء من عملي، وكلامي، وحركاتي، وفكري، إلا وحوسبتُ عليه، وفي جميع ذلك لم أكن أنكر أي تهمة وُجِّهت إلي، لأني مطمئن بصحتها، كما انه لا يوجد أي مجال لإنكارها. وفي مقابل ذلك كان خلاصة أعمالي الصالحة، وبعض من تلك الأعمال، تقف موقف الدفاع عني بمقدار قوتها التي وهبتها أنا لها في عالم الدنيا، وكان يؤخذ بدفاعها، بينما كنتُ أشاهد غيري ينكر بعض أعماله السيئة، ويصرخ ويتهم المحكمة بالكذب والزور، ولكن هيهات من دوام هذا الإنكار، إذ سرعان ما يُمنع من النطق ليشهد الشهود كما

---

[١]* لاحظتُ الكثير من شباب مجتمعنا الإسلامي سواءً من الرجال أو النساء لا يبادرون بتسجيل أسمائهم في بعثات الحج، رغم قدرتهم الصحية والمالية، وعدم وجود مانع يمنعهم من الذهاب، وسبب ذلك أنهم لا يعلمون بوجوب الحج الفوري عليهم عند تمكنهم منه، وهذا خطأ فادح في الفهم وجهلا بالحكم، إذ إن فقهائنا يوجبون السعي للحج على البالغ من النساء والرجال، ويقولون بـــ: (وجوب الحج بعد تحقق شرائطه فوري، بمعنى وجوب المبادرة إليه في العام الأول من الاستطاعة، ولا يجوز تأخيره).

قال الله تعالى: (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)[1].

---

[1]* يس / ٦٥

الفصل الخامس :

سقوطٌ

في الهاوية

انتهت العقبات وما كادت تنتهي لولا أعمالي الصالحة، وملكاتي الحسنة التي كنتُ استغيثُ بها عند كل شدة وبلاء. أخبروني أن نتيجة كل هذه العقبات سوف تكون في آخرها، ولكنني لا أرى شيئا يدل عليها، ترى أين أجدها؟

سألتُ أحد الملائكة عن هذا الأمر، فقال:

ـ ﴿**اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾[١].

قلتُ له متسائلاً:

ـ إنني لا أرى كتاباً حتى أقرأه، فأين هو؟

ـ إن نفسك هي كتاب أعمالك[٢]، كما إنها سوف تظهر حين عبورك الصراط الذي يمر في وسط جهنم، وأنت الآن على مشارفه، ولا يتخلف أي إنسان عن عبوره، حتى الأنبياء والأولياء والمؤمنين، فضلاً عن الكافرين والفاسقين، فأما من كان مصيره الجنة، فسوف

---

*[١] الإسراء / ١٤

*[٢] بحار الأنوار / ج ٦٤ / ص١٢٨: (وقال بعض أرباب التأويل: كل ما يدركه الإنسان بحواسه يرتفع منه أثر إلى روحه، ويجتمع في صحيفة ذاته وخزانة مدركاته، وكذلك كل مثقال ذرة من خير أو شر يعمله يرى أثره مكتوبا ثمة، وسيما ما رسخت بسبب الهيئات وتأكدت به الصفات وصار خُلقا ومَلَكة. فالأفاعيل المتكررة والعقائد الراسخة في النفوس وهي بمنزلة النقوش الكتابية في الألواح كما قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾، وهذه الألواح النفسية يُقال لها صحائف الأعمال...).

يسلكه دون السقوط في الهاوية التي تحته، وأما من كان مصيره النار فسوف يقع ويمكث فيها[1].

التفتُ إلى عملي الصالح بعدما أصابتني رجفة وخوف عظيم، ورحتُ أنظر إليه قلقاً مضطرباً، فقال:

ـ ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً*ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً** ﴾[2].

عظم خوفي واضطرابي، وأمسكتُ بعملي الصالح ملتمساً إياه أن لا يتركني وحدي، فإني أرى الصراط حاد كالسيف، وأرى جهنم سوداء مظلمة تحته.

كنتُ أشاهد العديد قد ركبوه بأمل العبور إلى الضفة الأخرى، ولكن انحرفوا عنه، وسقطوا في جهنم التي كانت تلتهم كل من يسقط فيها، فتأكله نارها، وتغمره ظلمتها، حتى لا نرى له أثراً إلا صراخه وعويله، وبين فترة وأخرى ينادي المنادي لجهنم: (هل امتلأتِ)، فتجيب وتقول: (هل من مزيد)[3].

---

*[1] تفسير الميزان / ج٨ / ص١٢٧ : (ثم الوارد في ظواهر الحديث أن الصراط جسر ممدود على النار يعبر منه أهل المحشر من موقفهم إلى الجنة، فينجي الله الذين آمنوا ويسقط الظالمون من الناس في النار...).

*[2] مريم / ٧١-٧٢

*[3] ق / ٣٠ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

في مقابل ذلك كنتُ أشاهد أيضاً أناساً تمكنوا من العبور إلى الضفة الأخرى، ولم يزّلوا عن الصراط، رغم تفاوت فترات عبورهم وصعوبة نجاتهم، فكان البعض تلفحهم النار بعد مساسها لهم، وهم على الصراط، وبعضهم من تحرق أطرافهم فيصرخون، وبعضهم من يعبر الصراط بسرعة فلا يحسّ بتاتاً بحرارة ما تحته... وهكذا كان الحال لمن سبقوني، إذ كلٌّ حسب عمله ودرجته التي خرج بها من الحساب.

أقعدني الخوف والقلق العظيم الذي أحاط بي، فجلستُ أبكي بكاءً شديداً، ورفعتُ يدي متضرعاً إلى الله، داعياً إياه: (**ربي ها أنذا بين يديك خاضع ذليل، إن تعذبني فإني لذلك أهل وهو يا رب منك عدل، وإن تعفو عني فقديماً شملني عفوك، وألبستَني عافيتك، فأسألك اللهم بالمخزون من أسمائك، وبما وارته الحجب من بهائك، إلا رحمتَ هذه النفس الجزوعة، وهذه الرمّة الهلوعة، التي لا تستطيع حر شمسك فكيف تستطيع حر نارك، والتي لا تستطيع صوت رعدك فكيف تستطيع صوت غضبك**).[1]

جاءني النداء من العلي الأعلى فكان معناه: (أي عبدي، إني خلقتُ الأشياء لأجلكَ وخلقتكَ لأجلي[2]، بمشئتي كنتَ أنتَ الذي تشاء

---

[1]* الصحيفة السجادية الكاملة] للإمام زين العابدين (ع) / دعائه في الرهبة.

[2]* الجواهر السنية في الأحاديث القدسية / ص٥٧ : (وجاء في الأحاديث القدسيات إن الله يقول: عبدي خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وهبتك الدنيا بالإحسان والآخرة بالإيمان).

لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنتَ أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليكَ قويتَ على معصيتي، وبسوء ظنّك بي قنطتَ من رحمتي، لم أدع تحذيرك، ولم أكلّفك فوق طاقتك، ولم أحمّلك من الأمانة إلا ما قدِرتَ عليه[1]).

ارتفع بكائي بعد سماعي خطاب الجليل لي، فناديته معترفا بكل ما اقترفتُ من المعاصي والذنوب أن يا ربي: (**أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته... أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء، ولم أُراقبك في الملاء، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيده اجترى، أنا الذي عصيتُ جبار السماء، أنا الذي أعطيتُ على معاصي الجليل الرشا، أنا الذي حين بُشرتُ بها خرجتُ إليها أسعى. أنا الذي أمهلتني فما ارعويتُ، وسترتَ**

---

*[1] الجواهر السنية في الأحاديث القدسية / ص٥٧ : (عن النبي (ص) انه كان يروى حديثه عن الله عز وجل قال: قال الله يا بن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبعصمتي وعفوي وعافيتي أديت إلي فرائضي، ... لم ادع تحذيرك ولم آخذك عند غرتك، ولم أكلّفك فوق طاقتك ولم أحمّلك من الأمانة إلا ما قدرتَ عليه، رضيت منك لنفسي ما رضيت به لنفسك مني).

علي فما استحييتُ، وعملتُ بالمعاصي فتعديتُ، وأسقطتني من عينك فما باليتُ)[١].

جاءني النداء مرة أخرى: عبدي ماذا تريد مني؟

ــ أي ربي أنت تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. أريد النجاة من النار.

تأخر الجواب هذه المرة من العلي الأعلى، فخشيتُ أن يكون قد أعرض بوجهه الكريم عني، فناديته: (**إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد، ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرّض، ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي، وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي، وغرّني سترك المرخى علي)**[٢].

ما أن أكملتُ مناجاتي حتى أطرق وجودي كله جواب الملك القدّوس: (إني أكرمتُ أوليائي بأن أعطيتهم مقام الشفاعة لخلقي[٣]، فالتمس شفاعتهم، وأنا أشفع الشافعين).

قمتُ من مقامي بسم الله الرحمن الرحيم، متوكلاً على الحي القيوم، ملتمسا النجاة بحبي وإتباعي للنبي وآله، فخطوتُ خطوة بعد

---

*[١] مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين (ع).

*[٢] مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين (ع).

*[٣] وسائل الشيعة – آل البيت / ج١٤ / ص٤١١ : (عن معاوية بن وهب قال: استأذنت على أبي عبد الله (ع) فقيل لي: ادخل فدخلتُ فوجدته في مصلاه، فجلستُ حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه وهو يقول: يا من خصنا بالكرامة، وخصنا بالوصية، ووعدنا الشفاعة...).

خطوة نحو الصراط، وأخبرتُ عملي الصالح بأن أعمالي وملكاتي أوصلتني إلى هذا المقام والدرجة، وإني سأمضي أملاً بالشفاعة من محمد وآله، ولا أظن أنهم يبخلون بشفاعتهم لي، لأني ما برحتُ أمشي على هداهم في الدنيا، وأخطو خطاهم، وما خلا قلبي من حبّهم.

تقدمتُ لأضع القدم الأولى فوق الصراط، فسمعتُ نداءاً من عملي الصالح ينادي باسمي، ويقول:

ــ سعيد، احذر أعمالك السيئة أن تزلك عن الصراط، فتقع في هاوية العذاب.

التفتُ إليه، وأجبته:

ــ إن شاء الله.

عزمتُ على المُضي، فسمعته ينادي مرة أخرى:

ــ سعيد، لا تخدعك المظاهر، وانظر إلى حقائق الأمور، ولا تغرّنك الدنيا بمغرياتها وزينتها.

استغربتُ من كلامه، فعن أي دنيا يتحدث، وقد ولّت وأدبرت؟! لا أعلم! على كل حال، وضعتُ القدم الأولى ولســـــاني يردد: (**يا محمد يا علي، يا علي يا محمد، إكفياني فإنكما كافيــانِ، وانصراني فإنكما ناصرانِ**).

أصبحت لي جرأة على التقدم والعبور، فوضعتُ القدم الثانية، وأنا أتلو الآية الكريمة: ﴿ **وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**

وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيـــلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[١].

وضعتُ القدم الثالثة، وقدّمتُ الرابعة أملاً في المضي أكثر، إذ رأيتُ نفسي لا تزال بخير، ولم أزلّ عن الصراط حتى الآن، ولكن...!

ولكن فوجئتُ بظهور القبيح الأسود أمامي. آه إنه خلاصة أعمالي السيئة ظهر مرة أخرى ليوقعني في الهاوية. يا إلهي، إنه يقف في مسيري، ولا مجال للفرار منه، تقدم نحوي، ووقفتُ أنا في مكاني كالخشبة اليابسة، أنظر إلى الصراط فأراه كالشعر في دقته، وكالسيف في حدّته، وأنظر لما تحته، فأرى جهنم سوداء مظلمة ملتهبة، تنادي هل من مزيد. وصل بالقرب مني، فسألته:

ـ ماذا تريد مني في هذا الموقف؟

ـ أريد أن أوقعك في النار لتحترق فيها.

ـ لماذا؟

ـ اسأل نفسك قبل أن تسألني الآن.

ـ وكيف؟

ـ أما كنتَ تعلم أن عمل السيئات يدخلك النار، ألم يقل لك ربك:

(**وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا**

---

[١]* الأنعام / ١٥٣

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[1]. إذن فلا تلومني ولم نفسك، وإنما معاملتي لك هي طبق القانون التكويني الذي وضعه الله لخلقه، وقد أرسل لكم في الأرض من يبلغكم به، ويحذركم منه.

أبرز أنيابه الصفراء مقهقها بصوت عالٍ، فخرجتْ منه رائحة كريهة نتنة. تنفرتُ منه، وقلتُ سبحان الله هذا من صنع نفسي!

أخرج سوطه، وراح يضربني به حتى تحركت قدمي وزلّت عن موضعها، وأصبحتُ على وشك الوقوع، فناديتُ بأعلى صوتي يا زهراء...

بصعوبة بالغة أرجعتُ قدمي إلى موضعها بعد أن لفحتني جهنم ببعض نيرانها. وقفتُ حائراً بين العودة إلى ما كنتُ عليه، وبين السير والتقدم للأمام. نظرتُ أمامي، وإذا بامرأة حسناء جميلة واقفة على الصراط! تمعنتُ فيها جيداً فرأيتها قد لبست أنواع من الحلي، ولوّنت وجهها بألوان متباينة!

أما القبيح فلم يغادرني، بل راح يحثني على النظر إليها، والتمتع بجمالها، وكدتُ أفعل ذلك، لولا تذكري كلام عملي الصالح حين غادرته، إذ قال لي: (لا تخدعك المظاهر، وأنظر إلى حقائق الأمور...)، فيا ترى ما هي حقيقة هذه المرأة، وما هو باطنها

---

[1] * النمل / ٩٠

وغايتها؟ أتكون كالأفعى ظاهرها ناعم أملس، وباطنها سم قاتل؟ لا أعلم.

رفعتُ رأسي فوقع نظري عليها مرة أخرى، وإذا بها تبتسم وتشير بأناملها نحوي، وتدعوني للإقبال عليها. وبينما كنتُ حائرا في أمرها، وإذا بي أسمع صوت القبيح يعلو، ويقول:

ـ لا تضيّع هذه الفرصة، تقدم نحوها وتمسك بها، وسوف تأخذك بأمان إلى الضفة الأخرى، سوف تسعد معها سعادة عظيمة، فما بالك متردداً في أمرها؟

سألتُه مستغرباً من كلامه:

ـ كنتَ دائما تتوعدني بالعذاب والنار، فلماذا هذه المرة تدعوني للسعادة والنعيم؟!

أجاب سريعاً:

ـ إن أعمالك الصالحة وملكاتك الحسنة لم تترك لي مجالا لذلك، فيئستُ منك، لذا أردتُ إرشادك في نهاية مسيرتك إلى ما يسعدك، لعلك تذكرني بخير فيما بعد.

تقدمتُ نحوها خطوة بعد خطوة وأنا في حيرة عظيمة من أمري، متردداً بين الخوف منها، وبين الأمل بالنجاة بواسطتها، والسعادة معها. دنوتُ أكثر وأكثر حتى أصبحتُ قريبا منها، فرأيتها نثرت شعرها، وأظهرت زينتها، وأشارت لي بالتقرب منها.

دنوتُ ثم دنوتُ، حتى وقفتُ أمامها، فوضعتْ يديها الناعمتين على وجهي، ومسحتْ عليه، فأحسستُ بلذة في ذلك وقد خالطه الحذر والخوف منها، وخصوصا بعد أن ارتفع صوت القبيح مقهقهاً فرحاً، فقلتُ في نفسي: عجباً أن يفرح هذا القبيح لسعادتي! لابد لباطن هذا الأمر أمر آخر.

قررتُ تركها وعدم الذهاب معها إن طلبت مني ذلك، لذا قلتُ لها:

ـ افتحي الطريق أمامي كي أسلكه وحدي، فإني لستُ بحاجة إليكِ.

قالت، وهي ضاحكة ساخرة مني:

ـ هيهات لك ذلك، كيف أتركك وقد وقعتَ في مخالبي؟!

قلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

قالت:

ـ أنا الدنيا.

ـ وماذا تفعلين هنا؟ لقد انتهى دوركِ بعد أن غررتي بزينتك الكاذبة ما لا يحصى من خلق ربي[1].

---

[1]* نهج البلاغة / رسالة ٦٨ : (من كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسي: أمَّا بَعْدُ فإنما مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيّةِ: ليّن مَسّها، قاتِلٌ سُمُّها، فأعرِض عَمَّا يُعجبُكَ فيها لِقلّةِ ما يَصْحَبُكَ مِنها، وضَعْ

ضحكت مرة أخرى، وقالتْ:

ــ وخدعتكَ أنت أيضاً، أليس كذلك؟

ــ لا أظن ذلك، وليس لديكِ دليل عليه.

ــ أعظم دليل على ما أقول هو إقبالك نحوي الآن، وهذا الإقبال إنما هو تجسم لتعلقك بي في عالم الدنيا، ولو كان غير ذلك لَما تمكنتُ من خداعك وجذبك وأنتَ على الصراط.

ــ وماذا تريدين فعله معي؟

ــ إن كل من يتعلق بي، ويخلد إلى الأرض، ويعمل لأجلي، ظناً منه أني دار مقر لا ممر، سوف يسقط في الهاوية، وتكون النار مستقراً له في الآخرة، ومقدار العذاب فيها إنما يتبع درجة تعلقه بي.

قالت ذلك، ودفعت بي جانباً، فزلّت قدمي عن موضعها، وتحركت الأخرى، وخرجتُ عن الصراط لأسقط في هاوية النار...

لحظات لا تنسى، إنها لحظات السقوط من الصراط متجهاً نحو جهنم... نعم إنها لحظات الوقوع في النار، وقد بلغتْ فيها حسرتي وندامتي ذروتها، وملامتي لنفسي قمتها، فقلتُ لها يا نفسي: أما كنتِ تعلمين أن من تغره الدنيا وزينتها يكون مصيره الآن ما أنا سائر إليه؟ أما كان الأجدر بكِ أن تستثمري ساعات الدنيا القصيرة بما ينجيك من ذلة وعذاب مواقف القيامة التي مضت، وما ينتظركِ أقسى

عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَيْقَنْتَ بهِ مِنْ فِراقِهَا وتَصَرُّفِ حالاتِهَا، وكُنْ آنَسَ مَا تَكونُ بها أَحذَرَ مَا تَكونُ مِنْهَا، فإنَّ صَاحِبَها كُلَّمَا اطمأنَّ فيهَا إلى سُرُورٍ أشْخَصَتْه عَنْهُ إلى مَحْذورٍ...).

وأمر؟ أما وضعتِ القدم الثابتة على صراط جسر الدنيا الذي أرشدكِ أهل الدين إليه؟ يا نفسي ذوقي عذاب النار، فما أصبركِ عليها.

حقيقةً أصبحتُ حاقداً على نفسي حتى هممتُ بقتلها! ولكن لا فناء في هذا العالم، ثم هل هي نفس شخص آخر غيري؟ أم هي أنا وأنا هي؟ إن شخصيتي في الدنيا كانت عين روحي لا بدني، وعين روحي هي عين نفسي، لم تفنى حين الموت الأول، ولا في البرزخ ولا بعده، فهي باقية بقاء الأبد[١]، وهي التي تأخذ جزاء لذاتها الفانية، ومسؤولية أوامرها الخاطئة.

وصلتُ الطبقة الأولى من جهنم، فجرّني خزّانها إليهم، وسحبوني نحوهم. قيدوا عنقي بالسلاسل، فقلتُ لهم:

ـ لِمَ تعاملوني بهذه المعاملة القاسية؟ إني كنتُ سيد جنة في عالم البرزخ بعدما تطهرتُ فيه، فأين ذهب كل ذلك؟

أجابني أحدهم برفقة سوط شلّني عن الكلام، فقال:

ـ انك لم تُحاسَب في البرزخ إلا على الجزء اليسير من أعمالك وعقائدك، فتطهرتَ منها ودخلتَ جنته، ولكن في عالم القيامة يكون

---

[١]* تفسير الميزان / ج١٩ / ص١٣٥: (قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا ببدنه، والروح لا تنعدم بالموت، وإنما يفسد البدن وتتلاشى أجزائه، ثم إذا سوي ثانيا مثل ما كان في الدنيا ثم تعلّقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا...).

الحساب شامل ودقيق على كل أعمالك وعقائدك، وأفكارك، وملكاتك، صغيرها وكبيرها، مما لم تُحاسب عليه في البرزخ.

لم ينفعني ذلك معهم، إذ حملوني وسلكوا بي طريقاً طويلاً في جهنم، وخلال ذلك شاهدتُ مناظر يشيب الرأس لرؤيتها، فكيف بمن هو مستقر فيها...!

رأيتُ بركة تسمى (ماء الحميم)، يُسمع من على بُعدٍ فوران ما فيها، ورأيتُ أناسا يشربون منها، فتتورم شفاههم العليا حتى تغطي أنوفهم وأعينهم، وتتورم شفاههم السفلى حتى تصل إلى صدورهم. وهناك أناس آخرون يشربون من بركة أخرى، ذات رائحة نتنة عفنة مملوءة بعرق الكفار ودمائهم، تسمى(غسّاقا)[١].

ومررنا من بعيد على مواقع في جهنم، فرأيتُ ناراً عظيمة مشتعلة، وملائكة الغضب يُلقون الناس فيها وينادونهم ألم يأتكم نذير، وكلما ألقوا فيها فوج ازدادت توقداً وسعيراً، وسُمع لها شهيقاً وزفيراً[٢]، وبين مدة وأخرى يُخرَجون منها وقد احترقت جلودهم، فصارت كالفحم الأسود، والنار ملتهبة في أحشائهم التي باتت ظاهرة بعد أن انسلخ الجلد منها. كنتُ أشاهد توسلهم بالملائكة حين يُخرجون أن لا يلقوهم في النار مرة أخرى، وأسمعُ صراخهم ونداءهم أن يا

---

[١]* النبأ / ٢٤-٢٦ : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً*إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً*جَزَاء وِفَاقاً ﴾.

[٢]* الملك / ٧-٨ : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ* تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾.

مالك ليقض علينا ربك، فيأتيهم الجواب من خازن تلك النار أن لا فائدة من صراخكم هذا، إنكم فيها ماكثون[١].

إزددتُ خوفاً واضطراباً حين شاهدتُ تلك المناظر المرعبة والمشاهد المخيفة، فسألتُ الملائكة المأمورين معي عمّا يراد فعله بي، فلم يجبني أحد! بل لم يلتفت لكلامي حتى يجيبني.

مضينا إلى حيث يشاء الله لنا، ولا أعلم أي شيء أراده الله لي، وإلى أي أمر سيؤول مصيري...

مضينا حتى وقفنا عند مجموعة من الملائكة وقد اجتمعوا حول إنسان يعذّبوه. شاهدتُ ملكاً أتاه فثقب صدره إلى ظهره، وآخر نتف شعر رأسه، وآخرون كانوا يضربوه بمقامع من حديد مُحمر، بينما كان ذلك الشخص يصرخ، ويقول: أما ترحموني... أتاه الجواب من الزبانية: يا شقي، كيف نرحمك ولا يرحمك ارحم الراحمين، أفيؤذيك هذا؟ فقال: اشد الأذى، فأجابوه: يا شقي، كيف لو قذفنا بك في نار جهنم التي لم تدخلها بعد!

صرفتُ نظري عنه بعد أن أصابتني رعشة في بدني من قساوة ما شاهدته، وشاب شعر رأسي خوفاً من أن يكون عذابي مثله. لم يمضي وقت حتى سمعتُ ذلك الإنسان وقد صرخ صرخة عظيمة، فالتفتُ نحوه وإذا به قد قذفوه في أعماق النار...

---

[١]* الزخرف / ٧٧: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾.

توجه أحد الزبانية الذين كانوا يعذبونه إلى الزبانية المأمورين معي، وقال لهم:

ـ لقد هوى في العذاب سبعين ألف سنة! فماذا عن صاحبكم؟

أجابوه، وقالوا له:

ـ انه من أمة النبي الخاتم محمد (ص)، ونحن قد أُمرنا بإيصاله إلى وادي عذاب الموحّدين من أمته.

قال الملك:

ـ إذن صاحبكم ذو حظ عظيم، وسوف لن يشاهد مراحل العذاب الكبرى في الطبقات السفلى.

مضينا في مسيرنا مرة أخرى، ويبدو أن الطبقة الأولى من جهنم أيضاً لها دركات مختلفة من العذاب، ففي كل مرة أشاهد أنواع تختلف في الشدة والدرجة عما قبلها، وشاهدتُ في بعضها رجالا تُقطّع ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار، ثم يُرمى بها، وبعد السؤال علمتُ أنهم كانوا خطباء الناس وشعرائهم الذين يقولون مالا يفعلون[١].

وفي بعضها رأيتُ عقارب سوداء حجمها كالبغال، تلسع بعض الناس فيهربون منها، ولكن هيهات لهم الفرار، إذ تستقبلهم حيّات سوداء مرعبة ضخمة في هيئتها، طويلة أنيابها، تخرج النيران من

---

[١]* وسائل الشيعة – آل البيت /ج١٦ / ص١٥١: (قال (ص) رأيتُ ليلة أُسري بي إلى السماء قوما تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ثم ترمى، فقلتُ يا جبرائيل من هؤلاء فقال: خطباء أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون).

أفواهها لتلسعهم هي الأخرى، فيصرخون ويهربون منها ليعودوا للعقارب من جديد، وهم كذلك في دوّارة بين هذه وتلك.

كان الزبانية معي يعاملوني بقسوة خلال مسيري معهم، ولكنها كانت في نظرهم جيدة، رغم الضرب والسياط منهم، والذي كان يأتيني من كل جانب وبين الحين والآخر، إذ قال لي أحدهم ذات مرة:

ــ إن مأموريتنا إيصالك إلى وادي عذاب الموحّدين، لذلك فنحن نُظهر لك احترامنا حتى وصولنا إليه، ولا تخف كثيراً، فإن ما تشاهده في هذه الطبقة من جهنم هو أدنى درجات العذاب فيها، وسوف لا نقودك إلى الطبقات السفلى منها.

استمر مسيرنا في أخف طبقات جهنم كما يزعمون! حتى انتهينا إلى مجاميع من نسوة كُنَّ يُعذَّبن بألوان العذاب. أوقفوني هناك، وقال لي أحد الملائكة المأمورين معي بعد أن أشار إليهن:

ــ لا تظن أنهن من الأمم السالفة، بل من أمة نبيكم خاتم الأنبياء.

تمعنتُ فيهن فأنكرتُ شأنهن، وارتعشتْ فرائصي لعذابهن، إذ رأيتُ امرأة معلّقة من شعرها، ويُسمع صوت غليان دماغها، وفوران أحشاء رأسها. وأخرى معلقة من لسانها، والحميم يُصب في حلقها، وأخرى كانت تأكل لحم جسدها وتقطّعه بأنيابها، وقد توقدت النار من تحتها.

ألوان عذاب لا يتحملها الناظر لها، فكيف بمن وقع فيها!

وجهتُ نظري نحو مجاميع أخرى، فوقع بصري على امرأة قد شُدّت رجلاها إلى يديها، وقد سُلطت عليها العقارب والأفاعي تلدغ بها، ولفت نظري امرأة أخرى كان رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار، وهي تُعذب بأنواع لا تحصى من العذاب. وأخرى على صورة كلب والنار تدخل في دبرها، وتخرج مِن فيها، والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقامع من نار...!

أصابني خوف شديد مما رأيتُه، وقلتُ سبحان الله! أهذا مصير نساء أهل الدنيا اللواتي اغترن بها. قادني فضولي إلى أن أسأل الملائكة، فتوجهتُ نحو أحدهم، وقلتُ له:

ـ ماذا كان عملهن وسيرتهن حتى يُسلَّط عليهن هكذا أنواع من العذاب؟

أجابني، وقال:

ـ أما المعلقة من شعرها فإنها كانت لا تستره عن الرجال، وأما المعلقة من لسانها فكانت تؤذي زوجها، وأما التي تأكل جسدها وتقطعه بأنيابها، فهي التي كانت تزيّن بدنها وتجمّله للناس[١]، وأما

---

[١]* مما يؤسف له أن نساء مجتمعنا الحالي قد غفلن عن الكثير من لوازم الحشمة الواجبة عليهن وهن في خضمّ الحياة مع الرجال، فقد ترى المرأة ترتدي (الربطة) المتعارفة عندنا، ولكنها تغفل عن متممات الحجاب الأخرى والتي تُعد واجبة شرعا عليها، من قبيل ستر القدمين بالجورب، أو عدم تزيين الوجه بمواد التجميل المعروفة في مجتمعنا، أو عدم لبس الزينة الظاهرة كالمعضد والخاتم والقلادة وأمثالها، أو عدم ظهور أي جزء آخر من بدنها عدى الوجه والكفين أمام الرجال، وسواءً في الدائرة التي تعمل فيها، أو في السوق والأماكن العامة. والشرع لا يفرّق في

التي شُدّت يداها إلى رجليها، والعقارب والأفاعي تلدغ بها، فإنها كانت قذرة في ثيابها، ولا تراعي وضوئها، ولا تتنظف بالاغتسال من النجاسات التي توجب الغُسل عليها.

لم يكمل الملك شرح سبب عذاب جميع الأصناف التي شاهدتها، لذا بادرته بالسؤال مرة أخرى:

ـ وما بال التي رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار؟

أجاب، وقال:

ـ هي النمامة الكذابة. والأخرى التي على صورة الكلب فهي النوّاحة المغنّية[١].

انطلقنا بعد توقف يسير حتى اقتربنا من شجرة كبيرة جداً تخرج في أصل الجحيم، فطلبتُ من الملائكة المأمورين معي الذهاب إليها لأكل بعض الشيء منها، إذ بلغ بي الجوع مبلغه، وأصبحتُ حاضراً

ذلك بين أن تكون أمام الغريب الذي لا تعرفه، وبين زميلها في العمل، أو قريبها في النسب والعشيرة، بل يوجب الحجاب الكامل عليها أمام كل هؤلاء من غير المحارم عدى الزوج.

[١]* ورد مضمون عذاب هذه الأصناف من النساء في الحديث ٢٤ من كتاب عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق/ ج١/ ص١٣: عن أمير المؤمنين علي (ع) قال: (دخلتُ أنا وفاطمة على رسول الله (ص) فوجدته يبكي بكاءً شديدا، فقلتُ فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقال يا علي ليلة أسري بي إلى السماء رأيتُ نساء من أمتي في عذاب شديد فأنكرتُ شأنهن فبكيتُ لما رأيتُ من شدة عذابهن، ورأيت امرأة معلقة بشعرها يغلى دماغ رأسها، ورأيتُ امرأة معلقة بلسانها والحميم يصب في حلقها، ورأيت امرأة معلقة بثدييها، ورأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها، ورأيتُ ...).

لتناول أي شيء أسدّ به رمقي، وأطفئ به عطشي، والغريب أن هذه المرة استجابوا لطلبي، وقادوني لتلك الشجرة!

اقتربنا منها أكثر وأكثر، فإذا بها شجرة مرعبة موحشة في شكلها وطلعها، إنها شـــجرة الزقّـــوم، وهي كما قال عنـــها القرآن الكريـــم: (**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**)[١]، عليها سبعون ألف غصن من نار، وفي كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار، وكل ثمرة كأنها رأس شيطان قُبحا ونتنا، وقد تعلق على كل غصن من الزقوم سبعون ألف من الرجال والنساء، وكانت النار تدخل أدبارهم وتطّلع على أفئدتهم وتخرج من أفواههم[٢].

حاولتُ العودة، وتوسلتُ بهم للتراجع عن طلبي، ولكن لا جدوى ولا سبيل لذلك. أكلتُ من ثمرها كُرهاً فإذا بها أمرّ من الحنظل، وانتن من الجيف، وأحر من الجمر، واصلب من الحديد! وقعت في بطني فأصبحتْ تغلي في أحشائي كغلي الحميم. الهي ماذا افعل، ثمرة واحدة عملت بي ما عملت، فكيف بمن طعامه الدائم منها!

رميتُ بنفسي من أعلى الشجرة إلى أودية أسفلها، لعل وضعها يكون أفضل، وحرارتها أقل، ولكنها كانت أودية مذابة من الصفر والنحاس، واشد حرّا من النار والزقوم التي هربتُ منها. وقعتُ في

---

*[١] الصافات / ٦٥

*[٢] الاختصاص / ص٣٦٣ : وفيه حديث طويل في وصف شجرة الزقوم.

تلك الأودية فرأيتُ فيها أناساً سبقوني السقوط فيها، وهي تغلي بهم، ثم ترميهم على حوافها، حيث هوام النار من الحيّات والعقارب والوحوش المرعبة في أشكالها، ولم يكن حالي يختلف عما شاهدته من أحوال الذين كانوا هناك، إذ رُمي بي إلى حافة الوادي، فراحت العقارب تقترب مني، والحيات تتراقص فرَحاً بقدومي...!

تمعنتُ فيها فإذا لكل عقرب منها ستون شوكة، وفي كل شوكة قلة من السم، ومما زاد الطين بلة أن أحد خزنة جهنم قال لي: إن لسعة سم واحدة لهذه العقارب تبقى تؤلمك وتصرخ منها أربعين عاماً!

أما الحيّات فهي سوداء مزرقة، أقبلت نحوي...

هربتُ منها وقد مَدّت أنيابها، فلسعتني لسعة صرختُ منها صرخة عظيمة، وأحسستُ بألم لو اجتمع أهل الدنيا ما تمكنوا من تخيله، فكيف حال من يذوقه!

اجتمعتْ وحوش أخرى من جهة، والأفاعي والعقارب من جهة أخرى، وتعلّقوا بي، وراح كل واحد منها يلدغ في بدني، ثم يمزّقه ويقطّعه، ثم يفعل فيه ما يشاء، وأنا أصرخ وأستغيث وما من مغيث...

أشار لهم خازن النار بالابتعاد عني، فابتعدوا ولكن بأي حال تركوني.. تركوني ممددا على الأرض، لا اعلم أي الآلام أشكوها، وأي الجروح أداويها، فكل بدني سموم وجروح وقروح.

فتحتُ عيني بعد جهد كبير، وإذا بكلاب ضخمة كالجمال، سوداء في لونها، مخيفة في هيئتها، إنها كلاب من نار، تنتظر أمر الحملة على هذا العبد المسكين! وقد جاءها الأمر بذلك، فحمَلت حملة واحدة، وراح كل واحد منها يقتطع قطعة من بدني، فتسيل الدماء منه، ثم يُدفع بتلك القطعة في حلقي لتمزق أمعائي بحرارتها مع ما بها من رائحة نتنة عفنة، وتكرر ذلك حتى لم يبق لجلدي وجود، وانكشفت أحشائي، فراحت الكلاب تدوس على عظامي وتنهشها، آه ليت في النار عدَم وفناء...

ظهر خازن النار وسط هذه الغبرة وهو يشير نحوي، ويقول:

ـ أتأكل لحم أخيك في الدنيا وتطلب الفناء الآن، أتسمع الغيبة على المؤمنين ولا ترد عليها[١].

ناديته بما لدي من طاقة وقوة ضعيفة:

---

[١]* إن أغلب الناس يستصغرون ذنب الغيبة مع أن القرآن الكريم يصفها بأبشع صورة باطنية لها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾، وفي رواية أن (رسول الله (ص) لما رجم الرجل في الزنا، قال رجل لصاحبه: هذا أُقعص كما يُقعص الكلب، فمر النبي معهما بجيفة، فقال: انهشا منها، فقالا يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: (ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه). وتعريف الغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره، ومن منا لا يكره أن تُذكر عيوبه أمام الآخرين؟ كما أن الغيبة لا تكون غيبة باللسان فقط، بل يمكن أن تكون بإشارة، أو تصرف خاص يصدر من المغتاب ويشير به إلى ذلك العيب أو النقص، بل قد يكون بابتسامة خاصة، أو نظرة معينة يُفهم منها ذلك.

ــ متى كان ذلك؟ إني تركتُ الغيبة وفررتُ منها كفراري منكم الآن.

لم اسمع جواباً، وبقيتُ على هذه الحالة، وفي كل مرة يُعاد لي جلد جديد، وتعود العقارب والحيات ثم الكلاب، وكأن كل واحد منها قد عرف دوره، فيؤديه بأحسن ما يكون!

وبعد هذه المدة الطويلة جاءني الجواب من خازن النار، وقد أعطى الأمر للجميع بالانصراف:

ــ في يوم كذا أُغتيب في حضرتك فلان فلم تنصره، ولم تنطق بكلمة واحدة تدافع بها عنه مع قدرتك على ذلك[1]، وفي يوم كذا مرّ فلان أمامك فغيّرتَ ملامح وجهك، وأشرتَ اليه بيدك اشارة فهم الحاضرون منها استحقارك له[2].

لم يكن لي سبيل لإنكار ما ذكره، ولكني اعترضتُ عليه من جهة أخرى، وهي طول مدة الجزاء بمقابل خطأ كهذا، فقلتُ له:

ــ ثلاث سنين من العذاب لأجل هذا الذنب الصغير؟

غضب الملك، وقال:

---

*[1] وسائل الشيعة – آل البيت / ج١٢/ ص٢٩١: (في وصية النبي (ص) لعلي (ع): يا علي من اغتيب عنده أخـــوه المســـلم فاستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة).

*[2] جامع السعادات / ج٢ / ص٢٢٦: (عن عائشة قالت: دخلتْ علينا أمرأة، فلما ولّت أومأتُ بيدي أنها قصيرة، فقال (ص): إغتبتيها).

ـ أما علمتَ في الدنيا أن الغيبة اشد من الزنا[1]؟

نكستُ رأسي، وأجبته:

ـ نعم قد علمتُ ذلك، ولكن هل جزاءه ثلاث سنين من العذاب، وبهذا الشكل منه؟ أمن العدل ذلك؟ أم هل هناك تناسب بين العمل والجزاء الذي تعذبون به عباد الله؟

رفع الملك كل أنواع العذاب عني، وأزال آلامي، فتمكنتُ من الجلوس والتحدث معه، حينها قال لي:

ـ إن عذابك عندي قد انتهى.

كنتُ أنتظر كلاما آخر منه تعليقاً وجواباً على ما اعترضتُ عليه، ولكنه لم ينطق بشيء، فبادرته هذه المرة بالشكوى منه:

ـ إني أشكوك إلى الله الواحد القهار الذي لا يظلم عباده مثقال ذرة، ولا يجازي أحدا بأكثر من ذنبه.

توجه نحوي، وقال:

ـ أي أمر تعني؟

ـ إني لم أعصِ الله إلا لحظات، ولم أجلس في مجالس الغيبة إلا ساعات، فلماذا هذا العذاب ثلاث سنين؟ لماذا لا يكون ساعات أيضاً؟

اطرق الملك قليلا، ثم أجاب:

---

[1]* الخصال / ص٦٣: (عن النبي (ص) أنه قال: الغيبة أشد من الزنا، فقيل يا رسوله ولم ذلك؟ قال: صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحلّه).

ـ أما رأيتَ في الدنيا إنساناً قذف بنفسه من جبل، فتكسّرت أعضائه، وأصبح عاجزاً عن المشي والحركة طوال حياته في دنياه؟ لماذا لم تقل إن الخطأ كان لحظات فقط، فلماذا حُرِم من الحركة عمراً بكامله؟ وهل أن أحداً عاقبه بهذا الجزاء في العجز عن الحركة، أم انه كان جزاء وأثر طبيعي لعمله هذا؟

لم أجبه بأي كلام لأني رأيتُ كلامه لا شائبة فيه، لذا استأنف حديثه، وقال:

ـ إن كل ما لاقيتَه من عذاب في جهنم وستلاقيه، إنما هو أثر أعمالك السيئة، وأنت صنعته لنفسك، وليس لك الحق في الاعتراض عليه، مثلما ليس لك حق الاعتراض عندما تُدخل قضيباً في عينك، ثم تعترض لماذا العمى في العين كان سنين، مع إن الإدخال كان في لحظة واحدة.

لم يبق لي أي مجال في محاججته، لذا سلك فكري طريقاً آخر، وذهب خيالي إلى مسألة الشفاعة والتوسل بها، ولكن الملك بادرني سريعاً بقوله:

ـ حتى الشفاعة التي تتأملها من أهل المقامات العالية، إنما هي اثر لارتباطك بهم، وسلوكك طريقهم، كما إنها لا تتحقق لك إلا إذا كنتَ قد هيأتَ شروطها في عالم الدنيا، ورفعتَ موانعها.

لم تمضِ فترة طويلة حتى أتاني مجموعة من زبانية جهنم، فأصابني خوف عظيم منهم، وارتعش كل بدني حين رأيتهم. امسكوا بي وسحبوني بقسوة، فقلتُ لهم: إلى أين هذه المرة؟ فقال أحدهم:

ـ إن في جهنم واديا تعوذ منه النار كل يوم أربعمائة مرة، أُعدّ للمرائين من القرّاء، ويسمى وادي جب الحزن[١].

ـ ولكني لم أكن من قرّاء المنابر على الناس.

قال ملك آخر:

ـ كنتَ تقرأ على زملائك النصائح والمواعظ حتى يُقال عنك أنك إنسان تحب الخير لهم، ولا تبغي إلا رضوان الله فيهم، وكنتَ تنصح رياءً بما لم تفعله، وتوصي بما لم تسعَ لأدائه قبل الوصية به. كنتَ تظن أن عملك هذا لله، ولكن لو تمعّنتَ فيه قليلاً لوجدته للناس قبل أن يكون لله.

في تلك الأثناء مرّ بنا مجموعة كبيرة من الملائكة ومعهم آلاف مؤلفة من الناس المسودة وجوههم، المحترقة أبدانهم، يصرخون ويستغيثون، وقد شُدت في أعناقهم سلاسل غليظة من نار. التفتَ لي احد الملائكة، وقال:

---

[١]* جامع السعادات / ج٢ / ص٢٩٠ : (وقال (ص) استعيذوا بالله من جب الحزن، قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: واد في جهنم أُعد للقراء المرائين).

ــ أُشكر الله أن لم تكن معهم. هؤلاء المتكبرون على الناس وعلى الله، والمكذبون لرسوله، وهم المخلَّدون في النار، وإنما يُساقون الآن إلى وادي سقر، وهل تعلم ما سقَر[١]؟

كيف لي بالعلم به، وأنا لم أدخله، وعلمي به في الدنيا لا يغني من حقيقته شيئاً، لذا أجبته:

ــ كلا، لا أعلم.

قال:

ــ إنه وادي يفوق جميع وديان جهنم في حرارته، إذ إنه برغم كونه دار عذاب للمتكبرين، شكا ذات مرة إلى الله شدة الحرارة فيه، فأذن الله له أن يتنفس قليلا، فتنفس وإذا به يُحرق جهنم ونيرانها[٢]!

قلتُ سبحان الله! أي نار هذه التي تحرق نيران غيرها! سألتُ الملك عن كيفية عذابهم فيه، فقال:

سيجعلونهم في توابيت مغلقة من حديد تلتهب النار فيها، وفي كل تابوت منها مسامير من حديد نار محمرة تُغرز في بدن من يُعذب داخلها مع سبعين ألف نوع آخر من العذاب، ثم تُجعل تلك التوابيت

---

[١]* المدثر / ٢٣ – ٢٨: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ* سَأُصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ* لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾.

[٢]* وسائل الشيعة / ج١١ / باب تحريم الكبر: (عن أبي عبد الله (ع) قال: إن في جهنم لواديا للمتكبرين يُقال له سقر، شكى إلى الله عز وجل شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم).

في توابيت أخرى مقفلة، ثم يُقذفون في أسفل الجحيم، ليبقوا فيها أبد الآبدين.

انتهى الحوار، وسيق بي إلى وادي المرائين فرأيتُ فيه مد البصر من البشر ما لا تُحصى أعدادهم، والكل يبكي وينادي بالويل على نفسه. استقبلتني الزبانية بأسواط مؤلمة، ومقامع من نار ملتهبة، ثم قال لي أحدهم:

ـ يا شقي، هل تريد ثواب أعمالك الصالحة التي عملتها في الدنيا؟

استغربتُ من سؤاله هذا، فأجبته:

ـ نعم أريدها، فلعلها تنجيني من شر هذا الوادي وعذابه؟

ضحك ساخراً من كلامي، وقال:

ـ يا خاسر، لقد عملتَ بما أمر الله عز وجل، ولكنك أردتَ به غيره، ورغبتَ في مدح سواه. ويا شقي لقد حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس ثوابها ممن كنتَ تعمل له، وهيهات لك ذلك[١].

قال كلامه هذا، وألقى بي من أعلى الوادي، ولم أصل إلى أسفله إلا وأنا مكسّر الأضلاع، مهشم العظام، قد دخلتْ الأشواك في جميع

---

[١]* الكافي / ج٢ / ص٢٩٣ : (قال أبو عبد الله (ع): كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله).

أنحاء بدني، وما أن وصلتُ حتى استقبلتني زبانيته وأنا في هذه الحال لتقودني إلى النار، وأنواع من العذاب...

بقيتُ في هذا الوادي سنين عدّة، وأي سنين! كل لحظة فيها كانت تعادل ألف عام أو تزيد عن ذلك، لقسوتها، وشدة ألم العذاب فيها، حتى جاء اليوم الذي أتتني فيه ملائكة الغضب الذين ساقوا بي إلى هنا ليخرجوني منه، وينقلوني إلى مكان آخر.

سألتهم عن أي مكان يُراد بي، فجاءني الجواب:

ـ إلى وادي عذاب الموحّدين من أصحاب الذنوب الكبيرة.

استغربتُ من كلامه، فكيف يكونوا موحّدين وهم أصحاب كبائر! ثم إني متى كنتُ أرتكبها، حتى يُساق بي إلى هناك؟

اعترضتُ عليهم بأني لم أرتكب ذنوبا كبيرة في دنياي، وقلتُ لهم:

ـ إذا كنتم على صواب في أخذي إلى هناك، فقولوا لي أي كبيرة عملتها؟

جاءني الجواب برفقة سوط من أحدهم:

ـ هناك الكثير من الذنوب الكبيرة كنتَ تعملها ظنا منك أنها صغيرة، وهي ليس كذلك، ثم أما علمتَ أن الاستهانة بصغائر الذنوب، والإصرار عليها يُعد من الكبائر[1]؟

---

[1]* وسائل الشيعة – آل البيت / ج ١٥/ ص٣٣٨: (عن أبي عبد الله (ع) قال: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وعن أبي جعفر(ع) في قول الله عز وجل: ﴿ ولم يصرّوا

على ما فعلوا وهم يعلمون﴾، قال: الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدّث نفسه بالتوبة، فذلك الإصرار).

الفصل السادس :

في وادي

الموحّدين

دخلنا وادي الموحدين، فإذا به من البشر ما لا يُحصى عدده، وكلهم مِن أصحاب الكبائر من الموحّدين الذين ماتوا على كبائرهم، غير تائبين منها، وكل من دخل منهم في هذا الوادي لا تزرق عينه، ولا يسود وجهه، ولا يُقرن بالشيطان، ولا يقيّد بالسلاسل، كما أنهم لا يجرعون الحميم، ولا يلبسون القطران...

كنتُ ضمن مجاميع الموحدين من أمة النبي الخاتم (ص)، فسألتُ أحدهم حين الدخول معهم: كم سيكون المكث هنا؟ فقال:

ــ بعضهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج، ومنهم من يمكث سنة، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ خُلقت إلى أن فنيت[١]!

جزعتُ من جوابه، فما أصبرني على العذاب فيه!

---

[١] * تفسير الميزان /ج ١٢ / ص ١٠٢ : (عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم، غير نادمين ولا تائبين، من دخل منهم جهنم لا تزرق أعينهم، ولا تسود وجوههم، ولا يُقرنون بالشياطين، ولا يغلون بالسلاسل، ولا يجرعون الحميم، ولا يلبسون القطران، حرم الله أجسادهم على الخلود من اجل التوحيد، وصورهم على النار من اجل السجود، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه، ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى).

مضت فترة ونحن بانتظار أمر الجليل فينا، حتى أتى الوقت الذي جاءنا فيه (مالك) خازن كل النار، وهو يحمل أمر العزيز الجبار.

نهض جميع ملائكة الوادي من خزان جهنم، ورأيتُ حالهم قد اضطرب، والكل غادر موضعه ليصطف مع أهل جنسه بشكل صفوف منتظمة مرتبة. لم يمضِ وقت حتى أتى مالك، وهو ملك عظيم الخلقة، مهيب الشكل، مرعب الوجه، قاطب عابس، له من الهيبة والعظمة بدرجة أن زبانية النار لا يتجرؤون على الكلام معه، إلا من أذن له.

توجه مالك نحو بعض من الملائكة، وسألهم:

ــ من هؤلاء؟ ما ورد علي من الأشقياء أعجب منهم، لِمَ لمْ تسود وجوههم، ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم؟

تكلّم احد الملائكة، ويبدو انه رئيس مجموعة فيهم، فقال:

ــ هكذا أتونا، فسقناهم إلى هنا بانتظار أمركَ فيهم.

توجه مالك نحونا، فارتعشت أبداننا رهبة منه، ثم قال:

ــ يا معشر الأشقياء من انتم؟

أجاب جمع منا وكنتُ معهم:

ــ نحن ممن أُنزل علينا القرآن، ونحن ممن كنا نصوم شهر رمضان، ونحج بيت الله الحرام، و..

قال مالك:

ـ ما نزل القرآن إلا على النبي الخاتم محمد.

سمعنا اسم محمد (ص)، فصحنا وصاح الجميع معنا:

ـ نعم، نحن من امة النبي الخاتم محمد.

قال:

ـ أما كان لكم في القرآن زاجراً عن معاصي الله؟ أما كان لكم في رسول الله وعترته أسوة حسنة إن كنتم ترجون الله واليوم الآخر؟

أصابتنا الخيبة من كلامه، ونكسنا رؤوسنا إلى الأرض خجلاً واستحياءً منه، وارتفعت أصواتنا بالبكاء، حتى لم تبق لعيوننا دموعاً بعد جفافها، فبكينا دماً!

إستغرب مالك منا ذلك، فقال:

ـ أتبكون دما، فما أحسن لو كان هذا في الدنيا من خشية الله، ولو كنتم كذلك ما مستكم النار اليوم.

توجه نحو الزبانية، وقال لهم:

ـ يا خزنة جهنم، ألقوهم في النار، فإنهم قد عصوا أمر الجبار، ويا نار خذيهم.

ضج الجميع، وعلت الأصوات، والكل ينادي (لا اله إلا الله)، حتى تراجعت النار عن موضعها، فتوجه مالك نحوها، وقال:

ـ يا نار أمرتكِ بإحراقهم، فافعلي ما تُأمرين به.

ارتعشت النار خوفاً من مخالفة أمر مالك، ثم قالت:

ـ كيف أأخذهم يا مالك وهم يقولون (لا اله إلا الله).

قال مالك لها:

ــ نعم خذيهم، فبذلك أمر رب العرش.

لم ترفض النار أمر مالك بعد أن علمت أن الأمر من العلي الأعلى، فبدأت تأخذ بنا كل حسب منزلته، ولا سبيل للفرار والتخلف عنها، فمنّا من أخذته إلى قدمه، ومنا من أخذته إلى ركبتيه، ومنا من أخذته إلى عنقه. أما أنا فقد أتتني النار لتأخذني، فهربتُ منها ولحقتني حتى حُجزتُ في موضع لا مجال للفرار منه، حينها وقفت النار أمامي وفرائصي ترتعش منها، وقالت:

ــ يا شقي، أما علمتَ أن لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار؟

قلتُ لها:

ــ إني تبتُ من كل ذنب كبير، والصغائر كنتُ غافلاً، عنها فلماذا احترق بكِ؟

اشتد لهيبها وكأنها غضبت من كلامي، ثم قالت:

ــ هي الغفلة يا شقي، هي الغفلة.

قالت ذلك وارتفع شهيقها، وقفزت نحو قدمي، فصرختُ ألما من حرارتها، وناديتُ بأعلى صوتي: لا، لا تحرقي قدمي، لا تحرقيها..

لم تسمع ندائي، ولم ترحم صراخي، فلصقت بهما حتى احترق جلديهما، وراحت تتوغل في أحشائهما وعظامهما...

العجب كل العجب أني سمعتُ شخصاً بجنبي قد أخذته النار إلى فخذيه يحسدني على حالي، ويقول لي: ليتني كنتُ مثلك، ليت النار لم تحرق إلا قدمي!

أرادت النار أن تأخذ وجوه بعض من في الوادي، فصاح بها مالك:

ــ لا تحرقي جباههم، فلطالما سجدوا للرحمن عليها، ولا تحرقي قلوبهم، فلطالما عطشوا في شهر رمضان، ولا تحرقي لهم السنة فلطالما تلوا بها القرآن.

أنفذ الله حكمه فينا، وبقينا على هذه الحالة ما شاء الله لنا من المدة الطويلة. وبرغم تلك الآلام العظيمة، والمصيبة الجسيمة، وشدة الزحام وضيق المكان، وبرغم صراخ المعذَّبين، وصياح المحترقين، وجدتُ لي موضع جلوس في الوادي، فجلستُ للتفكير والدعاء للجبار، وقلت في نفسي: أليس كل عمل في الدنيا يظهر باطنه هنا، فأين بواطن دعائي في ليالي الجمعة؟ أين مناجاتي بدعاء الجوشن الكبير في ليالي القدر؟ وأين تجسمات دموعي خوفاً من ناره وطمعاً في جنته؟

ما إن تذكرتُ ذلك حتى طرق فكري جُمل من دعاء كميل، ووجدتُ في نفسي القدرة على مناجاة ربي ودعائه، فناديته بأقدام محترقة، ودموع جارية: (**يا الهي وسيدي وربي، أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، وبعدما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به**

لساني من ذكرك، واعتقده ضميري من حبك، وبعد صدق اعترافي ودعائي خاضعا لربوبيتك)[١].

نظرتُ لما حولي، فرأيتُ جمع كبير من أهل الوادي قد اجتمعوا ليسمعوا دعائي ويرددوا معي. استأنفتُ معهم الدعاء متضرعاً، وقد غرق الجميع بالبكاء: **(الهي ومولاي، أتسلط النار على وجوه خرّت لعظمتك ساجدة، وعلى السن نطقت بتوحيدك صادقة، وبشكرك مادحة، وعلى قلوب اعترفت بإلهيتك محققة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبدك طائعة)**[٢].

توقفتُ عن الدعاء، فتوقف الجميع، ولم يبق غير ضجيج البكاء من الرجال والنساء، فقلتُ لهم:

ــ يا موحّدين، ولسنا بموحّدين، لو كان توحيدنا لله كاملا لما ارتكبنا صغيرة ولا كبيرة، فاسألوا الله أن لا يعاملنا بعدله، بل بفضله وكرمه، ادعوا الله بألسنة جريحة: **(الهي أنت الجواد الذي لا يضيق عفوك، ولا ينقص فضلك، ولا تقل رحمتك، وقد توثقنا منك بالصفح القديم والفضل العظيم والرحمة الواسعة. أفتراك يا الهي تُخلف ظنوننا او تخيب آمالنا، كلا يا كريم)**[٣].

---

*[١] مقتطف من دعاء كميل للإمام علي (ع).

*[٢] مقتطف من دعاء كميل للإمام علي (ع).

*[٣] مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين (ع).

توقفتُ مرة أخرى، فارتفعت الأصوات أكثر، وقد سالت دموعهم حتى صارت انهاراً تجري تحتنا، وألسنتهم تنطق مرددة (كلا يا كريم، كلا يا كريم...).

التفتُ للملائكة فرأيتهم مبهورين، على حيرة من أمرهم، صامتين لا يصدر منهم أي رد فعل لما حدث، وهم لا يتجرءون على محاسبة أي واحد منا.

مضت فترة ونحن ندعو الله، ونتوسل إليه، ونطلب منه أن يأذن بشفاعة نبينا فينا، حتى وصلتنا الأخبار من الملأ الأعلى تقول بان الله تعالى سأل جبرائيل: (ما فعل العاصون من أمة محمد)؟ فقال جبرائيل: (الهي أنت أعلم بهم)، فقال عز وجل: (انطلق يا جبرائيل وانظر ما حالهم).

انطلق جبرائيل متوجهاً إلى مالك، فوجده جالساً على سرير من نار في وسط جهنم، فلما نظر مالك إليه، قام تعظيماً له، وقال:

ــ يا جبرائيل، ما أدخلك في هذا الموضع؟

أجابه عن سبب دخوله، ثم سأل منه، فقال:

ــ يا مالك، ما حال العصابة من أمة محمد خاتم الأنبياء؟

أجابه مالك، وقال:

ــ ما أسوء حالهم، وأضيق مكانهم، قد أحرقت النار أجسامهم، وأكلت لحومهم، وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان. يا

جبرائيل أنت تعلم أني لو خالفتُ العزيز الجبار قيد أنملة فيهم لاحترقتُ.

سمع جبرائيل منه ذلك، فطلب منه أن يرفع الطبق عنا حتى ينظر الينا.

أحسستُ في وقتها أن هناك أمر ما سوف يحدث، إذ شاهدتُ الخزنة قد غيروا أمكنتهم، وتنادوا فيما بينهم أن ارفعوا طبق جهنم، فقد جاء زائر كريم يطّلع على حال من تحته.

رفعوا الطبق عنا، وإذا بأنظارنا تقع على مخلوق في غاية من الجمال والهيبة بين صفوف الملائكة. تمعنتُ في صورته وهيئته، فعلمتُ انه ليس من ملائكة العذاب، وكيف يكون كذلك وهو يستبشر كل من يشاهده وينظر إليه. تساءلنا فيما بيننا عمن يكون، إذ لم نر من قبل مخلوقاً أحسن منه وجهاً، وأجمل منه صورة.

لم تطل حيرتنا طويلاً في أمره، إذ نادى فينا مالك ليخبرنا بان هذا الذي أمامكم جبرائيل الكريم على الله، هذا الذي قال الله تعالى بشأنه في القرآن: ﴿ **ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾[1]، فهو أمين الوحي على نبيكم الخاتم محمد، فهل عرفتموه؟

---

*[1] التكوير / ٢٠-٢١

ضج الجميع، وراح الناس يتساءلون فيما بينهم عن سبب مجيئه، وغاية حضوره. أما أنا فاستبشرتُ كثيراً بقدومه، وقلتُ في نفسي لعل ذلك مقدمة لنجاتنا، الله اعلم.

تقدمتُ نحوه بصعوبة بالغة، إذ كنتُ أحسنهم حالاً رغم أن النار أحرقت قدماي، والألم بلغ مبلغه مني، وكلما تقدمتُ أكثر اصطحبتُ معي أناسا هم في درجتي حتى وصلناه، فانبهرنا أكثر من عظمة خلقه، وبهاء صورته.

اضطربتُ عندما توجه نحوي جبرائيل وأنا في حالة يُرثى لها، فقال لي:

ــ كيف حالكم وماذا تريدون؟

أجبته بلسان من يتلكأ في كلامه:

ــ يا جبرائيل، يا من حمل أعظم أمانة إلى أكمل إنسان خلقه الله، يا من هو ذي قوة عند ذي العرش مكين، يا من هو في الملأ الأعلى مطاع ثم أمين، اقرأ نبينا محمد منا السلام، وأخبره أن معاصينا قد فرّقت بيننا وبينه، وأخبره بسوء حالنا وأننا بانتظار شفاعته فينا.

لم يطل بقائه فينا بعد أن علم منا ما نريد، إذ غادرَنا، ثم أُغلق طبق جهنم علينا مرة أخرى، وما علمنا بعدها ماذا حدث حتى وصلنا خبر يقول: إن جبرائيل بعد أن ذهب من هنا قام بين يدي الله تعالى، فقال الله له: (يا جبرائيل كيف رأيتَ العصاة الموحّدين من امة

محمد؟)، فأجاب جبرائيل: (يا رب أنت أعلم بهم، ما أشد حالهم وأضيق مكانهم، تركتهم يستغيثون بنبيهم، ويطلبون شفاعته فيهم).

قال الله تعالى: (هل سألوك شيئا؟)، فقال جبرائيل: (نعم يا رب، سألوني أن اقرأ على نبيهم السلام واخبره بسوء حالهم)، فقال الله تعالى: (انطلق إلى حبيبي محمد وابلغه ذلك).

انطلق جبرائيل ودخل على النبي محمد (ص) وهو في خيمة من درّة بيضاء، ولها أربعة آلاف باب، ولها مصراعان من ذهب، فقال له بعد السلام عليه: (يا محمد جئتك من عند العصاة الموحّدين من أمتك، وقد تركتهم يُعذَّبون في النار، وهم يقرءوك السلام، ويقولون: ما أسوء حالنا، وأضيق مكاننا، فأين نبينا ليشفع فينا)[1].

لم يترك النبي (ص) الحال كما هو، وهو مظهر رحمة الله، إذ أتى عند العرش وخر ساجداً، وأثنى على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله، فقال الله عز وجل: (ارفع رأسك يا محمد، واسأل تعطى، واشفع تُشفَّع)، فقال النبي(ص): (يا رب، إن الأشقياء من أمتي قد أنفذتَ فيهم حكمك، وأنت ارحم الراحمين)، فقال الله تعالى: (قد شفعتك

---

*[1] المضمون الإجمالي لأحداث عذاب الموحدين من أمة خاتم الأنبياء محمد (ص)، وزيارة جبرائيل لهم في جهنم، ولقائه مع مالك، وطلبهم الشفاعة من نبيهم، وغيرها من الوقائع التي وردت في هذا الجزء من الرواية تم استخلاصها من الرواية الواردة في كتاب [عالم ما بعد الموت] للفيض الكاشاني / باب ١٥ / ص٢٦٩ إلى ٢٧٦.

فيهم يا محمد، فأتِ النار وأخرج منها من قال لا اله إلا الله، وكان أهلا لشفاعتك).

بلغ شوقي أشده لرؤية النبي الخاتم وأهل بيته بعد علمي بما حدث، فهؤلاء كانوا هم الأنوار المنيرة في الدنيا، وهم شهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، وتذكرتُ حينها قول عملي الصالح وإخباره لي بأن الشفاعة ستنالني في آخر المطاف.

تعقبتُ أخبار النبي وآله، فعلمتُ أنهم قد وصلوا إلى مالك، وحينما نظر إليهم قام لهم تعظيماً لمقامهم، فقال النبي الخاتم(ص) بعد السلام عليه: (يا مالك ما حال أمتي من الأشقياء؟)، فقال مالك: (هم في حالة سيئة جدا، قد أحرقتهم ذنوبهم حتى وصلت لدى بعضهم إلى أعناقهم، وهم يستغيثون ويصطرخون، ولشفاعتك يتأملون).

قال الخاتم (ص): (يا مالك افتح الباب، وارفع الطبق عنهم).

فُتح الباب، ورُفع الطبق عنا...

يا الهي ماذا أرى، إنهم خمسة أنوار يحيط بهم الملائكة من كل جانب، إنهم أصحاب الكساء الخمسة، نعم، هم فاطمة وأبيها، وبعلها وبنيها، هم أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة...

أجل، ها هو رسول الله يتقدمهم، وقد أضاء كل ما في الوادي من انعكاس أنوارهم بعد أن كان معتماً شديد الظلمة. أما خزنة جهنم

فقد قاموا أجمعهم إجلالاً، وأمروا الناس بالقيام إكراما للنبي وآله، ثم عم صمت وهدوء في كل الأرجاء، وأنظار الجميع متوجهة نحوهم، قد شغل الناس عن أنفسهم جمال صورهم، وعظمة خلقهم، وشدة أنوارهم.

حاول جمع عظيم من المعذَّبين من الناس التوجه نحو خاتم الأنبياء، والاقتراب منه، فلم يتمكنوا من ذلك، إذ هم لا يطيقون نوره عن قرب، ومقامهم لا يسمح لهم بنَيل ما يرمون إليه، لذا نادوه من مكان بعيد، وطلبوا شفاعته فيهم ونجاتهم مما أصابهم.

أجابهم خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلّم) بغير ما كانوا يرجون! وبدأ الحديث معهم بغير ما يتأملون! إذ قال لهم: (يا أهل هذا الوادي من أمتي، أجيبوني ماذا فعلتم بالثقلَين من بعدي؟)[1].

صمت الجميع ولم يجبه أحد، وأصابتهم دهشة شديدة من سؤاله منهم، ولكن لم يطل الموقف هذا كثيراً حتى تعالت الأصوات مرة أخرى من هنا وهناك تقول:

ــ يا رسول الله، وما الثقلين؟

أجابهم خاتم الأنبياء مستنكراً سؤالهم، إذ قال: ألم أقل لكم:(**إني قد تركت فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، وأحدهما**

---

[1] * الكافي / ج ٢ / ص ٦٠٠ : (قال أبو جعفر (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي).

أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[١].

اجتمع أصحاب الأصوات المتفرقة في مكان واحد، ودار الحديث بينهم وبين الخاتم (ص)، إذ قالوا له:

ــ أما كتاب الله فقد عملنا به، وأما عترتك فلم نعرفهم يا رسول الله.

رد عليهم رسول الله معترضاً على جوابهم، فقال: (كيف تدّعون أنكم عملتم بكتاب الله دون العترة، وقد أخبرتكم أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، وقد فرّقتم بينهما. أنتم لم تعرفوا حقائق كتاب الله وأسراره لأنكم لم تعرفوا عترتي حتى يعرّفوكم به، وهل يمكن العمل بالشيء دون معرفته؟).

ساد الصمت بينهم من جديد، وبدت آثار الحيرة على وجوههم، وتشاوروا أمرهم فيما بينهم، ثم قالوا:

ــ إن علمائنا لم يعرّفونا بعترتك، بل تجاهلوا حتى أسمائهم، ولم يذكروها في كتبهم، ونحن تبعناهم، وسرنا على خطاهم، أملا في الوصول إلى الجنة.

---

[١] * بحار الأنوار /ج ٢٣ / ص١٠٦: (نص حديث الثقلين). وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة التي لم تُذكر في كتب الشيعة فقط، بل وردت في كتب أهل العامة أيضا من قبيل: مستند أحمد بن حنبل /ج٣ / ص١٤، و سنن الترمذي /ج٥ / ص٣٢٩، وكنز العمال للمتقي الهندي /ج١ / ص١٧٢ وغيرها من المصادر الأخرى.

أجابهم خاتم الأنبياء بقوله: (إن علمائكم الذين عرفوا الحقيقة، واستيقنوا بها، ثم جحدوها وحجبوها عنكم، إنما هم الآن في الدركات السفلى من النار. أما أنتم فهلاّ سألتم عن الثقل الأصغر الذي لا يفارق كتاب الله من هم؟ هلا سألتم ماذا يقولون، وبماذا يأمرون؟ وهلا حاسبتم علمائكم عن سبب تركهم لهم)[1].

لم ينقطع كلام الخاتم، ولم تنتهي حجته على أمته، فاستمر ليقول: (ثم كيــف تقولون أنكم عملتم بكتاب الله، وكتاب الله يقول لكم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[2]، وقد بين القرآن لكم من هم ولاة أمركم، كما بينتُ أنا لكم ذلك، فلا أطعتم الله، ولا رسوله فيكم، ولا أطعتم ولاة أمركم).

لم يتكلم أحد قط تعقيباً على كلامه، لذا استأنف الرسول (ص) عتابه لهم، فقال: ألم اقل لكم: (**إن مثَل أهل بيتي فيكم مثَل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق**)[3]. ألم اقل لكم: (**النجوم**

---

*[1] إن كلام وخطابات خاتم الأنبياء (ص) والتي ذكرناها في أحداث هذا الجزء من الرواية ورَد معناها في الأحاديث والروايات والكتب المعتبرة، وليس بالنص الحرفي منه (ص)، سوى ما كُتبت بالخط الغامق وذكرنا مصدرها.

*[2] النساء / ٥٩

*[3] كنز العمال / ج١٢ / ص٩٨ : (عن رسول الله (ص): إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق).

أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتـــي أمان لأمتـــي من الاختلاف)[١].

ضج الناس جميعاً بالبكاء على اثر عتاب الرسول الخاتم لهم، ولكنه استمر في كلامه، فقال:

ـ (إن أحاديثي هذه وعشرات أمثالها موجودة في كتب مذهبكم لو تفحصتم وتعقبتم، ولكنكم أسلمتم رقابكم لأئمتكم، واتبعتوهم دون تحكيم عقل، أو تدقيق أمر).

أصبحنا لا نسمع إلا أنين بكاء الناس وعويلهم، وقد طغى عليه صراخ جمع من النساء والرجال، ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور، ثم تعالت أصوات أخرى تنادي رسول الله أن: (نستميحك العذر يا خاتم الأنبياء).

توجه رسول الله (ص) نحو علي (عليه السلام)، وأشار إليه، ثم خاطب الناس، وقال: (ثُم مالكم اختلفتم من بعدي في علي وذريته، وقد أخبرتكم في أول بعثتي أن: (**هذا أخـــي ووصيي وخليفتي فيـــكم**)[٢]، وأمرتكم بالسمع والطاعة له، ولكنكم أجبتموني باتبّاع فلان وفلان دونه، وقطّعتم دينكم إلى فرق ومذاهب، وتركتم حبل الله

---

[١]* المستدرك / ج٣ / ص١٤٩ : (عن رسول الله (ص): النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف).

[٢]* ميزان الحكمة / ج١ / ص١٣٧: (عنه (صلى الله عليه وآله) مشيرا إلى علي (عليه السلام): إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا).

المتين، فبقي القرآن وحيداً غريباً يفقد صاحبه، ومفسّره، ومَن يعلم تأويله وبواطنه. وفي موطن آخر قلتُ لكم: **(من أراد أن يحيى حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي ابن أبي طالب، فانه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة)**[١].

طال الحديث بين الطرفين حتى لم يبق للناس حجة على رسول الله، حينها أعرض عنهم، وأشار إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، وقال للناس الكلام الأخير في حقهم:

(إن الله تعالى خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين في عالم الملكوت قبل أن يخلق أبيكم آدم عليه السلام بألفَي عام، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا جبال مرسية، ولا بحار مجرية، ولا رياح مسرية، ولا شمس مضيئة، ولا قمر منور، ولا ظلمة ولا نور، ولا جنة ولا نار).

تعالت الأصوات من هنا وهناك:

ــ كيف ذلك يا رسول الله؟

قال:

---

[١]* المستدرك / ج٣ / ص١٢٨: (قال رسول الله (ص): من أراد أن يحيى حياتي، ويموت ميتتي، ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي ابن أبي طالب فانه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة).

ـ لماّ أراد الله أن يخلقنا، تكلّم بكلمة خلق منها نوراً، ثم تكلّم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح فخلقني وخلق هؤلاء الأنوار الأربعة معي، فكنا نسبّحه حين لا تسبيح، ونقدّسه حين لا تقديس، فلما أراد الله أن ينشئ خلقه، فتق نوري فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش، ثم فتق نور أخي علياً فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور علي، وعلي أفضل من الملائكة، ثم فتق نور ابنتي فاطمة فخلق منه السموات والأرض، فالسموات والأرض من نور فاطمة، فهي أفضل من السموات والأرض، ثم فتق نورا ولدي الحسن والحسين، فنورهما من نور الله، وهما أفضل من الشمس والقمر والجنة وحور العين)[1].

قال خاتم الأنبياء كلامه هذا، ثم أشار لعلي وفاطمة أن اشفعوا في أمتي لمن ترونه لائقا لشفاعتكم، متّبعا لولايتكم[2].

[1] * بحار الأنوار / ج ١٥ / ص ١٠ : (عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن الله خلقني وخلق عليا وفاطمة والحسن و الحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ظلمة ولا نور ولا شمس ولا قمر ولا جنة ولا نار، فقال العباس: فكيف كان بدء خلقكم يا رسول الله؟ فقال: يا عم لما أراد الله أن يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نورا، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحا، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق عليا وفاطمة والحسن والحسين، فكنا نسبحه حين لا تسبيح، ونقدسه حين لا تقديس...).

[2] * [في ظلال التوحيد] للشيخ جعفر السبحاني / ص ٥٥٤: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إني لأشفع يوم القيامة وأشفع، ويشفع علي فيشفع، ويشفع أهل بيتي فيشفعون).

غمرتني فرحة كبيرة حين علمتُ بذلك، ورأيتُ أنه ليس من المناسب طلب الشفاعة منهم دون أداء التحية لهم، وبيان مقامهم أمام هذا الجمع العظيم، لذا جمعتُ عدداً من المؤمنين بولايتهم، والسائرين على نهج مدرستهم، وتوجهتُ بهم نحو تلك النفوس العارفة، والأنوار المنيرة.

تمكّنا من الدنو منهم بعد اختراق بعض حجب النور بيننا وبينهم، وبما يتناسب مع درجة ولايتنا لهم، حتى توقفنا عند الحد الذي لا يجوز لنا تخطّيه، فناديتهم بقلب عاشق لهم، وأديتُ التحية بخطابي إياهم، والجمع يردد معي ما أقول:

(السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وخزّان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم)[١].

السلام عليكم يا من هم **(الصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة، والباب المبتلى به الناس، من أتاكم نجا ومن لم يأتكم هلك. إلى الله تدعون وعليه تدلّون)**.

السلام عليكم يا من **(خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين، حتى من الله علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر**

---

*[١] مقتطف من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.

فيها اسمه، وجعل صلاتنا عليكم، وما خصّنا به من ولايتكم، طيبا لخلقنا، وطهارة لأنفسنا، وتزكية لنا، وكفارة لذنوبنا، فكنا عنده مسلمين بفضلكم، ومعروفين بتصديقنا إياكم)[١].

كان الجميع آذان صاغية لما أقول من المدحة العظيمة للنبي وآله، ورأيتُ الكثير منهم قد انبهروا من علو مقام تلك الأنوار، حينها سمعنا أصوات الناس من خلفنا تردد معنا أداء التحية والثناء عليهم، فاستأنفتُ، وكل من في الوادي يردد معي:

السلام عليكم يا من **(بلغ الله بكم اشرف محل المكرمين، وأعلى منازل المقرّبين، وارفع درجات المرسلين، حيث لا يلحقه لاحق، ولا يفوقه فائق، ولا يسبقه سابق، ولا يطمع في إدراكه طامع، حتى لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صدّيق ولا شهيد، ولا عالم ولا جاهل، ولا دني ولا فاضل، ولا مؤمن صالح، ولا فاجر طالح، ولا جبار عنيد، ولا شيطان مريد، ولا خلق فيما بين ذلك شهيد، إلا عرّفهم جلالة أمركم، وعِظم خطركم، وكِبر شأنكم، وتمام نوركم)**[٢].

توقفتُ عن مدحتي لهم، وساد صمت بين جموع الناس في الوادي، فقام الجميع إجلالاً للنبي وآله بعد علمهم بمقامهم ومنزلتهم عند الله، وتغيرت ملامح معظم الناس، خجلاً مما جهلوه عن نبيهم

---

[١]* مقتطفات من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.

[٢]* مقتطف من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.

وأوصيائه. وبين دهشة البعض وخجل الآخر، وبين بكاء الباكين أسفا، وحسرة المتحسرين ندما، تقدمتْ الزهراء تزهو بنورها البرّاق...

نعم، تقدمت فاطمة بعد أن أوحى الله عز وجل لها أن يا فاطمة: سليني أعطك وتمني علي أُرضك، فقالت فاطمة: (الهي أنت المنى وفوق المنى، أسألك أن لا تعذّب محبي ومحبي عترتي بالنار).

توقفتْ عن الدعاء، وألقت بنظراتها العميقة نحو جمع الناس العظيم، وكأنها عرفت سرائرهم وأحوالهم، ثم عادت لتناجي الرب العظيم، وتقول: (الهي وسيدي، سميتني فاطمة وفطمتَ بي من تولاني وتولى ذريتي من النار، ووعدك الحق، وأنت لا تخلف الميـــعاد).

جاء النداء من العلي الأعلى أن:(صدقتِ يا فاطمة إني سميتكِ فاطمة، وفطمتُ بكِ من أحبكِ وتولاكِ وأحب ذريتكِ وتولاهم من النار، ووعدي الحق وأنا لا اخلف الميعاد، يا فاطمة وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني، لقد آليتُ على نفسي من قبل أن أخلق السماوات والأرض بألفي عام أن لا أعذب محبيك ومحبي عترتك بالنار[١]. يا

---

[١]* بحار الأنوار / ج٢٧ / ص١٤٠: (... فيوحي الله عز وجل إليها: يا فاطمة سليني أعطك، وتمني علي أرضك، فتقول: إلهي أنت المنى وفوق المنى، أسألك أن لا تعذب محبي ومحبي عترتي بالنار، فيوحي الله إليها: يا فاطمة وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لقد آليت على نفسي من قبل أن أخلق السماوات والأرض بألفي عام أن لا أعذب محبيك ومحبي عترتك بالنار...).

فاطمة قد أوكلتُ أمر هؤلاء لكِ لتشفعي فيهم فأشفّعكِ، حتى يتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقعكِ مني، ومكانتكِ عندي. يا فاطمة من قرأتِ بين عينيه مؤمنا ومحبا فخذي بيده وادخليــــه الجنة)[١].

أقبلت فاطمة وسط الجمع، وهي على نجيب من نور، وقد أحاط بها من كل جانب سبعون ألف ملك. أقبلت وجبرائيل عن يمينها، وميكائيل عن شمالها، وعلي أمامها، والحسن والحسين ورائها، ثم نادى منادٍ فينا أن غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد، إذ لا طاقة لكم على تحمّل نورها، فما بقي أحد منا إلا وغض بصره، وأغمض عينيه.

بدأت فاطمة تلتقط شيعتها ومحبيها من النار كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، تلاها علي ثم الحسن، ثم الحسين،

---

[١]* كشف الغمة في معرفة الأئمة /ج ٢ / ص ٩١: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: لفاطمة عليها السلام وقفة على باب جهنم ... فتقول الهي وسيدي سميتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار ووعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عز وجل صدقتِ يا فاطمة، إني سميتك فاطمة وفطمت بك من أحبك وتولاك وأحب ذريتك وتولاهم من النار ووعدي الحق وأنا لا أخلف الميعاد، وإنما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك فيتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقعك منى ومكانك عندي فمن قرأت بين عينه مؤمنا أو محبا فخذي بيده وادخليه الجنة).

حتى أصبحت أعدادنا كبيرة جداً، وكنتُ أنا أحدهم، نعم، كنتُ ممن التقطتني فاطمة بشفاعتها.

قادتنا ملائكة الرحمن، وأخرجونا من النار، وتركنا ورائنا جمع كثير من الناس يصطرخون ويستغيثون، مرة للزهراء يلتمسون، وأخرى بأبيها يتوسلون، وآخرين لعلي يطلبون، ويقولون: (**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ*وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**)[1]، وآخرون يئسوا من الشفاعة، فراحوا يتمنون العودة للدنيا، لا لشيء إلا لأن يكونوا من المتمسكين بثقل الولاية، إذ كانوا يقولون:(**فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)[2]...

---

*[1] الشعراء / ١٠٠- ١٠١

*[2] الشعراء / ١٠٢

الفصل السابع :

لقاءٌ بعد فراق

لا أكاد اصدّق أننا خرجنا من جهنم، نعم، خرجنا منها وحال أكثرنا بأسوأ ما يكون، فهو كالحمم والفحم، لذا ذهبوا بنا إلى نهر يُقال له نهر الحياة، يُرش عليه من ماء الجنة، فألقينا أنفسنا فيه، حينها زالت عنا كل آثار النار والعذاب، وخرج الواحد منا كالبدر في ليلة تمامه، ولكن مكتوب على جباهنا جهنميون[١].

سرنا مع الملائكة بأمر فاطمة، حتى وصلت جنة الفردوس، فاستقبلتها هناك اثنتا عشرة ألف حوراء لم يستقبلن أحد قبلها ولا بعدها إكراماً لها، معهن خمسون ألف ملك على نجائب من ياقوت، أجنحتها من اللؤلؤ الرطب، وزمامها من الزبرجد، عليها رحائل من درّ، وعلى كل رحل وسادة من سندس... كل ذلك كان لأجل قدوم فاطمة!

ثم غادرتْنا بنت خاتم الأنبياء عند حدود الجنة، وغادر كل هذا الحشد العظيم معها، فعلمنا أن الإستقبال لم يكن لأجلنا، بل لأجلها، ولمنزلتها العظمى عند الله. غادرتنا بعد أن تركت في قلوبنا العشق لها، وكل واحد منا كان يشعر بالمنة العظيمة منها عليه.

---

[١]* عوالي اللئالي / ج١ / ص١٢٣: (قال رسول الله (ص): إن أهل النار يموتون ولا يحيون، وإن الذين يخرجون منها وهم كالحمم والفحم، فيلقون على نهر يُقال له الحياة أو الحيوان، فيرش عليهم أهل الجنة من مائه فينبتون، ثم يدخلون الجنة وفيهم سيماء أهل النار، فيقال هؤلاء جهنميون، فيطلبون إلى الرحيم عز وجل إذهاب ذلك الإسم عنهم فيذهبه عنهم، فيزول عنهم الإسم، فيلحقون بأهل الجنة).

تقدمنا أكثر نحو الجنان برفقة الملائكة ودلالتهم، وخلال مسيرنا هذا طرق سمعي تلاوة أحد المؤمنين ممن كانوا معي، فأصغيتُ له إذ كان يقول:

ـ ﴿ **لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾[١].

مررنا في الطريق على عين ماء كبيرة توقفنا عندها، وأمرونا بالاغتسال من مائها، فقذفتُ بنفسي فيها، وطرتُ فرحاً حينما باشر مائها بدني بعد حر الوادي ووهج النار فيه، وأحسستُ بخفة الثقل عليَّ بعد طهارتي وتغير لون وجهي وحسنه، إذ ازداد بهجة وسروراً، حتى خرج في أحسن صورة وأتم نور، مستعداً لجوار الله تعالى في جنانه.

انطلقنا إلى العين الأخرى وإذا بمائها يضيء من تلألؤ الحواري التي كانت واقفة على جوانبها. تقدمتُ نحو إحداهن لأتناول الكأس الذي كانت تحمله، فقلتُ لها وقد أدهشني جمالها، وحسن هيئة الإناء الذي بيدها:

ـ من أنتِ؟

قالت، وكلامها يسيل بالعذوبة والأدب:

---

[١]* الحشر / ٢٠

ــ أنا حورية خلقني الله من سعيك في الدنيا لتطهير نفسك رغبة في لقاء ربك.

ــ ولكني لم أتمكن من تطهيرها كما ينبغي، وكنتُ في دنياي متحسرا على ذلك عندما أرى أولياء الله سبقوني في القرب والمقام.

تبسمتْ، ثم قالت:

ــ لا بأس عليك، فقد شفع لك شخص اسمه مؤمن، ورُفعتْ درجتك إلى درجات المتطهرين بعد أن قبل الله شفاعته فيك، وها هو كأس الطهارة اشربه لتنال مرتبتهم في القرب والمقام.

فرحتُ كثيراً عندما سمعتُ منها اسم صديقي مؤمن، وتمنيتُ اللقاء به لا لشيء إلا لأشكره على ذكره لي، ووفاءه بوعده معي، إذ قال لي ونحن في ساحة المحشر انه سوف لن ينساني، وانه سيشفع لي في المواطن التي يمكن له فيها ذلك. أنني لا أنسى فضله علي في دار الدنيا، إذ أخذ بيدي وزرع فيها بذرة الإيمان، وسقاها وهي في قلبي حتى نمت وكبرت فأصبحت جزءً من روحي التي بين جنبي.

شربتُ من كأس ماء العين الذي بيدها .. سبحان الله! ما أعذب هذا الشراب وألذه، وما أعظم أثره على نفسي، إذ لم أتذوق من قبل شراباً مثله، ولم أجد طعماً أفضل من طعمه، كما إني أحسستُ بعد تناوله بطهارة قلبي من كل رجس وغل وملكة لا تليق بمقام القرب من الله، فقلتُ لها:

ـ وهل كل من شرب من أيدي الحواري الواقفة على ضفاف هذه العين سينال ما نلته؟

تبسمت مرة أخرى، وقالت:

ـ هم على تفاوت كبير، وكل ذلك بحسب شدة وضعف سعيه إلى ربه.

وقفنا على مشارف أبواب الجنة مع زمر العابدين، ووفود المتقين، ونظرتُ إليهم فرأيتُ كل واحد منهم مبيض وجهه، يسعى نوره بين يديه، يحمل كتابه بيمينه، موقناً برضا ربه...

ولم يطل وقوفنا كثيرا حتى أطلت علي إشراقة عملي الصالح بعد فراق طويل، سلّم علي وعانقني، ثم قال:

ـ ألم أقل لك يا سعيد سيأتي اليوم الذي أقودك فيه إلى الجنة، وها أنت على مشارف أبوابها.

انطلقنا نحو أبواب الجنان بعد أن استكملنا طهارة القلب والبدن، وجاء أمر المولى الجواد إلى خزّان الجنة من الملائكة أن افتحوا أبواب الجنان لأحبائي من عبادي. لم يتخلف أحد من الملائكة عن أمر الله، وأنّى لهم ذلك وهم ﴿ ... **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[1].

---

[1]* التحريم / ٦

امتلأ قلبي سروراً حينما سمعتُ حسن صرير أبواب الجنة، ولكني رفضتُ الدخول...! نعم، رفضتُ ذلك، وتأخرتُ عمن دخلها، فسألني الملائكة عن سبب تأخري فأخبرتهم أني لا أدخل الجنة حتى أشفع لأهل بيتي[١]. أريد الشفاعة لأمي المسكينة التي تركتها خلفي في عقبة صلة الرحم، ولا أعلم أين سارت بها أمواج الحساب. أريد أن أشفع لأختي هدى التي لا أنسى فضلها علي في دار الدنيا بعد رحلتي منها، هداها الله إلى الجنة إذ تكفلت بتربية ولدي يتيم الأبوين مرتضى حتى أصبح من المؤمنين المتخلقين بأخلاق الإسلام، والمدافعين عنه بالقلم واللسان.

تقدم نحوي أحد الملائكة، ويبدو أنه رئيس مجموعته، فتكلم معي بلطف بعد أن بارك لي النجاة والفوز بالجنة ونعيمها، وقال:

ــ هل تريد الشفاعة في أهل بيتك؟

أجبته، وأعلمته برغبتي الشديدة في ذلك، فقال:

ــ إن مرتبتك لا تُجيز لك الشفاعة في جميع أهل بيتك، وإن البعض منهم من له من الذنوب ما لا تسمح له باستقبال شفاعتك فيه.

ــ أخبرني عن أي شخص منهم يمكنني الشفاعة له.

ــ يمكنك ذلك لأختك هدى فقط دون غيرها.

---

[١]* بحار الأنوار / ج ٨ / ص ٣٨: (... ثم قال أبو جعفر عليه السلام : إن لرسول الله صلى الله عليه وآله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم...).

ـ آه، والآخرون، وأمي كيف السبيل لنجاتها؟

ـ إن أمك لا تزال محبوسة معذّبة في عقبة صلة الرحم، وأمامها عقبات عديدة لم تتجاوزها بعد.

نظرتُ لما حولي فما رأيتُ غير الملائكة، وقد أحاطوا بي من كل جانب يلتمسوني الدخول إلى الجنة مع أقراني، وراح أحدهم يصف لي القصور فيها، والحور التي أصبح شوقها عظيم لقدومي عليها، ولما رأوا إصراري على مطلبي قبل دخول جنتي، قال أحدهم إذن أدعو الله أن يشفعك في أختك.

ألقيتُ بنفسي ساجداً داعياً الله تعالى، باكياً، مستحضراً فضل الله العظيم علي بنجاتي من النار.

ناجيتُ ربي أن: (يا إلهي، يا من سلطان الآخرة بيده، يا من لا يشفع أحد في غيره إلا بأذنه، أسألك بحق الأنوار التي خلقتها وخلقت كل نور منها إلا ألحقت أختي هدى بالجنة).

لم أغادر موقعي، ولم أدخل جنتي، وكنتُ أنتظر قدومها بشوق عظيم، ولا أعلم لماذا تخلفت عني، وهي كما عرفتها كانت من المتقين، تُرى بأي عقبة تأخرت؟ وهل ستخرجها شفاعتي لها مما هي فيه الآن؟

طال انتظاري على أبواب الجنة حتى جائتني حورية منها، وهي في غاية الجمال، تلتمسني دخول الجنة، وتخبرني أن رفيقاتها بانتظاري. قلتُ لها ومن أنتُنَّ؟ قالت:

ـ كل واحدة منا هي صفة من صفاتك الحسنة التي أصبحت ملَكة عندك في الدنيا، قد أعددنا لك حفل استقبال وتبريك لفوزك بجنة الخلد.

توقفتْ عن الكلام قليلاً، ثم عادت لتقول:

الجميع بانتظارك يا سعيد، من خدم وجواري و..

قاطعتُ كلامها قائلاً لها:

ـ أشكركِ كثيراً مع رفيقاتك، ولكني أنتظر قدوم أختي معي، لقد كانت الوحيدة من أهل بيتي تدرس معي معالم الدين، وتبحث عن حقيقة الوجود، وتسعى معي بكل طاقتها لخدمة الإسلام، وقبل رحلتي من الدنيا تعاهدنا في يوم الغدير أن لا يدخل أحدنا أبواب الجنة حتى يشفع للآخر إن تخلف عنه[١]، وأنا لا أريد أن أخلف عهدي معها.

لم تنطق بشيء رداً على كلامي، إذ يبدو أنها قبلت بحديثي ووفائي بعهدي، لذا استأذنتْ العودة إلى رفيقاتها، فأذنتُ لها.

طال الانتظار مرة أخرى حتى جائتني البشرى...

---

[١]* مستدرك الوسائل / ج ٦ / ص ٢٧٨: قال في ضمن أعمال هذا اليوم المبارك (يوم الغدير): وينبغي عقد الأخوة في هذا اليوم مع الإخوان بأن يضع يده اليمنى على يمنى أخيه المؤمن ويقول: واخيتك في الله وصافيتك في الله وصافحتك في الله، وعاهدت الله وملائكته وكتبه ورسله وأنبياءه والأئمة المعصومين (عليهم السلام) على أني إن كنت من أهل الجنة والشفاعة وأذن لي بأن أدخل الجنة، لا أدخلها إلا وأنت معي. فيقول الأخ المؤمن : قبلتُ، فيقول : أسقطتُ عنك جميع حقوق الأخوة ما خلا الشفاعة، والدعاء، والزيارة.

نعم، قد وصلني خبر قدومها وأنها في الطريق إلينا، إنها في المراحل الأخيرة من التطهير.

لم تزل عيني تراقب الطريق، وتتمعن في كل قادم إلينا حتى أتت...

نعم، قد جاءت بنفسها، وعرفتها من أول نظرة رغم تغيّر صورتها، وشدة بياض وجهها، ورغم اشراقات نورها الذي يسعى بين يديها، ورغم جمالها الذي فاق جمال الحور الساحر. نعم، رغم كل ذلك لكني عرفتها، وهي مازالت تحمل عين ملامح هدى التي كانت في الدنيا.

عانقتها بعد فراق آلاف من السنين، وأول كلمة قلتُ لها، ودموع الفرح قد اختلطت بدموعها:

ــ أوفيتُ بعهدي معكِ يا هدى؟

رفعت رأسها، وأجابت وهي تمسح الدمع المتلألأ من على خديها:

ــ نعم، قد وفيتَ يا سعيد، كنتَ وفياً للعهد في الدنيا فأمكنك الله من وفاء عهدك معي في الآخرة. كنا ندعو الله سوية أن يجمعنا في الجنة وقد استجاب لنا، فنعم الرب ربنا.

علم الجميع بقدومها، وفتحت الجنة أبوابها، فهاج نسيم طيبها يحمل معه رائحة مسكها الأذفر، وزعفرانها المونع. اقتربنا أكثر وأكثر ورأينا حشود الملائكة المستبشرة بقدومنا قد وقفت على باب

الجنة، وعند المرور بهم نادى أولهم بصوت جميل: ﴿ ... **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾[١]، وتقدمنا أكثر، فنادى آخرهم مشيرا إلى الجنة ونعيمها: ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[٢].

وبدأ الحفل بموسيقى التسبيح، وتعالت نغمات التهليل، فاختلط معها لحن تكبير الحاضرين، وحمد الحامدين، لتكوّن بذلك أنشودة الخلود أن: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

نظرتُ إلى هدى، فرأيتها مبهورة بما ترى، فرحة بالنعيم الذي ينتظرها، والملائكة التي ترافقها، والجواري التي تخدمها، والطيور التي تغرّد بأغانيها فرحاً بقدومي وقدومها، حينها سمعتها تقول: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[٣].

انتهى الحفل فذهبنا نخطو في مفترق الجنان، في رياض الزعفران، وبين كثبان المسك التي تفوح منها رائحة وأي رائحة! يُقال لها مسك، ولكن أين هي ومسك عالم الدنيا!

---

[١]* الزمر / ٧٣

[٢]* الزخرف / ٧٢

[٣]* الزمر / ٧٤

لم يشغلني ذلك النعيم عن والدتي، فالتفتُ إلى هدى، وقلتُ لها:

ــ إن أمي بحاجة إلى شفاعتنا، وقد تركتها في عقبة صلة الرحم تتلوى ألما، وتحترق حسرةً، ولا أظن أنها خرجت منها حتى الآن، كما إني طلبتُ من الملائكة الشفاعة لها، ولكنهم أخبروني بعدم تمكني من ذلك لأن درجتي ضعيفة لا تسمح لي بالشفاعة لأمثالها.

أجابتني هدى، وقالت:

ــ صحيح ما قالوا، فأمثالنا في المقام لا يستطيع ذلك، لذا علينا التوسل بأصحاب المقامات العالية.

ــ وهل تعنين أحداً في كلامك يا هدى؟

ــ نعم، إن والدتي كانت دائماً تطلب الشفاعة في دنياها من الحسين سلام الله عليه، أجل، كانت تبكي كثيراً عندما كنتُ أقرأ لها زيارة عاشوراء، وخصوصاً عند المقطع الذي يقول: (**اللهم ارزقني شفاعة الحسين يوم الورود، وثبت لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام**)[1]، ونحن الآن في يوم الورود على الله، أليس كذلك يا سعيد؟

ــ آه، صحيح جدا ما قلتيه, ودليل صدق نيتها بكائها. كما إنني علمتُ منها مرات عديدة أن قصدها من زيارة الحسين، وإقامة مجالس العزاء عليه، إنما كان للقربى من الله لا لشيء آخر، وكانت

---

*[1] مفاتيح الجنان / مقطع من زيارة عاشوراء

ترفض الافتراءات الدخيلة على نهضته وعلى أصحابه في مجالسها التي تقيمها.

أطرقتُ قليلاً، ثم أردفتُ قائلاً لها:

ـ عزيزتي هدى، اتركي هذا الأمر لي واذهبي إلى جنتك التي أعدها الله لك، اذهبي فكل ما عملتِ في الدنيا من خير ينتظركِ الآن وقد تجسم بشكل قصور جذّابة، وبساتين خلاّبة، وخدم من الجواري والولدان المخلدين، الذين وصفهم الله تعالى في قرآنه كأنهم لؤلؤ مكنون. عزيزتي: إني مسرور جداً لكِ، وسوف أزوركِ عن قريب في جنتك، ولعله مع والدتنا إن شاء الله لنا ذلك.

فارقتها بعد أن اجتمعت وصيفاتها حولها ليقودنّها إلى جنتها، أما أنا فبقيتُ عند مفترق الجنان، وكان كل شيء يخطر على قلبي، وتشتهيه نفسي، يأتيني من فوره قبل أن أطلبه. سألتُ عملي الصالح عن الطريق إلى طلب شفاعة الحسين لوالدتي، فذهب سريعاً ثم عاد ومعه ملك في غاية الجمال، وقال لي اسأله بما تشاء، فسألته:

ـ كيف الطريق إلى نيل شفاعة الحسين لوالدتي، أريدها أن تلحق بنا.

أطرق قليلاً، ثم قال:

ـ هل تعني الحسين ابن فاطمة بنت خاتم الأنبياء؟

ـ نعم.

نظر الملك لما حوله ثم توجه لي، وقال:

ــ هل ترى اشراقات هذه الجنان؟ وهل ترى النور الذي يسطع من الحور والجواري والولدان؟ وهل ترى البساتين الخضرة وثمارها الجذابة؟ وهل تشم روائح الورود العطرة؟ وهل تسمع أغاريد طيور الجنة ونغماتها؟ وهل تسمع صوت جريان أنهارها؟

توقف عن الكلام، وتعجبتُ من أسئلته وماذا يقصد منها، فأجبته:

ــ نعم أسمع وأرى.

استأنف كلامه، وقال:

ــ إن كل ما ذكرته لك قد خلقه الله تعالى من نور الحسين، وجماله من جمال الحسين[1]، فالجنان أشرقت بأشراقته، وأضاءت من ضياءه.

سكت قليلا ليرى أثر كلامه، ولكنه فوجيء عندما قلتُ له:

ــ إني أعلم ذلك كله، إذ أخبرنا به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لنا أيضاً أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، كما إني أعلم أن للحسين درجات في الجنة ما نالها إلا بشهادته.

أطرق الملك قليلاً، ثم قال:

ــ إذن أنت تعلم ذلك، وتعلم بعظم مقامه وعلو درجته، ولهذا تطلب الشفاعة منه.

[1] – [مدينة المعاجز] للسيد هاشم البحراني / ج٣ / ص٤١٨: (... فقال صلى الله عليه وآله: ... وفتق نور الحسين فخلق منه الجنان والحور العين، والحسين أفضل منهما).

ـ نعم، إن والدتي من الصعب إخراجها من مأزقها الذي وقعت فيه إلا بشفاعة أصحاب المقامات العالية عند الله، وبما أنها كانت تطلب شفاعة الحسين وهي في الدنيا، وكانت تطلب القربى من الله بزيارته والبكاء عليه، فلا أظنه يتركها في الآخرة وهي بأشد الحاجة إليه، ولا أظن الله يرفض شفاعته فيها.

أحسستُ بإضاءة نور أمل لنجاة والدتي بعد جريان الحديث بيني وبين الملك، مما دعاني إلى التقدم أكثر في مهمتي، والإصرار عليها، لذا سألتُه عن كيفية الوصول إلى الحسين، والتحدث معه، فقال:

ـ إن قوانين الآخرة ليست كقوانين عالم الدنيا الذي كان مقيداً بالزمان والمكان، فلا يحتاج أن تذهب إليه حتى تتحدث معه، لقد كنتَ تزوره في الدنيا من على بُعد في المكان منه، وتعتقد أنه يسمع كلامك، ويرد جواب سلامك، فكيف وأنت الآن في عالم الآخرة؟

لم يكد حديثنا ينتهي حتى قدم علينا ملك ساطع نوره، عظيم بهائه وجماله، اقترب منا، ويبدو منه أنه قادم من الجنان العالية، إذ كان أعلى درجة من بقية أصناف الملائكة. ومما دل على ذلك قيام جميع الملائكة من حولي، وأدائهم الاحترام إليه. سلّم علينا، ثم توجه نحوي، وقال:

ـ إن الحسين سيد شباب جنان الخلد يبلغك السلام مع كل إخوانك المؤمنين الذين وردوا حديثاً إلى جنانهم، ويريد زيارتكم عن قريب، فهل ترغب في ذلك؟

طرتُ فرحاً وســروراً حينما علمتُ أن مولاي يرغب بزيارتنا، ولم أكد أصدق ذلك لولا علمي بأن عالم القيامة هو عالم الحقيقة المطلقة، وليس فيه نوم ولا حلم ولا خيال، لذا جمعتُ أمري، وقلتُ له:

ــ كيف لا أرغب في لقاء مولاي الحسين، وقد كنتُ أذرف الدموع شوقاً لزيارة قبره، فكيف والآن يدعوني للقاء شخصه. أخبره أني سأكون أول من يستقبله، وأخبره أن سعادتي ليس بجنتي التي سوف أدخلها، ولا بالنعيم الذي فيها، ولا بالأنهار التي تجري من تحتها، بل إن سعادتي بلقائه، والنظر إلى جمال وجهه.

كان الملك يمعن النظر في وجهي، ويصغي لقولي، وعندما توقفتُ عن الكلام، قال:

ــ إذن اذهب وادخل جنتك، وحشّد ما لديك فيها لاستقبال مولاك...

الفصل الثامن :

على شواطئ الكوثر

أرسلتُ عملي الصالح لاستطلاع الأوضاع، وتهيئة أمر دخول جنتي، فمكث غير بعيد ثم جاءني مع جمع عظيم من الملائكة، وقال:

ـ إن كل شيء حاضر ومهيأ، وآلاف من الملائكة والخدم والجواري والحور بانتظار قدومك إلى مملكتك، وقد طلب مني كبارهم المجيء معي ليكونوا من أوائل المستقبلين، ويرافقوك في أول دخولك جنتك.

قلتُ له مستعظماً قوله:

ـ أحقا ما تقول؟ ومن أكون أنا حتى يعطيني ربي كل هذه الكرامة من عنده؟!

صمت قليلا، ثم قال:

ـ ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً** ﴾[١]، وأنت من المتقين يا سعيد.

ودخلتُ جنتي...

وأي جنة ساحرة! وأين هي من جنات الدنيا، بل وجنات عالم البرزخ! دخلتُ ويرافقني على يميني ملك جميل المنظر، حسن الخلقة، ذو هيبة عظيمة، يأتمر بإمرته كل من تقدم أمامنا ومن تأخر عنا، فسألته من يكون، فأجاب:

---

[١]* مريم / ٦٣

ـ إني مسؤول مملكة جنانك، خلقني الله تعالى لأكون تحت إمرتك مع كل هؤلاء الذين تراهم، والذين لم يأتوا معنا، وهم بأشد الشوق إليك، ويفتخرون بالقيام بخدمتك كلٌّ حسب وظيفته.

تقدمنا في المسير داخل الجنان، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حتى وصلنا إلى أول قصر من قصورها، نظرتُ إليه فرأيته من فضة، مشرقا بالدر والياقوت، قد وقف على أبوابه الملائكة وحور العين الذين أظهروا اشد الترحيب بنا، وطلبوا منا النزول عندهم، حتى هممتُ بذلك، ولكن الملك الذي كان يرافقني أشار إلي وقال:

ـ يا سعيد، إن هذا القصر مُلكك، ولكَ أيضا ما هو أعظم منه أمامنا، فلنسري إليه.

قبلتُ كلامه، وانطلقنا حتى أتينا إلى قصر من ذهب مرصّع بالدر والياقوت، فهممتُ بالنزول إليه، ولكن الملك أخبرني أيضاً بأنه مُلكي، وهناك ما هو أعظم منه[1].

---

[1] * [ألف حديث في المؤمن] للشيخ هادي النجفي / ص ٣٠٤ – ٣٠٦: (... فيقلن : مرحبا مرحبا يا ولي الله انزل بنا، فيهم أن ينزل بهن فتقول له الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره. قال: ثم ينتهي إلى قصر مكلل بالدر والياقوت فيهم أن ينزل بقصره فتقول له الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره ... فيأتي قصرا يرى باطنه من ظاهره وظاهره من باطنه، لبنة من فضة ولبنة من ذهب ولبنة من ياقوت ولبنة در، ملاطه المسك، قد شرف بشرف من نور يتلألأ ، ويرى الرجل وجهه في الحائط ...).

تابعنا مسيرنا ومررنا بقصور عديدة أخرى، حتى وصلنا إلى مشارف قصر في غاية من الجمال، يُرى باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه، ليس له حد في سعته، ولا نهاية في علوه، وما رأيتُ مثيلاً له في جماله وعظمته. عجبتُ كثيراً من ألوانه المشعة وقد مزجت بصورة رائعة خلابة، لتعطي منظراً ساحراً، وشعاعاً منسجماً مع ما حوله من الحدائق الخضراء، والورود ذات الألوان البهية.

لم يتركني الملك في حيرتي حينما رآني أتمعن في لبنة جدرانه، إذ قال:

ــ إن مواده من الذهب والفضة، والدر والياقوت، ذات الألوان المتعددة التي لم تكن لديكم في عالم الدنيا.

ــ آه، صحيح، إني أرى ألوانا لم تكن لدينا في دار الدنيا، بل لم تكن تخطر من قبل على فكر بشر!

تخلف عنا الحشد العظيم، ودخلتُ أنا وعملي الصالح والملك إلى حديقة القصر. تبسم عملي الصالح بعد أن شاهد القصر، وتمعن فيه، ثم قال:

ــ يا سعيد، لقد كنتَ مهندساً في الدنيا، وذو خبرة عالية في تصميم الأبنية، فما رأيك بهذا القصر؟

توجهتُ إليه مبتسماً، ثم أجبته:

ــ لو اجتمع عظماء مهندسي الدنيا على بناء غرفة واحدة من غرفه، ما تمكنوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

تجولنا قليلا في حديقة القصر، وكانت الورود تحيينا، وتغيّر من ألوانها بين الحين والآخر، وتطلق أنغاماً موسيقية رائعة بحركة إزهارها ورنين أوراقها، يطرب لها سامعها. توقفتُ عند احدها بعد أن رأيتها مسرورة جداً بقدومنا، وقبل أن انطق بكلمة معها، قالت:

ــ أنا وردة خلقني الله قبل آلاف من السنين، وكنتَ أنتَ السبب في خلقي، فلك المنة علي أن أخرجتني إلى عالم الوجود!

سألتها مستغرباً:

ــ وكيف كنتُ أنا سبب وجودكِ؟

قالت، وكأنها واثقة من كلامها:

ــ نعم أنت قضيتَ حقبة من الزمن في عالم الدنيا قبل آلاف من السنين، وصنعتَ بعملك كل ما تراه أمامك الآن، وهذا القصر العظيم أنت بنيته بعملك لبنة بعد لبنة منذ ذلك الوقت، وهذه الورود والأشجار والأنهار أيضاً، وقد مضت آلاف من السنين ونحن ننتظر قدومك علينا، فكيف لا نسعد الآن، وقد أتيت بين أحضاننا، وكيف لا نخدمك وأنت سبب وجودنا.

توجهنا نحو شجرة لفتت نظري من بين الأشجار، وتوقفتُ عندها، فبهرني جمالها وظلها الممدود الذي استظل به جميع سكان القصر وحدائقه وما فيها، فكان المناخ ذا عذوبة بالغة، ونور معتدل، لا تُرى فيه شمس ولا زمهرير. التفتُ نحو الملك، وقلتُ له:

ــ ما اسم هذه الشجرة؟

قال:

ــ إنها غصن من أغصان شجرة طوبى التي يمتد جناح ظلها على الجنان كلها. واصلها من رضوان، وماءها من تسنيم، وما في الجنة من قصر ولا دار إلا وفيه فرع منها.

قلتُ مندهشا:

ــ سبحان الله! إذا كان هذا غصن من أغصانها فكيف يكون أصلها؟!

قال:

ــ إن أصل شجرة طوبى في دار خاتم الأنبياء ووصيه علي[1].

ــ وهل دارهما واحدة؟

ــ نعم إن منزل خاتم الأنبياء وعلي في مكان واحد من جنة عدن، عند قبة الرضوان، وهو منزل في غاية من العلو في الرتبة والمقام، والقرب من الله، وما قصرك هذا وجميع ملكك في مملكتك إلا كذرّة من ذرات تراب جنة الخاتم وأهل بيته!

---

[1]* شجرة طوبى /ج ١ / ص١٨٧: (وقال (ص): إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، ما في الجنة دار ولا قصر ولا حجرة ولا بيت إلا وفيه غصن من تلك الشجرة، وأن أصلها في داري. وقال يوما آخر: وأصلها في دار علي بن أبي طالب، فقام عمر وقال: يا رسول الله أوليس حدثتنا عن هذا وقلت أصلها في داري ثم حدثت وتقول أصلها في دار علي (ع)؟ فرفع النبي رأسه وقال: يا عمر أوَ ما علمت إن داري ودار علي واحد، وحجري وحجر علي واحد، وبيتي وبيت علي واحد، ودرجتي ودرجة علي واحدة، وستري وستر علي واحد).

توقف الملك قليلاً، ثم قال:

ـ من الأفضل أن نترك التجول في حدائق القصر إلى وقت آخر، وندخل الآن إلى غرفه، فان زوجتك علمت بقدومك، وقد بلغ شوقها إليك أقصاه، كما إنها أبت أن تخرج من خيمتها حتى تأتي أنت عليها، وتكون أول من يراها!

اشتد شوقي إليها، وعشقي لها قبل رؤيتها، وذلك لعظيم إخلاصها وطويل انتظارها لي، ولعلها كانت ترتقب قدومي عليها منذ آلاف من السنين.

دخلنا القصر، فكان على شكل غرف من فوقها غرف مبنية بالدر والياقوت والزبرجد، وسقوفها من الذهب محبوكة بالفضة، ولصفاء جدرانها وأرضها، كنتُ أرى صورتي فيها، ولكثرة أبوابها لم أحصها، وكان على كل باب من أبوابها ملك موكل به[1].

كانت في الغرف فرش مرفوعة بعضها فوق بعض، بطائنها من استبرق، وظاهرها من الحرير والديباج بألوان مختلفة، تفوح منها رائحة المسك والعنبر، وهي أخف من الريش وألين من الحرير.

---

[1]* بحار الأنوار / ج ٨ / ص ١٥٨: (... فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عز وجل: " غرف مبنية من فوقها غرف " بماذا بنيت يا رسول الله؟ فقال: يا علي تلك غرف بناها الله عز وجل لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد، سقوفها الذهب محبوكة بالفضة، لكل غرفة منها ألف باب من الذهب، على كل باب منها ملك موكل به، فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة، وحشوها المسك والكافور والعنبر...).

تحركنا نحو غرفة في أعالي القصر كانت تشرف على كل حدائقه. سألتُ الملك عنها، فقال:

ـ إنها غرفتك، وستدخلها أنت دوننا، ولها من الميزات ما ليس لغيرها.

دخلتُ غرفتي بسم الله الرحمن الرحيم...

سبحان الله الذي خلقني وخلقها! إنها جنة صغرى داخل مملكة كبرى، لها من الجمال والكمال ما ليس لغيرها من الغرف الأخرى. تجري من تحتها الأنهار من غير أخدود ولا شقوق. تحيرتُ في منابعها ومصباتها، فلا يُعلم من أين تأتي وإلى أين تسير! نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفّى، فقلتُ سبحان الله والحمد لله، وهذا أيضاً مما وعدني الله به إذ قال: ﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** ﴾[1].

كان في الغرفة أسرة متعددة من الدر والياقوت، فجلستُ على أحدها فاهتز فرحاً مسروراً، وقال مفاخراً بقية الأسرة: هنيئاً لي فقد جلس علَي ولي الله!

---

[1]* الزمر / ٢٠

تبسمتُ من كلامه، وقمتُ لاستطلاع ما في الغرفة ولكني تذكرتُ زوجتي التي قال الملك عنها أنها تنتظرني، فأين هي؟

هممتُ بمناداة الملك الحاجب على باب الغرفة الأكبر، وإذا به ينفتح ويدخل النور معه، ليزيد النور على النور. سألتُ الحاجب عن ذلك، فقال:

ـ إن الملائكة أخبرت زوجتك الحوراء بدخولك القصر، فاستبشرت وتبسمت مسرورة بذلك، وهذا شعاع تبسمها!

قلتُ:

ـ سبحان الله! وأين هي الآن؟

ـ مع وصيفاتها وجواريها، وسوف تأتيك عن قريب بعد أن يكتمل استعدادها للقائك.

زاد شوقي للقائها، ودخلتُ الغرفة منتظراً قدومها. لم يمضِ وقت طويل حتى أتاني الحاجب يخبرني بأن وصيفات زوجتي يردن الدخول علي، فأذنتُ لهن.

دخلن ونظرتُ لهن، فإذا بهن من الجمال ما لا يوصف، ومن النور ما لا يتحمله أهل الدنيا لو رأوا ذرة من شعاعه. جلسن وتكلمن بكلام عذب يطلبن فيه الأذن لزوجتي بالخروج من خيمتها والقدوم علي!

أعطيتهن الإذن بذلك، وقلتُ في نفسي سبحان الله! إذا كانت وصيفات زوجتي هكذا، فكيف هي؟! وكيف لا أعطي الإذن بقدومها وأنا أكاد أذوب شوقاً لرؤيتها؟!

ما أن خرجن حتى أحسستُ بحدوث ضجة في القصر، وما هو إلا وقت قصير، وإذا بالذي شغل فكري، وعظم شوقي إليه، يقدم بنفسه..

نعم، أقبلتْ وحولها وصيفاتها، وآلاف الخدم والجواري من خلفها، والملائكة تحفها من كل جانب، وتزفها بأعذب النغمات، وأجمل الأنشودات.

وقفتُ أنظر إليها من داخل الغرفة وقد طغى نورها على من حولها. لم أتمكن من رؤيتها حتى تقدمتْ وحدها، ودخلتْ تاركة ورائها كل من كان معها. دخلتْ الغرفة بنفسها، وتقدمتْ خطوات فيها...

كنتُ أنظر إليها، فانشغلتُ بجمالها الساحر عن الكلام معها، وقلتُ سبحان ربي حينما قال: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[1]، ويبدو أنها أيضا بُهرتْ بجمال وجهي، وشعاع نوري، فراحت تنظر لي نظرة العاشق المشتاق، ليسكن طول حنينها، وعظيم شوقها، ثم تبسمتْ..

---

[1]* السجدة / ١٧

نعم، تبسمتْ فغمرتْ الغرفة بضياء تبسمها وطيب ريحها، وبقيتُ أنا كالمبهوت الذاهل من عظيم ما أرى!

كان جمالها وكمالها يسلب الألباب، ويحير العقول، وعيونها واسعة يتلألأ وسط سوادها بريق بياضٍ كاللؤلؤ، ترتدي ثياباً شفافة براقة، تسحر الأبصار بألوانها.

كان صدرها مملوءاً بقلائد اللؤلؤ اللّماع، وأيديها بالحلي الذهبية البراقة التي تعطي ألواناً عجيبة بانعكاساتها، وألحاناً مطربة بحركاتها. أما عطرها فكان يفوح برائحة طيبة كرائحة الورد الأحمر، وعطر ثيابها يتغير بين الحين والآخر مع تغير ألوانها، ليعطي انسجاماً رائعاً مع طرقات الحلي وألحانها.

اقتربتُ منها، وقلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

قالت بصوتها العذب:

ـ أنا إحدى زوجاتك في الجنة، وأنا من الخالدات اللاّتي لا يمتن، والراضيات اللاّتي لا يسخطن.

ـ وهل أنتِ من نساء الدنيا، أم من حور الجنان؟

ـ أنا من حور العين التي قال الله عنها: ﴿ **حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ** ﴾[1]، وأنا من اللواتي قال الله عنها: ﴿ **إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً***

---

*[1] الرحمن / ٧٢

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً* عُرُباً أَتْرَاباً)[١]، وأنا من اللواتي خلقهن الله من تراب الجنة، وعطرهن من عطرها.

استأنستُ كثيراً بكلامها، وطربتُ لحديثها، وما أحببت سكوتها، فسألتها:

ــ ولماذا يُطلق عليكن الحور العين؟

ــ لتحيّر العقول في جمالنا.

ــ ولماذا يُطلق عليكن عُرُبا أترابا؟

ــ لأننا نحن الوالهات، العاشقات لأزواجنا[٢].

تمعنتُ في صفحة وجهها المشرق، فكان كاللؤلؤ المكنون في اشراقته، وكالياقوت في صفائه، فتحيّر عقلي من جمالها وكمال خَلقها، فقلتُ لها:

ــ لو كنتُ في نشأة الدنيا لما طقتُ النظر إليكِ لحظة واحدة لعظيم جمالك، واشراقة وجهكِ[٣]، بل لو أتيتِ أنتِ إلى عالم الدنيا لطغى نوركِ على نور شمسها، كما يطغى نور الشمس على قمرها

---

*[١] الواقعة / ٣٥ – ٣٧

*[٢] تفسير الميزان / ج ١٩ / ص ١٢٤: (وقوله: " عربا أترابا " العرب جمع عروب وهي المتحننة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن).

*[٣] وسائل الشيعة / ج٦ / ص٤٦٦: (عن أبي عبد الله (ع) قال: لو أن حوراء من حور الجنة أشرفت على أهل الدنيا وأبدت ذؤابة من ذوائبها لأفتتن بها أهل الدنيا، وإن المصلي ليصلي فإن لم يسأل ربه أن يزوجه من الحور العين قلن ما أزهد هذا فينا).

فيمحوه، لا بل لو أن ثوباً من ثيابكِ هذه أُتي به على أهل الدنيا لانبهروا جميعا منه، ولأغمي عليهم وما تحملوا رؤيته، ولا أطاقوا النظر إليه، فمِن أين أتاكِ كل ذلك؟

كانت تستمع لكلامي، وتأنس بأسئلتي منها، وتنظر لي بنظرات العاشق لمعشوقه، وحينما توقفتُ عن كلامي منتظراً جوابها، قالت:

ــ إن كل ما تراه من جمال وكمال عندي، أنتَ وهبته لي.

ــ وكيف ذلك؟

ــ إن الله تعالى خلقني منذ آلاف السنين، يوم كنتَ أنت في دار الدنيا تقضي عمرك فيه. خلقني الله من امتناعك عن النظر إلى ما حرم الله عليك من نساء الدنيا امتثالاً لأمره، ورغبة في ثوابه، على الرغم من نزغات الشيطان إليك، ووساوسه عليك. في أول خلقي لم أكن بهذه الدرجة من الجمال والكمال الذي تراه الآن، ولكن كلما امتنعتَ عن النظر المحرّم، وكلما دمعتْ عيناكَ في الأسحار من خشية الله، زادني ربي جمالاً فوق جمالي، ونوراً فوق نوري، فلك الفضل عليَّ أن كنتَ السبب في خروجي من العدم إلى عالم الوجود، ولك المنة علي أن جعلتني بتلك الدرجة الرفيعة، والمرتبة العالية، حتى أن آلاف من الملائكة تخدمني، والوصيفات ترافقني.

سكتتْ قليلا، وما علّقتُ على كلامها منتظراً بقية حديثها، فأردفتْ قائلة:

ـ عندما كنتَ تعبد الله وتذكره في الأسحار، كنتُ متعطشة إليك، والهة بك، وكلما كنتَ تدعو الله وتقول: ومن الحور العين فزوجني، كنتُ أقول سبعين مرة: يا رب عجل وصالنا.

توقفتْ عن الكلام تنتظر سؤالا آخر مني، فقلتُ لها:

ـ وهذا العطر الذي يفوح منك، أي عطر هو؟

ـ إنه عطر الورد الأحمر في الجنة، وما رائحة الورد الأحمر الذي كنتَ تحبه في الدنيا إلا قطرة من خزانة جنة الآخرة.

أظهرتُ لها بالغ الترحيب، وأجلستها في مكان مرتفع من الغرفة لتتكأ على إحدى الأرائك المطلة على حدائق القصر، واتكأتُ أنا على أريكة تقابلها.

دار حديث العشق بيننا، وتبادلنا عبارات الشوق والحنين، ورحنا نشاهد المناظر الخلابة، والحدائق الجذابة ذات الأشجار المتشابكة، والأزهار المتناسقة في ألوانها، المتفاوتة في عطرها، وقد غُرست فوق كثبان المسك والزعفران، وكم تكون رائعة عندما تشقها الأنهار العذبة الصافية في مياهها..

التفتُ إلى زوجتي الحوراء، فقرأتُ الابتسامة والسرور على صفحة وجهها، وقلتُ لها:

ـ إن جلوسنا هذا مصداقٌ لقول ربي: ﴿ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ** ﴾[١].

أجل جلسنا نشاهد الأنهار بوضوح، إنها أربعة أنهار تجري، طينها مسك أذفر، وحصاها الدر والياقوت، أولها نهر من ماء صاف لا كدورة فيه، ونهر آخر من لبن أشد بياضا من الثلج، وألين من الزبد، وثالث من خمر يلتـذ برائحته كل من يقترب منه، فكيف بالذي يتناوله، ثم الرابع نهر من عسل مصفّى[٢].

شعرتُ برغبة لتناول شيء من تلك الأنهار وثمار الأشجار المطلة عليها، ولحوم الطيور السائحة فوقها، وهممتُ بمفاتحة الحوراء بذلك، وقبل أن أتفوه بكلمة معها دخل علينا الملك الحاجب فسلّم، وقال:

ـ إن ما اشتهيته حاضر، فهل تأذن بإدخاله إليكما؟

نظرتُ إليه مندهشاً مستغرباً ما يحدث، ولكني لم أظهر له ذلك فتبسمتُ وأذنتُ له. دخل علينا ملائكة في غاية الجمال لم أرهم من

---

[١]* يس / ٥٦

[٢]* محمد / ١٥ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾.

قبل هذا، فقالوا جميعا: ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾[١]، ورددنا عليهم السلام.

كان أحدهم يحمل طبقين في كل طبق أربعة أكواب، وآخر يحمل طبق فيه أنواع الفاكهة، وآخر يحمل طبق فيه لحم طير مشوي.

سألتهم عمن يكونون، فأجاب أحدهم:

ـ نحن خدام الجنة من الولدان المخلّدين.

التفتُ إلى زوجتي الحوراء وقلتُ لها: ما أصدق وعد ربنا حينما قال: ﴿ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ* لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ* وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ* وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ* وَحُورٌ عِينٌ* كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ* جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٢].

وضعوا كل ما أتوا به في أماكنه وانصرفوا، فأحسست بعظيم نعم الله التي أعطانيها، وجسيم آلائه التي غمرني بها.. ماذا فعلتُ خلال عمري القصير حتى أجازى بكل هذا، وأُعطى كل هذه الكرامة من عنده؟

ناديتُ ربي نداء العبد لمعبوده، والفقير إلى المُنعم عليه: يا ربي (**تقدست أسمائك، وعظمت آلائك، فأي نعمك يا الهي أحصي عدداً**

---

[١]* الرعد / ٢٤

[٢]* الواقعة / ١٧ – ٢١

وذكراً، أم أي عطاياك أقوم بها شكراً، وهي يا رب أكثر من أن يحصيها العادّون، أو يبلغ علماً بها الحافظون)[١].

جرت على خدَي دموع المقصّر المعتذر من ربه مقابل عظيم نعمه، وتنحيتُ جانباً من الغرفة، ودعوتُ ربي متذللاً خاشعاً: يا إلهي **(لو حاولتُ واجتهدتُ مدى الأعصار والأحقاب لو عُمِّرتها، أن أؤدي شُكر واحدةٍ من أنعمك ما اســتطعتُ ذلك، إلا بمنك الموجب عليَّ به شـــكرك)**[٢].

استغربتْ الحوراء حالي بعد أن تركتها مع ما لذ وطاب من الطعام والشراب. لحقتني وجلستْ جنبي تمسح الدموع عني بيديها الناعمة لتهب لي الطمأنينة والسكون، ثم قالت:

ــ عزيزي سعيد، ليس أنت الوحيد الذي يشعر بتقصيره أمام خالقه، إن الله تعالى متفضل على كل مخلوقاته، وما من أحد له المنة عليه في طاعته، ولو حاسب الله الجن والإنس بعدله ما نجا منهم أحد قط. أطاعوه بالجوارح التي وهبها لهم، وذكروه باللسان الذي منحه إليهم، وأعطوا الصدقة والخمس والزكاة من المال الذي وكّلهم عليه، فأي منة للخلق على الله؟ لكنه مع ذلك يهب من أطاعه كل هذه الجنان والنعيم!

---

*[١] مقتطف من دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة.

*[٢] مقتطف من دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة.

ـ صحيح يا عزيزتي، ولكن ألا يستحق ربنا العشق من عباده؟ وهل يغفل العاشق عن معشوقه؟ أويهدأ الحبيب عند فراق محبوبه؟ وأنا أشعر الآن بالتقصير أمام ربي أن عبدته وأطعته في الدنيا خوفاً من ناره وطمعاً في جنته، لا حباً له وشكراً له على أنعمه، وأنا لا أهدأ الآن حتى يغشيني ربي برضاه.

وعاد الدمع يجري لأناجي ربي هذه المرة بلسان العاشق له: **(إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللتَ على فضايحي عيون العباد، وأمرتَ بي إلى النار، وحلتَ بيني وبين الأبرار، ما قطعتُ رجائي منك .. ولا خرج حبك من قلبي)**[1]، فكيف وقد أدخلتني الآن جنتك، وأغرقتني في نعمك التي لا تفنى ولا تزول، أريد يا إلهي أن يعلم سكان سماواتك وأرضك أني أحبّك.

لم يمضِ وقت طويل حتى جاءني رسول من العلي الأعلى، فدخل علينا بعد الاستئذان، وقال:

ـ جئتك من العلي الأعلى لأبلّغك السلام، وأنقل لك المعنى الذي أمرني بنقله إليك: (عبدي: إني أحب خلقي منذ خلقتهم، وأردتُ لهم الجنة وعرّفتها لهم[2]، وأنرتُ لهم طريقها عبر أنبيائي ورسلي،

---

[1]* مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين (ع).

[2]* محمد / ٦ : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

وضاعفتُ لهم أعمالهم، فجعلتُ الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها[١]، كي تثــقل موازينهم، ورأيتُ منهم التثاقل في طاعتي فأوجدتُ لهم ليلة القدر كي ترتفع هممهم، ويتزود الفقير والغني منها بأضعافٍ من الزاد ليوم فاقتهم، وقبلتُ منهم يسير الطاعة، وغفرتُ لهم عظيم المعصية، كل ذلك كي يدخلوا جنتي، ويتنعموا بنعمتي، وقد رضيتُ على كل من دخلها، وكتبتُ له الأبدية فيها).

كان كلام الملك وخطاب الجليل لي كالماء البارد الذي صُب على قلبي الملتهب، وأحسستُ بتمام السعادة وكمالها حين علمتُ برضا الرب عني. كما عزز ذلك الرضا أن جاءني ألف ملك بعد أن استأذنوا مني، وفُتحت لهم الأبواب، ودخل كل واحد منهم يحمل باقة من ورود جنة المليك المقتدر. أخبرني كبيرهم بعد أداء التحية والسلام أن: العلي الأعلى قد أرسلهم لتهنئتي، والمباركة بزواجي من الحور العين[٢].

خرجنا نتجول سوية في حدائق القصر، وكان كل من يمر علينا يبدأنا بالسلام، حتى الورود والأشجار والطيور والأنهار، وخلال

---

[١]* الأنعام /١٦٠: ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾.

[٢]* الكافي / ج ٨/ ص٩٨: (... ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنئونه بالجنة ويزوجونه بالحوراء، قال: فينتهون إلى أول باب من جنانه فيقولون للملك الموكل بأبواب جنانه: استأذن لنا على ولي الله فإن الله بعثنا إليه نهنئه، فيقول لهم الملك : حتى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم ...).

سياحتنا هذه اقتربنا من نهر يختلف عن الأنهار الأربعة الأخرى، ويفوقها في جماله وسعته، شواطئه من اللؤلؤ والزبرجد، وحصاه من الياقوت والمرجان، وحشيشه من الزعفران، وترابه من المسك، على جانبيه تقف الجواري بين ظلال الأشجار العالية ذات الأغصان المتشابكة، وكلما هبت ريح هادئة على تلك الأشجار، لا يبقى غصن فيها إلا وراح يغني بصوت عذب يطرب له سكان الجنان!

أما مياهه فكانت بدرجة من الصفاء حتى كنا نرى صورنا المضيئة فيه، رغم تلاطم أمواجه التي كانت تسبّح لخالقها بأنواع التسبيح، وتــضم صوتها إلى أصوات الكواعب النابتة على ضفافه الخضراء. كان على شاطئه أيضاً قباب مضيئة من الياقوت والدر الأبيض، فتنعكس أشعتها فيه لتعطي منظراً ساحراً لا يمل منه من يشاهده، ولا يسأم منه ناظره.

سألتُ الحوراء عن اسم هذا النهر، فقالت:

ــ إنه أحد فروع نهر الكوثر.

تقدمنا في مسيرنا تحت ظلال الأشجار المنتشرة على شواطئ الكوثر، وإذا بها تحيينا بأغصانها، وتدلي لنا بثمارها، علّنا نقتطف شيئاً منها[1]. تناولنا ماشاء الله لنا من ثمارها، وكل ثمرة نأكلها تعود بإذن الله إلى هيئتها وموضعها، فلا تنقص من شجرتها شيء.

---

[1] * الإنسان / ١٤: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾.

نظرتُ إلى زوجتي الحوراء، وكلما أنظر لها يمتلأ قلبي بهجة وسروراً من جمالها، فقرأتُ الابتسامة على وجهها، وقلتُ لها:

ـ إنه مصداق قول الله تعالى: ﴿ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ** ﴾[1]، ألا ترين الثمرة قد قُلعت من موضعها، فأعادها الله كما كانت في مكانها.

انطلقنا حتى وقفنا تحت نخلة كانت جذوعها من الذهب الأحمر، وكربها من الزبرجد الأخضر، وشماريخها من الدر الأبيض. سمعنا نداءً من أحد رطبها يقول لنا:

ـ كلني يا ولي الله قبل أن تأكل غيري.

وما أن نويتُ تناولها حتى سقطت واحدة في يدي وأخرى في يد الحوراء، فحمدتُ الله على ذلك، وقلتُ لها كلي بسم الله. تناولتُها ولم يكن في داخلها نوى، وإذا بها أحلى من العسل، وألين من الزبد، لا توصف لذته، ولا يشبع منه آكله.

جلسنا بالقرب من الورود، فغمرت مشامنا روائحها العطرة، ومسامعنا نغماتها الطربة، وراحت تحيينا بألوانها الجذابة، وتفتح أزهارها الخلابة. التفتُ إلى الحوراء وإذا بها تحمل كأسا بيدها، قدمته لي، ثم قالت:

ـ اشربه بسم الله.

---

*[1] الواقعة / ٣٢ – ٣٣

تناولته منها، وشربتُ منه، فأحسستُ بلذة لا توصف، وطعم لم اتذوقه من قبل هذا، فسألتها:

ـ ما هذا الشراب يا عزيزتي؟ ومن أين أتيتِ به؟

ـ أتاني به أحد خدّامي، انه شراب مزيج من تسنيم، أما قرأتَ في القرآن ﴿ **وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[1].

ـ إذا كان هذا خليط من شراب تسنيم، فمن يشرب خالصه؟ وكيف سيكون طعمه؟!

ـ إن توحيدك في الدنيا لم يكن خالصاً تمام الخلوص لله، لذا فان أصل هذا الشراب اختص الله به أنبيائه وأوليائه المقربون، ممن طهّروا قلوبهم من كل شيء سوى الله، وكانوا لا ينظرون إلى شيء إلا ورأوا الله فيه وقبله وبعده[2].

شكرتها على هذا الشراب، ثم أردفتُ قائلاً لها:

ـ رغم كل هذه النعم ولذاتها، لم يغادر فكري أمر مولاي الحسين، ورغبته في زيارة جنتي و..

قاطعتني بلهجة المتعجب المضطرب، وقالت:

---

*[1] المطففين / ٢٧ – ٢٨

*[2] تفسير الصافي/ ج٥ / ص٣٠٢ : (... والمقربون يشربون من تسنيم صرفا وسائر المؤمنين ممزوجا، قيل إنما يشربونها صرفا لأنهم لم يشتغلوا بغير الله).

ــ عن أي أمر تتحدث؟ أتقصد الحسين سيد شباب جنان الخلد؟

ــ نعم يا عزيزتي، وعلينا تحشيد ما لدي ولديكِ لاستقباله كما ينبغي، وبقدر ما نستطيع...

الفصل التاسع :

شاهدٌ ومشهود

كان الجميع متشوقاً لساعة اللقاء، ومتلهفاً لرؤية من كان منبع نوره، وعنوان وجوده، متعطشاً لسماع حديث صاحب الشهادة العظمى، والمنزلة العليا، والدرجة الرفيعة، إنه ابن بنت خاتم الأنبياء...

أجل، كنتُ أرى في مملكتي حركة كبيرة وعمل دؤوب، والكل قد علم ما عليه فعله، فترى الملائكة والخدم كأنهم مضطربون، والحور والولدان متحيرون، ولكن الحقيقة أن الجميع كان يعمل بنسق ونظام، دون ملل وسئام، يفعلون ما يؤمرون به ممن هو أعلى منهم في الدرجة والمقام، والجميع فرح، ويلتهب شوقاً لرؤية سيده، والتشرف بزيارته، والاقتباس من نوره العظيم.

واقترب موعد اللقاء، ودعوتُ أصحاب بقية الجنان المجاورة ممن كانوا في مرتبتي، أو أعلى منها للحضور مع جميع سكان ممالكهم، كما دعوتُ أختي هدى للحضور، فأتتني مع أفراد مملكتها وزوجها الذي كان لا ينقص عنها في النور والجمال، وسألتها عن ذلك الأمر، فقالت:

ـ خيّرني ربي بين اختيار زوجي الذي كان في الدنيا، وهو اقل مرتبة مني، وبين اختيار زوج آخر[1]، فاخترتُ الأول لما رأيتُ فيه

---

*[1] تفسير الصافي / ج٣ / ص٦٨: (عن الصادق (ع) أنه سُئل عن الرجل المؤمن له أمرأة مؤمنة يدخلان الجنة يتزوج أحدهما الآخر؟ فقال إن الله حكم عدل، إذا كان أفضل منها خيره، فإن اختارها كانت في أزواجه، وإن كانت هي خيرا منه، خيرها فإن اختارته كان زوجا لها).

من النور والبهاء، ووفاءً لإخلاصه معي، ومداراته لي في عالم الدنيا، وها أنتَ تراه وقد رفعه الله إلى مرتبتي، فهو لا يقل جمالاً ونوراً عن جمالي ونوري.

رحبتُ بهما أشد الترحيب مع كل من جاء معهما، وراحت الجواري والولدان من أفراد مملكتي يخدمونهم بما لذ وطاب، وما كان ينقص من جنتي شيء!

ورغم زيادة أعداد الحاضرين والضيوف، فان جنتي لم تزل على سعتها الأولى، ولم يحدث فيها أي ضيق في المكان، أو نقص بالخدمة أو تباطؤ فيها، بل كانت تزيد سعة وضياءً، إذ زادت الورود من ألوانها، والأشجار من أغصانها وثمارها، والأنهار من مجاريها، وراحت تبدو وكأنها ليست جنتي الأولى لعظيم ضياءها، وجميل مناظرها. أما الطيور فكانت تسيح وتجول في الفضاء لتملأه بتغاريدها العذبة، وتسبّح ربها بأصواتها الطربة.

وحان الموعد واللقاء...

وجاء الشهيد في موكب من نور على نور، وساد الصمت إذعانا للحق إذ جاء، ولا تقل صف لي المجيء، وكيف يستطيع من هو ذرة من شعاع الحسين أن يصف الحسين...!

جرت مراسم الاستقبال والترحيب، ودار الحديث، وسألته عن مسائل عدة، كان منها عن سبب تكريمي بزيارته لي في جنتي، فقال:

ــ نحن الشهداء على أعمال الخلائق في الدنيا والآخرة[١]، فمن زارني في الدنيا عارفا بحقي، مخلصا لربي، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٢]، وشهدتُ له يوم القيامة بالخير، وزرته، وكنتُ شفيعه فيها.

قلتُ له:

ــ سيدي، وما حكمة البكاء عليكَ وأنتَ في نعمةٍ ومقامٍ يغبطك به الأولون والآخرون؟ ولماذا يثيب الله من بكى عليكَ، وأنتَ قد حلّقتَ إلى ربك في جنته يوم سالت دمائك الطاهرة على أرض الدنيا؟

أجاب سيد شباب أهل الجنة، فقال:

ــ البكاء دليل علاقة الحبيب مع محبوبه، والفقيد بمفقوده، وكلما زادت رابطة الحب بينهما، زاد البكاء لفقده ومصيبته، ونحن ندعو

---

*[١] الكافي / ج ١ / ص ١٩٠: (عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس " قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه ... فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عز وجل، ونحن الشهداء على الناس فمن صدق صدقناه يوم القيامة، ومن كذب كذبناه يوم القيامة).

*[٢] وسائل الشيعة – آل البيت / ج ١٤/ ص ٤٩٨: (عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما لمن أتى قبر الحسين زائرا له عارفا بحقه يريد به وجه الله والدار الآخرة؟ فقال: يا هارون من أتى قبر الحسين عليه السلام يريد به وجه الله والدار الآخرة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر).

إلى كل ما يدعم هذه العلاقة التي إن ثبتت ثبت معها السير على طريق المحبوب، والاقتداء بسلوكه.

توقف قليلاً، ثم استأنف كلامه، وقال:

ـ وإنما يُثاب الزائر لي، والباكي على مصيبتي إذا كان عارفا بحقي، مخلصاً في عمله هذا لربي. أما بدون ذلك، فمهما أجهد نفسه، واتعب بدنه، وقطع المسافات على قدمه، لا ينفعه ذلك بشيء، ولا تناله شفاعتي يوم الورود على الحق المتعال، وإن ذرف بحراً من الدموع.

قام أحد المؤمنين من أصحاب الجنان المجاورة، فسأله قائلا:

ـ وما معنى أن يكون الزائر لك في الدنيا عارفا بحقك؟ ولماذا جعلتم هذا الشرط لزوّاركم؟

قال:

ـ إن أي شخص تزوره ولا تعرف قدره، ومنزلته السامية، وكمالاته العالية، لا يتعلق قلبك به، ولا يكون حبك صادقا له، ونحن أهل بيتٍ لا يعرفنا شخص حق معرفتنا إلا أحبنا ّواتبع سبيلنا، وسلك طريقنا، كما إنه من عرفنا فقد عرف الله، ومن عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، وأخلص له، ومن أخلص له نجا من النار، وفاز بجنان العزيز الغفّار.

كان الجميع ينصت لكلامه، ويقتبس من أنوار حديثه، وبعد توقف قليل توجه نحوي، وقال:

ـ قد شفعتُ لوالدتك، وهي الآن تقضي بقية عقبات الصراط، وسوف تصلك إن شاء الله فيما بعد.

سررتُ كثيراً لهذا الأمر، ونظرتُ إلى أختي هدى فإذا بها تنظر لي أيضاً، قد غمرتها الفرحة، ولاحت على وجهها أنوار البهجة والسرور. شكرتُ إمامي على ذلك، ثم قادني طمعي إلى سؤاله الشفاعة لوالدي، فقلتُ له:

ـ سيدي، إن والدي كان في الدنيا يقيم مجالس العزاء على مصيبتك، ويمشي راجلاً إلى مرقدك، ويصرف من أمواله الكثير في خدمة زوّارك، فهل له نصيب من شفاعتك؟

أطرق الإمام قليلاً، ثم قال:

ـ إن والدك الآن يحترق في جهنم، وحالته سيئة جداً، يستغيث ولا يُغاث، ويستجير ولا يُجار، ويتوسل بشفاعتي فلا يصل إليها.

ـ ولماذا يا مولاي لا يصل إلى شفاعتك؟

ـ إن نهضتي أراد الله لها أن تكون مدرسة خالدة لا ترضى بمظاهر الظلم والفساد، أرادها الله أن تضيء دروب الحق، وتنير سُبل الوصول إليه، أما والدك فقد شارك في وضع ستائر الظلمة أمامها، وحجَب الأمة أن تستنير بأنوارها.

استغربتُ كثيرا من كلامه، وزادت حيرتي في أمر والدي، فسألتُ مولاي عن توضيح هذا الأمر لي، فقال:

ــ صحيح كان يقيم مجالس العزاء، ولكن همه الأول والأخير إبكاء الناس، وإضفاء حرارة قصوى على مجلسه وإن كان ذلك بعرض مآسي مفتعلة، وأكاذيب مختلقة، تهين الحسين ونهضته. كان يعلم بكذب القارئ وتزويره لحقائق نهضتي، فلماذا يدعوه؟ ولماذا يصرف الأموال له ويكرمه؟ كان يمشي راجلاً أياماً طوالاً لزيارتي حتى يقول الناس عنه أنه محب للحسين، ولم يجعل لله نصيبا في نيته وعمله هذا، والويل لمن يعمل للمملوك، ويترك المالك المطلق.

ندمتُ كثيراً على طلب الشفاعة لوالدي منه، ولم يكن لي جواب أجيب به مولاي، فالحق معه وله. التزمتُ الصمت، ولم يتكلم أحد من الحاضرين، فاستأنف كلامه، وقال:

ــ إذا كانت المدرسة مشوهة بالأكاذيب، فكيف يمكن للأمة أن تنهل منها؟ وإذا كانت محجوبة بظلام التزوير، فكيف تستنير الأجيال بأنوارها؟ إننا أردنا أن تبقى مواقف واقعة عاشوراء حية إلى الأبد تنادي: (**ألا ترون الحق لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً**)[1]، وأردنا من نهضة عاشوراء أن تعلّم الأجيال كيف يكون الإخلاص لله، والعشق للقائه في ظروف المأساة، وتكالب الأعداء، وقتل الأبناء والأحبة. أردنا أن يبقى جواب زينب لابن زياد خالداً ما بقيت الدنيا، يطرق أسماع أهلها: (**ما**

---

*[1] تاريخ الطبري / ج٤ / ص٣٠٥ / مقتطف من خطبة الإمام الحسين (ع) يوم عاشوراء.

رأيـــتُ إلا جميـــلاً)[١]، يعلّمهم كيف تكون المرأة عزيزة أمام الطغاة بطاعة الله، وأن كل مصيبة ومشقة جميلة في الله. أردنا أن تُعرَض مأساة كربلاء كما هي في كل عام أمام الأنظار، كي يقتدوا من خلالها بالمواقف الحقّة لأصحابي وأهل بيتي، لا بالقصص المفتعلة علينا في بعض مجالس العزاء، ومن فوق منابرها.

نظر مولاي إلى الحشد العظيم الذي ساده الصمت والسكوت، ثم التفت نحوي وقد بدا عليه أثر تأسف عميق، ثم قال:

ــ إنني أتأسف كثيراً على والدك وأمثاله من الذين جرّتهم حبائل حب الدنيا إلى اصطناع القصص الواهية علينا، أملاً في جذب الناس لهم، ورغبة لأن تكون مجالس عزائهم مملوءة بالبكاء والنحيب.

توقف مرة أخرى، ثم قال:

ــ وأسفي على عامة أهل الدنيا الذين كانوا يحضرون هذه المجالس، ويذرفون الدموع دون تمعّن وتدقيق فيما يُقال فيها، وكان الأجدر بهم أن يبكوا على الحسين، لا لأجل السيوف والرماح التي

---

[١]* أعيان الشيعة / ج١ / ص٦١٤: (... فقال(ابن زياد) كيف رأيتِ فعل الله بأخيكِ وأهل بيتكِ فقالت ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتتحاجون إليه وتختصمون عنده ...).

استهدفت جسده، ولكن لأجل الأكاذيب والقصص المهينة التي أُلصقت به وبأصحابه[١]...[٢]

طال اللقاء، ولا أحد يرغب في نهايته، وقُدِّم للحاضرين ما شاء ربي من نعيم الجنة ومأكلها ومشربها، ولم ينقص منها شيء، وارتفعت درجات العديد منا بشفاعته، وزالت عن بعضنا سمة عتقاء جهنم التي رافقتنا منذ خرجنا منها، فأصبحنا لا نختلف عن بقية سكان الجنان من أصحاب المقامات العالية.

ثم غادَرَنا...

أجل غادَرَنا، ودموع الحاضرين تسيل أسفا على فراقه، وشوقاً للقائه مرة أخرى...

مضى وقت طويل، ونحن ننتظر قدوم والدتي إلينا، حتى جاء خبرها أنها في الطريق، وسوف تصل إلى مكان (ملتقى الأحبة) عند جنة من جنان الخُلد. توجهتُ مع زوجتي إلى ذلك المكان بعد أن أعلمتُ هدى بالأمر.

---

*[١] [الملحمة الحسينية] للشهيد مرتضى مطهري / ج١ / ص١٣: (إننا يجب أن نبكي الحسين (ع) ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة).

*[٢] لم يكن نص هذا الحوار مع الإمام الحسين (ع) منقولا بالنص عن رواية أو كتاب معين، بل بالمعنى الذي جمعناه من مصادر معتبرة، ذكرنا بعض منها خلال الحوار.

وصلنا المكان المقصود، فكان جنة من أوسع الجنان، تفوق جنتي بكثير، وفيها أصناف من الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وفيها من الخدم والجواري ما يزيد على مملكتي، بل على جميع الممالك المجاورة. تقدمنا أكثر بهدف الوصول إلى موقع اللقاء، وكانت الجواري النابتات على جانبي الطريق تلتمسنا لنتــناول ما في أيديها من الكؤوس. أما الأشجار فكانت تتحني لنا بأغصانها علنا نقتطف شيئاً من ثمارها، والأنهار تنادينا بأمواجها أملاً بالاقتراب والدنو منها.

لم يشغلني ذلك كله عن الشوق للقاء والدتي وأحبتي من أهل بيتي، لا سيما بعد أن علمتُ أن عملي الصالح قد سعى في جمع من صلَح من عائلتي وهم الآن بانتظاري.

ما ألطف تلك اللحظات التي لا يستوعبها وصف واصف، ولا يعطي حقها ذو حق، إذ كانت الأفكار تلاعبني وتجرني بأمواجها يمينا وشمالا، فلا أعلم أيٌّ من أهل بيتي نجا، وأيهم هلك في نار نزاعة للشوى. كان هذا حالي في طريقي إليهم، وما غادرني شوق لقائهم، ولا لهفة رؤيتهم، حتى وصلتُ مشارف مستقرهم، فالتفتُ إلى الحوراء، وقلتُ لها:

ـ هل يمكن لكِ تصور كيف تكون مشاعر شخص يريد اللقاء بأهله بعد آلاف من السنين؟

استغربتُ من جوابها، إذ قالت:

ـ نعم إني أعلم ما تشعر به الآن.

ـ وكيف؟

ـ إنه عين الإحساس الذي كان لدي عندما علمتُ بدخولك جنتكَ، وقرب اللقاء بكَ بعد انتظار طال آلاف من السنين.

تذكرتُ ابني مرتضى الذي فارقته صغيرا حين رحيلي من الدنيا، ولم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره، وتذكرتُ هديته لي بعد ثلاثين عاما من فراقه والتي كانت سبب نجاتي من عذاب البرزخ. لابد أن يكون قد نجا ونال جنان الخُلد، بل لعله في مرتبة أعلى من مرتبتي. تذكرتُ أختي وأخوتي وزوجتي و...آه ليتني أصل إليهم، وليتهم يكونوا جميعا الآن في انتظاري.

دخلتُ مع الوفد الذي برفقتي، واستقبلتنا الملائكة بأشد الترحيب، وأعذب الأناشيد، وساروا بنا إلى المقصد المنشود، واللقاء الموعود، فأطلّت علينا اشراقاتهم ...

أجل، إنهم أهل بيتي بعينهم وحقيقتهم، عرفتهم وما جهلتُ واحدا منهم، ولكني افتقدتُ بعضهم. عانقتُ أول شخص منهم، وقد كان مقصدي الأول فيهم، وفاءً مني إليه، وأداءَ شكر له، ولطيف أن يتعانق الوالد مع ولده وكلاهما في سن الثلاثة والثلاثين[1]!

---

[1]* [العظمة] لابن حيان الإصبهاني / ج٣ م ص١٠٦٨: (عن النبي (ص) أنه قال: يُبعث أهل الجنة يوم القيامة في صورة آدم جرد مرد مكحلين أبناء ثلاثين ...).

أما والدتي فكانت تبدو بنت الخامسة والعشرين من عمرها، وقد غشيها جمالها الباهر، وإشراق وجهها الزاهر. قامتْ وتقدمتْ نحوي، وضمتني إلى صدرها الذي ابتل بدموعها الجارية، وقالتْ:

ـ قد وفيتَ بوعدك لي يا سعيد كما وفيتَ مع أختك.

أجبتها وقد اختلطت دموعي بدموعها المتلألئة من فرحة اللقاء:

ـ الفضل أولا وأخراً لله الذي صدقنا وعده، ومن أصدق من الله قيلا...